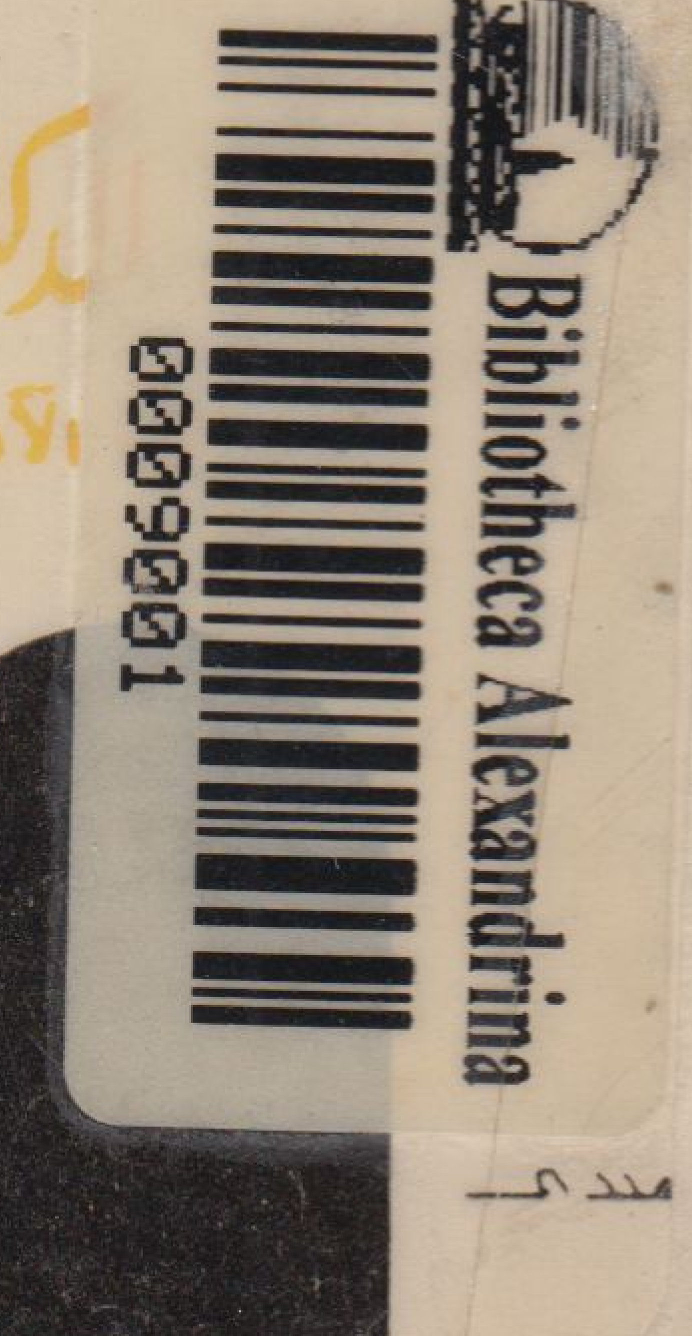
الحرب الصليبية الأولى

...دكتور حسن حبشي

...الآداب - جامعة عين شمس



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الدكتور حسن حبشي
كلية الآداب — جامعة عين شمس

الحرب الصليبية الأولى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب دراسة تحليلية للحرب الصليبية الأولى التى تعتبر بحق بذرة الاستعمار الأوروبى الغربى للشرق الأدنى تحت ستار الدين ؛ وقد يمكن أن يقال إن الدعوة إليها كانت صادرة عن إيمان صادق من جانب البابا إذ ذاك ، إلا أن مسلك زعمائها الإقطاعيين فى إقامة إمارات لهم فى هذا الشرق قبل وصولهم إلى غايتهم التى زعموا أنهم خرجوا من أجلها ، بل وعدم إتمام بعضهم الرحلة إلى بيت المقدس ليكشف القناع عن طمعهم فى تملك هذه البلاد : إسلامية كانت أم مسيحية.

والحروب الصليبية على وجه العموم جديدة فى دراساتنا العربية رغم شدة وقدم اتصالها بقطاعنا العربى ، ولاتزال مادتها بكرا سواء ما كان منها فى المصادر العربية المتأخرة بعض الشىء عن تاريخ أحداثها أو فى المراجع اللاتينية والفرنسية الوسيطة والأرمنية واليونانية ، لاسيما ما دوّنه عنها مشاهدوها ومن أسهموا فيها ؛ وإنى لأرجو أن يجد هذا الموضوع من عناية الكتّاب العرب ما هو قمين به من العناية والبحث والدراسة مما يغنى المكتبة العربية ويبين حقيقة هذه الحروب التى اصطبغت فى ظاهرها بصبغة دينية ، رغبة من دعاتها فى تغطية أهدافهم الحقيقية وتمويهها على الجماهير الأوروبية

فى سوقهم إياها لهـــذا الشرق واغتصاب ما فى أيدى أصحابه من المسلمين والمسيحيين على السواء .

أما هذه الطبعة الثانية التى أقدمها اليوم للقارىء العربى فتختلف اختلافاً كبيراً عن سابقتها ، فقد قامت على دراسة المصادر الأولى : عربية وغربية ، من معاصرة وشبه معاصرة ، كما تضمنت عرضا ونقداً وتحليلا لبعض الدراسات الحديثة الغربية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة والتى مكنتنى الظروف الزمانية والمكانية من الاطلاع عليها

وأحب أن أشكر القوامين على دور الكتب فى المتحف البريطانى بلندن والمكتبة الأهلية بباريس ومكتبة الفاتيكان وليدن بهولندة ودار الكتب المصرية وجامعة القاهرة ومكتبى مجلس الأمة ودير الآباء الدومنيكان بالعباسية ، كما أشكر أيضا الذين أمدونى — شفاها أو كتابة — بملاحظاتهم على مادة الطبعة الأولى مما انتفعت بها فى هذه الطبعة ، ولازلت أطمع فى المزيد من النقد العلمى الخالص .

والله ولى التوفيق ؟

المنيل فى ١٥ أكتوبر ١٩٥٨

حسن حبشى

الفصل الأول

الشرق الإسلامي وبيزنطة

معنى الحرب الصليبية · حروب بيزنطة التقليدية • الحج المسيحى
السلاجقة النرمان • ضعف الإمبراطورية البيزنطية

شهدت العصور الوسطى حركة من أخطر الحركات فى تاريخ الإنسانية لما تمخضت عنه من النتائج الفعالة فى ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية، وأعنى بها ذلك الصراع الطويل الذى شغل الناس فى الشرق والغرب أمداً طويلا، والذى تآلف المشتغلون بالتاريخ على تسميته بالحروب الصليبية، وترقيمها بأرقام عددية تبدأ أولاها سنة ١٠٩٧ ، وكان الهدف المتعارف عليه لتلك الحروب هو تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين وتهيئة جو مسيحىّ خالص للحجاج النصارى يؤمّنهم فى أدائهم فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين التى تنطوى على ذكريات عزيزة غالية على نفوس جميع المسيحيّين رغم تباين أجناسهم وأوطانهم وألسنتهم ومذاهبهم.

أما قصة هذا النضال الدينى المظهر المسمّى بالحروب الصليبية، والذى سيطر إلى حدّ كبير على أذهان أهالى تلك العصور، فينسبها الناس إلى التأثير العميق الذى استولى على نفوس السامعين للخطبة[1] العنيفة التى ختم بها

(1) Cf. Robert le Moine, Historia Hiersolymitana (R. H.C. Occ.), vol. m. pp. 727 - 8; Fliche : La Chretienté medievale, p. 312.

البابا إربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) اجتماعات مؤتمر كليرمونت [١] فى يوم ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ . على حين أن استعراض قصة الصراع بين أتباع المسيحية والإسلام ، وهى قصة « المسألة الشرقية [٢] » وتطلع الغرب إلى السيطرة على الشرق منذ العصور الوسطى ، يدل دلالة واضحة على أنها أقدم من ذلك بزمن طويل [٣] يمكن إرجاعه إلى مستهل القرن السابع للميلاد حين ظهر الإسلام وبسط سيطرته السياسية والدينية على كثير مما كان بيد دولة الروم الشرقية من الأقطار والولايات المطلة على البحر الأبيض المتوسط فى كل من غربى آسيا وشمالى إفريقية .

ولقد أدركت بعض الجماعات أن وراء هذه الفئة الإسلامية الصغيرة خطراً يهدّد كيانها ، ويتجلّى هذا الخطر فى حياة الرسول ذاته حين قامت بعض الكتائب الإسلامية فوطأت أرض فلسطين ، ثم قويت هذه الهجمات واستقام عودها فى عهد خلفائه الأوائل ، وهكذا نرى — منذ القدم — أن الاصدام كان عنيفاً وحادًّا بين أهل هذين الدينين وإن اختلفت العوامل التى تبعث كلا منهما .

غير أن الأخذ بهذه الفكرة يؤدّى بنا إلى اعتبار جميع الحروب التى التحمت فيها السيوف بين المسلمين والمسيحيين منذ ظهور الإسلام حروبا صليبية مما يجعل مدار البحث غير محدود زمانياً ولا مكانياً ، وبذلك يندرج

---

(١) راجع دراستنا التاريخية عن هذا الموضوع فى كتابنا « الدبلوماسية البابوية » .

(٢) كان ممن تنبه لدراسة الصلات بين شقى العالم على أنها « المسألة الشرقية » بالمعنى المألوف تاريخيا الأستاذ المؤرخ جروسيه فى كتابه L'Empire du Levant, Paris, 1946

(٣) Jorga : Breve Histoire des Croisades, (Paris, 1924), pp. 1 - 3.

تحت هـذا الاسم كل حرب اختلفت فيها ديانتا المتقاتلين منذ بدء الدعوة الإسلامية حتى عصر متأخر يدخل ضمن نطاق العصور الحديثة .

ولقد شهد الغرب حركة شبه صليبية فى محاربة البابوية للنرمندين رغم تنصرهم (١) ، كما شهد مثـــل هذه الحركة فى الحرب التى شنها الفرنسيون وملوك النصارى فى الولايات الشمالية بأسبانيا فى محـاولتهم طرد المسلمين منها (٢) ، كما أن البابوية عاونت فى عهود مختلفة على تحريض أتباعهـا على استئصال شأفة المسلمين من شبه جزيرة أيبريا على الإطلاق ، ونهج هذا النهج كل من البابا اسكندر الثانى (١٠٦١ — ١٠٧٣م) وجريجورى السابع (٣) (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) ، ومع ذلك لم يجز نعتها بالصليبية لأنه ينقصها جانبان لتصح التسمية ، أولهما : عدم اتجاهها نحو الأماكن المقدسة بفلسطين ، وثانيهما عدم حملها الصليب رغم توجيه الدعوة إليها من البابا ذاته (٤) .

ولعل أصدق تعريف للحروب الصليبية يحدّد ماهيتها هو تعريف الكونت ريان (٥) الشامل لها من أنهـا « حرب دينية خالصة ، دوافعها دينية خالصة ، وترمى إلى استرداد الأماكن المقدّسة عن طريق مباشر أو غير مباشر » ، وعلى هـذا الأساس يمكن إرجاعها إلى زمن متقدم نسبيا مما حمل

(١) Delarc : Les Normands en Italie (Paris, 1883), p. 202 ff.

(٢) Fliche : L' Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris, 1930) pp. 550 - 5.

(٣) Rousset : Les origines et les Caracteres de la premiere Croisades (Neuchatel, 1945), pp. 49 - 51.

(٤) راجع حبشى : الدبلوماسية البابوية .

(٥) Riant : Inventaire des Lettres Historiques des Croisades (Archives de L' Orient Latin), Paris, 1881, vol. 1, p. 2.

البعض على أن يتوسّع بعض الشيء فى مدى الحروب الدينية الزمنى فيذكر أن البيزنطيين هم أول من فكروا فى هذا المشروع وساروا فيه شوطاً بعيداً، وذلك أنه فى القرن التاسع للميلاد أخذت البحرية البيزنطية فى القوة بدرجة استطاعت بها أن تصدّ هجمات العرب البحرية، بل وأن تطاردهم من بعض مناطق بحر إيجه وجنوب إيطاليا، وظهر مبلغ أهمية البحرية البيزنطية فى قول الإمبراطور نقفور فوكاس Nicephore Phocas (٩٦٣ — ٩٦٩ م) لأحد المبعوثين الإيطاليين من أنه هو وحده أصبح المسيطر على البحر[١] .

ولقد كانت قوة نقفور فوكاس هذا داعية إلى التفكير فى شنّ حرب ضد المسلمين مما حمل بعض ثقات المؤرخين أمثال جروسيه[٢] على نعتها بأنها حروب صليبية ومعالجتها فى ضوء هذه التسمية، لكن الواقع الذى نستخلصه هو أن فى هذا القول كثيراً من المبالغة، وربما كان الدافع لجروسيه على هذا القول اعتماده على ما راح يعدّده المؤرخ شلومبرجر Schlumberger من اتجاهات نقفور فوكاس، فذكر أنه كان يحلم بأن يردّ إلى الإمبراطورية البيزنطية حدودها الرومانية القديمة وأملاكها ومن بينها بيت المقدس، لكن الواقع يدل على أن هذه الحروب لم تكن موجهة إلى بيت المقدس بقدر ما هى موجهة إلى تضييق الخناق على المسلمين من النواحى الشمالية بغيـــة قطع المواصلات بين حلب والموصل حتى تتفكك الجبهة الإسلامية المتحدة .

وربما كان من الصواب أن نتكلم بإيجاز عن صراع نقفور فوكاس مع القوات الإسلامية فنرى أنه تمكنّ من إنهاء النفوذ العربى فى كريت[٣]

(١) Runciman : Byzantine Civlisation, p. 151.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, t. I.

(٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية، مادة « كريت » Crête

سنة ٩٦٤ م ، ثم أخذ بعدئذ فى مهاجمة بعض النواحى التابعة للأمير العربى سيف الدولة الحمدانى ، كما استطاع إخضاع عين زربة وسيس ، ثم انحدر فى السنة التالية إلى شمال بلاد الشام وانتزع عينتاب ومنبج حيث وقع فى أسره الشاعر العربى أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، وتعددت مرات وقوعه فى يده ، وتباطأ سيف الدولة رغم إرادته فى العمل على فك سراحه مما أثار حنق أبى فراس فكانت له قصائد جمة فى عتابه يهمنا منها فى مجلى التاريخ تصويرها للحالة العامة القائمة إذ ذاك ومبلغ ضعف القوة الإسلامية عن دفع الخطر البيزنطى مما يهدد هيبتها ، ولعل فى قوله :

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع   وفى كل يوم لقية وخطاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصرٍ   وللبحر حولى زخرة وعبابُ

ما يدل دلالة صريحة على بأس الإمبراطور البيزنطى وقوة الدولة المعادية التى استطاعت أن تبلغ ذروة الفتح على حساب المسلمين سنة ٩٦٩م (= ٣٥٩ هـ) باستردادها أنطاكية واستكثارها من العنصر المسيحى فيها وإلقاء مقاليد الأمور فيها إلى عمال بيزنطيين ، وزادت الأحوال سوءاً فى تلك السنة بانتصار أحد قواد المسلمين على سيف الدولة وباستنجاده بالقوى النصرانية ودفعه الجزية لها واعترافه بالتبعية السياسية لبيزنطية (١) .

على أية حال لم يقنع نقفور بما تم له من فتوح بل تابع زحفه حتى طرق

(١) Schlumberger : Un Empereur Byzantin, Nicéphore Phocas (Paris, 1895), pp. 728 - 31.

أبواب حلب وأسرف فى أعمال الإغارة والنهب[١] ، وأحال مسجد حلب الجامع إلى إسطبل لخيله ؛ غير أن قلعة حلب عزّت عليه فاكتفى بما نال وعاد أدراجه إلى القسطنطينية .

غير أن ضعف القوى الإسلامية وتنازعها فيما بينها جرّأ نقفور على العودة إلى تحقيق هدفه من محاربة المسلمين فكتب إلى خليفة بغداد خطاباً ملؤه التحدّى ويعيّره فيه بأنه أصبح ألعوبةً فى يد أمير الأمراء ، ثم راح يهدّده بالزحف على مكة ثم بيت المقدس ثم نشر المسيحية فى كل مكان والسيطرة على الشرق والغرب . والواقع أن هذا الكتاب مثل الرسائل التى ألف وضعها كتّاب الإنشاء فى العصور الوسطى من الانصراف إلى العناية بالألفاظ وتنميق العبارات حتى ولو كان ذلك على حساب الواقع والحقيقة .

على أن جروسيه[٢] اعتبر هذا الكتاب بداية الحروب الصليبية ، لكن الواقع هو أن أحداث عهد نقفور نفسه لا تشير إلى مثل هذه النزعة ، وإنما يمكن اعتبار أعماله فى هذا الميدان حلقة من حلقات سلسلة المناوشات والاحتكاكات الحربية الدائمة بين القوتين المتنافستين : الإسلامية والبيزنطية ، ومحاولة إثبات كل منهما للأخرى أنها يقظة ساهرة على حدودها بل وإنها مستعدّة للهجوم إن دعى الأمر .

ليس من شك فى أن نقفور فوكاس راح يكيل الضربات للجماعات الإسلامية فى شمال العراق والشام ، وأصاب نصراً طيبا حين راح يعيث فساداً فى المنطقة الممتدة من أرض الجزيرة إلى نصيبين ، ثم ساعده القدر بموت

(١) Schlumberger : Un Empereur Byzantin, p. 243.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, t. 1, Introd. p. X11.

سيف الدولة الذى كان يمثل المقاومة الإسلامية والفروسية العربية فى أجلى معانيها ، ولم يتهيأ لابنه سعد الدولة ما تهيأ لأبيه من الحنكة والبأس ، فما لبث نقفور أن عاود مقاتلة الحمدانيين ، واستولى على معرة النعمان وكفرطاب وشيزر ، وطرق أبواب حماة وحمص ، ثم انطلق بعد ذلك إلى جبلة وعرقة ، وخرب نواحى طرابلس ثم انكفأ إلى عاصمته .

نستدل من هذا الثبت والسرعة التى اتسمت بها حركاته أنه كان يستوحى فى خطته السياسة القديمة التقليدية التى سارت عليها دولة الروم وأعنى بها تأديب القوات الإسلامية المجاورة .

تمكن نقفور إلى جانب هذا من استرجاع أنطاكية ، ذلك الاسترجاع الذى يعده البعض تتويجاً للحركة البيزنطية الحربية فى رأى ، والصليبية فى رأى آخر ، والملاحظ أن الذى عاون نقفور فى تسهيل مهمته هذه هو المنازعات الداخلية فى حلب وذلك بوثوب كرغويا على سعد الدولة وسلبه حلب منه ، ثم استعانته بالبيزنطيين ضد سيده سعد الدولة ، ودفعه جزية سنوية لهم .

ولقد كانت هذه الفتوح الضخمة على حساب القوات الإسلامية مشجعة البعض على أن يلتمس من الإمبراطور البيزنطى الزحف على بيت المقدس الذى لم يكن البيزنطيون جادين مطلقاً فى استرداده منذ استيلاء المسلمين عليه زمن عمر بن الخطاب ، وعلى ذلك يمكن القول بأن بيزنطة فى عهد نقفور لم تفكر جديا فى حرب صليبية تزحف بها على القدس .

ولا نستطيع أن نسمى هذه الحروب التى قامت بها الإمبراطورية البيزنطية إذ ذاك بالحروب الصليبية ، رغم أن نقفور فوكاس كان ينعتها « بالحروب

النصرانية » ، ولعله كان مدفوعاً فى هذه التسمية برغبته فى القضاء على ماكان يرميه به خصومه الداخليون من أنه كان يحارب الكنيسة التى حملتها معارضتها إيّاه على أن ترفض ما حاوله هو ذاته من حمل بطرك القسطنطينية على إصدار مرسوم دينى يقضى بإدراج من يموتون بسيوف المسلمين فى عداد الشهداء[١] .

هنا يحق لنا أن نتساءل : هل من الممكن أن ننعت تقدّم نقفور بالصليبى؟ ربما كان فى ذلك شىء من المبالغة لاسيما إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة سياسة نقفور الداخلية إزاء الكنيسة ، فقد كانت سياسة موسومة بالعنف ، وهى سياسة عرف خلفه حنا الشميشيق John Zimiskes (٩٦٩ - ٩٧٦م) كيف يستغلها لصالحه حيث بدّلها وسلك منها مسلكا ينطوى على المسامحة فسهلت عليه الحكومة .

كان من الممكن لحنا الشميشيق أن يتابع سياسة إنهاك القوى الإسلامية فى بلاد الشام ، غير أن حروبه مع البلغار استغرقت منه السنوات الأربع الأولى من حكمه ، فلما فرغ منها اتجه بقواته لتحطيم القوة الإسلامية ، إلا أنه وجد أمامه قوتين إحداهما الخلافة العباسية والأخرى الخلافة الفاطمية الفتية ؛ ومع أنه استهلّ حروبه بمحاربة الاولى إلا أنه مالبث أن أدرك ماتنطوى عليه الثانية من خطر أقوى من خطر العباسية ، وزحف بقواته حتى وقف أمام دمشق التى كانت قد وقعت إذ ذاك فى يد مغتصب تركى هو أفتكين الذى اغتنم فرصة النزاع الناشب بين خلافتى بغداد ومصر للاستقلال حيث هو ، ولكنه لم يكن من القوة أو المنعة أو النفوذ بالدرجة التى تمكنه

(١) Runciman : Htstory of the Crusades, vol. I, p. 32.

من الاحتفاظ باستقلال الناحية التي دونها ، ولذلك نراه يريق ماء وجهه إبقاءً على ولايته على دمشق ، فقد ذكرت لنا المصادر الإسلامية كيف أذلّ نفسه إذلالاً تمثّل فى خروجه لاستقبال حنا الشميشيق حين زيارته دمشق وترجّله هو وأصحابه عند اقترابهم من الإمبراطور وتقبيلهم الأرض بين يديه ، حتى ليذكر أحد المؤرخين(١) « إن الأفتكين لعب لعبا استحسنه منه ابن الشميشيق ، وشاهد من فروسية الأفتكين ماأعجبه ، فتقدّم إليه بالزيادة فى اللعب ففعل ، وأثنى الملك عليه فقال : هذا غلام نجيب وقدأعجبنى ماشاهدته منه » فقبّل الأفتكين الأرض وشكره ودعا له . وقد وردت مثل هذه الإشارة فى ابن العميد(٢) .

كان هذا العمل من الأفتكين بسطا للنفوذ البيزنطى على مابيده ممّا أدى إلى تملك البيزنطيين لبعض المناطق الإسلامية الأخرى فى بلاد الشام ، كما أدى بالتالى إلى تطلع الشميشيق إلى الزحف جنوباً ، وربما كان قصده بيت المقدس ذاتها إذا أخذنا بظاهر كتابه إلى أشود الثالث ملك أرمينيا الذى لازال محفوظاً حتى اليوم فى الوثائق الأرمنية حيث يقول له(٣) « إن رغبتنا متجهة إلى استخلاص القبر المقدس من إهانات المسلمين والصلاة فيه » ؛ ويذكر الشميشيق فى هذا الكتاب أيضا أن جماعة من أهل بيت المقدس

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣ — ١٤ .

(٢) راجع تاريخ المسلمين لابن العميد .

(٣) Matthiew d' Edesse (Documents Armeniens, R.H.C. Arm.) vol. I. pp. 13- 20; cf. Schlumberger : L' Epopée Byzantine, (Paris 1896) t.I. pp. 254 - 5.

قدموا عليه ملتمسين منه الرحمة لقاء دفعهم الجزية له[١] .

لكن على الرغم من هذه الصورة التى صوّر بها الشميشيق استسلام البلاد له إلا أنه لم يتقدم إلى بيت المقدس رغم مواتاة الظروف ، بل إن توقفه عن التقدم لاستخلاصها من أيدى المسلمين لممّا يؤيد ماذهبنا إليه من أن الحرب الصليبية بمفهومها الذى يعنى الاستيلاء على القبر المقدس لم تكن تؤلف ركناً جدّيا فى سياسة هذا الإمبراطور البيزنطى ، وهى السياسة التقليدية التى تتلخّص فى عدم التعرّض الجدى للأحرام المسيحية المقدسة منذ وقوعها فى أيدى المسلمين زمن الخليفة عمر بن الخطاب .

على أنه يجب ألا ننسى أن قوة الفواطم فى مصر إذ ذاك قد حدّتْ من نشاط الشميشيق الصليبى إنْ كان نشاطه هذا صليبيا . وتوقفت موجة الفتح على حساب البلدان والإمارات الإسلامية منذ أواخر القرن العاشر للميلاد[٢] واصطدمت بالفاطميين الذين أمدوا الاسلام بدم جـــديد وعنصر قوّى يتدفّق حياة ويتطلع للفتح ، وساعدتهم موارد مصر الداخلية على تنفيذ تلك الخطة ، وحاولوا أن يبرهنوا على صدق دعواهم فى عدم اعترافهم بخلافة بغداد ، وسبيلهم إلى ذلك قيامهم بعمل إيجابى حاسم يكون له وقعه وصداه فى شقّىْ العالم الإسلامى ، فاستردت مصر دمشق ، وحاولت أكثر من مرة الإغارة على حلب والاستيلاء عليها لولا صلابة حاميتها البيزنطية . ومن هنا يمكن أن يقال إن موجة الفتح البيزنطى ارتدت وقنعت من المجد الحربى

(١) Matthew d' Edesse, op. cit. Loc. cit.

(٢) Neumann : La Situation Mondiale de L' Empire Byzantin avant les Croisades, (R.O. L. . 1903), p. 128.

بالدفاع ، هذا على الرغم من الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥م) الذى خلف حنا الشميشيق لم تكن تنقصه الجرأة ولا الرغبة الصادقة فى نهج السبيل الذى شقه سلفه ، فما علم فى سنة ٩٩٥م (= ٣٨٥ هـ) باستيلاء الفاطميين على حلب حتى بادر وخلصها منهم ، ثم سلب منهم شيزر وحمص. ولم يستطع قهر حامية طرابلس الفاطمية [١] مما اضطره إلى الرجوع .

وقد نظفر باسيل الثانى حين نسم استرداده لتلك البلاد بالنصر الحاسم ، لأن ذلك النصر حمل فى طياته بذور الضعف الشامل ، إذ ما كاد الإمبراطور يؤوب إلى بلاده حتى وثب الفاطميون على عامله بأنطاكية وقتلوه فى أفامية ، وتبع ذلك تقلص النفوذ البيزنطى فى بلاد الشام ما عدا أنطاكية ، واضطر باسيل فى سنة ١٠٠١ م (= ٣٩٢ — ٣٩٣ هـ) لعقد معاهدة مع الحاكم بأمر الله ، وتلاها ازدياد النفوذ الفاطمى هناك وإن أصيب هذا النفوذ بنكسة عارضة سنة ١٠٢٣م (=٤١٤ هـ) لقيام أسرة صالح بن مرداس فى حلب [٢] واستقلالها بالأمر حتى سنة ١٠٧٩ م .

* * *

لم يحمل البيزنطيين على حربهم دوافع دينية خالصة بل أكثرها سياسى محض ، وليس أدلّ على صحة هذا القول من الإشارة إلى مالقيته الطوائف المسيحية فى الشرق غير التابعة للكنيسة البيزنطية من اضطهاد الإمبراطورية البيزنطية لها ، مما حمل الكثيرين من أهل هذه الطوائف على الاندماج فى الجماعات الإسلامية وفى الدولة الاسلامية التى لم تكن قاسية فى تشريعاتها ضد

(١) راجع النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة) ، ج ٤ ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٢) شرحه ، ج ٤ ص ٢٤٨ .

هذه الجماعات طالما أنها من أهل الذمة ، ولم تشرّع لها إلا ما يتطلبه تنظيم الجهاز الإدارى والحربى للدولة إزاء الطوائف المختلفة بها من نظم لا تحدّ من حرّيتها ، ولكنها تضمن فى الوقت ذاته سلامة كيانها الداخلى .

غير أنه ظهر فى القرن الحادى عشر عامل أدّى إلى تكتّل العالم المسيحى الغربى تكتلا حربيا ضد الإسلام فى الشرق ، وهذا العامل هو « الحج » .

لم يتوقف الحج إلى بيت القدس طوال العصور المختلفة ، سواء أكان ذلك قبل ظهور المسلمين كقوة فعالة على مسرح السياسة العالمية أو بعد استيلائهم — زمن عمر بن الخطاب — على فلسطين .

والحج فى حدّ ذاته راحة روحية وتذكرة للقائم به بالجهود والمشاق والمتاعب والتضحيات التى تحمّلها المسيح فى سبيل أتباعه والتى ضربها مثلا لمن بعده ، وقد اشتدت حركة « الحج » عقب تشيد قسطنطين كنيسة القيامة التى يدخلها الزائر اليوم فتطالعه أجيال وأجيال من الشرق والغرب ، وحيث يشعر زائرها برهبة عجيبة ؛ ففى ظلال الصمت المخيم على أجوائها وحجراتها المختلفة قرون من الزمان تشير إلى ما لعبته هذه الكنيسة وما بها من أيقونات من دور خطير فى حياة العالم دهراً طويلاً ، وإن تمثال العذراء القائم فى تلك الكنيسة — بما حمل من ذهب وجواهر كريمة لتعبير مادّى لإيمان روحىّ عميق يستوى فى الشعور به الملوك والسوقة على السواء ، والدين ليس وقفاً على طائفة من الناس نَبُهَ الجيل باسمها أم لم ينبه ، وإذا كان فى قدرة الأباطرة والملوك والأمراء والإقطاعيين أن يلبسوا تمثال العذراء هذه الحلىّ ففى قدرة الفقراء أن يقدّموا تعبهم قربانا زكيا كريما هو أصدق تعبير عن إيمانهم الصادق العميق .

ويلاحظ أن الغرب اللاتيني كان كثير العناية بإقامة المؤسسات في بلاد الشام بغية تسهيل الحج على الحجاج الأوربيين ، وربما كان واضع الحجر الأساسي في هذا الاتجاه أحد رجالات القرن الرابع ونعني به القديس « جيروم » الذي ولد في دلماشيا عام ٣٤٠ م من أبوين مسيحيين وأخذ بحظ وافر من الثقافة الدينية في مدارس الغرب وقتذاك ، وكان جيروم رجلا طلعة تواقاً لمعرفة الشرق ، وارتبطت هذه المعرفة في نفسه إذ ذاك بتغلب النزعة الصوفية عليها ، فزار أنطاكية والقسطنطينية ، وتعرّف على بعض رجال الدين في الشرق ، ومما يظهر رغبته الدينية العنيفة إقباله على تعلّم اليونانية والعبرية لكي ينشد بهما المزامير. ولقد وجدت دعوته الصوفية إقبالاً على وجه الخصوص بين سيدات الطبقة العليا في رومة ، فأقبلت الكثيرات منهنّ على الانخراط تحت رايته والالتفاف حوله ، وصحبه بعضهن إلى الشام ، وذهب الرهبان والراهبات من أتباعه إلى مصر للوقوف على مبادىء الرهبنة المصرية وعادوا إلى فلسطين ليعملوا على نشرها ، وكان من أتباعه سيدة رومانية ثرية تدعى باولا Paula وكانت شديدة التحمّس له ولدعوته ، فأسست نزلاً لضيافة الحاجات اللائي كثر عددهن كثرة حملتها على إنشاء آخرَين على نمط الأول .

وأهمية القديس جيروم في أنه واضع البذرة التاريخية في ربط الشرق بالغرب من الناحية الدينية المسيحية ، وأنه العامل على تحريك المسيحيين المؤمنين على زيارة الأماكن المقدّسة النصرانية في الشرق ومحاولة تنظيم إقامتهم أثناء هذه الزيارة ، وكان هذا التنظيم من جانبه مدعاةً إلى زيادة عدد الحجاج الذين أصبحوا يقومون من أسبانيا وغالة (فرنسا الحالية) بل ومن بريطانيا ذاتها .

ولا يُعرف على وجه الدقة متى بدأ الحج المسيحى إلى أرض فلسطين المقدسة ، ولكنه على أية حال قديم ، إذ المعروف أن أهالى العصور الأولى من المسيحية كانوا يعدّون بعض الأماكن مقدسة ، وقد أخذت هذه الفكرة فى التركيز فى نفوس المسيحيين وفى النمو فى أذهانهم على مرّ الأيام وتوالى الأحداث ، وكانت الفكرة ترمى إلى أن زيارة هذه الأحرام الطوبانية تطهير للنفس من أخطائها وخطاياها وتكفير عن آثامها ، ولم تقتصر فكرة القداسة على بيت المقدس وحده بل شملت كل مكان ظهر فيه قديسون شهداء ومباركون .

والظاهر أن القرن الخامس الميلادى كان عصر هزة روحية ، فنطالع أن الملكة هيلانة — والدة قسطنطين — حجّت إلى بيت المقدس حيث عثرت على خشبة الصليب المقدس فى موضع كان من المواضع التى يحج إليها المسيحيون فى العصور الوسطى ، كما نعرف أن الامبراطورة يودوكيا Eudecia هجرت حياة البلاط وأقامت فى بيت المقدس فى عزلة كانت بلسماً لجراح نفسها وعملت على العناية بالآثار المقدسة ، فأخذت تجمع كل ما تصل إليه يداها وتبعث به إلى القسطنطينية[1]. ثم جاء القرن الثامن وفيه كثر الحجاج كثرة ملحوظة وتعددت أجناس القائمين به من الغرب ، وتبودلت بشأنه الرسائل بين بعض كبار الحجاج وساداتهم وأصدقائهم فى مواطنهم الأصلية ، كما وضعت فيه مذكرات منها مذكرات الحاج الإنجليزى فيليبالد التى لا تزال محفوظة فى صورتها الأصلية وترجمتها الإنجليزية[2] .

(١) Bury : Roman Empire, vol. I, pp. 225 - 33.

(٢) راجع ترجمتها الإنجليزية فى الجزء الثالث من مجموعة Palestine Pilgrims Text. Society

وإذ ازداد الإقبال على الحج إلى القبر المقدس فقد رأى بعض ذوى السلطة الاستفادة من هذا الاتجاه الجديد واستغلاله سياسيا ، فنجد فى مستهل القرن العاشر شارل الكبير يضع من التنظيمات للحج ما يكاد يؤدى به فى النهاية إلى أن يكون تحت سيطرة الهيئة الإدارية ، فأمر بتشييد أماكن فى بيت المقدس لإيواء الحجاج أثناء تأديتهم هذا الواجب الدينى والعناية بهم نفسيا وروحيا ، إلا أنه لم يُقَدَّر لهذه العناية الكريمة أن تستمر طويلا بل ارتبط بقاؤها ببقاء الإمبراطورية قوية .

غير أن الإجماع يكاد ينعقد على أن القرن العاشر هو القرن الذى بلغ الإقبال فيه على الحج غايته ، فهو الفترة التى شهدت أولا تقلّص النفوذ العربى فى السيطرة على كثير من نواحى البحر الأبيض المتوسط وضاعت من أيديهم كذلك السيطرة على بعض الموانىء فى جنوب فرنسا وإيطاليا وفقدوا جزيرة كريت[1] .

وكان هذا عاملا نفسيا كبيرا أوحى لكثير من عامة هذا القرن بأن عصر السيادة الإسلامية قد زالت ، فاتجهت النفوس أكثر من قبل إلى القبر المقدس لأداء الحج تعبيرا عن الشكر ، وازدهرت الحركة التجارية البحرية بين إيطاليا وبيزنطة ، وشهدت فلسطين فى هذا القرن أيضا حجاجا لم يقدر لها أن تشهد مثلهم قط من قبل ، لأن الاعتقاد ساد يوم ذاك بأن نهاية العالم قد دنت ، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به على رأس الألف من السنين التى غبرت ؛ ولم تقف رغبة هؤلاء الحجاج عند الزيارة فحسب ، بل أراد بعضهم

(١) راجع مقالة « الريطش » فى الدائرة .

البقاء بفلسطين حتى يوافيه الأجل، واستولت على الناس صوفية عميقة حتى ليقال إن أحد الحجاج واسمه Lethbald استلقى على الصليب هاتفا: «أيها السيد المسيح، يامن تفضلت بالنزول عن عرش جلالك إلى الأرض لخلاص الجنس البشرى، ويامن ارتفعت إلى السماء على شكل آدمى: أتوسل إليك بعظمتك القوية أن تقبض روحى فى نفس المكان الذى شهد صعودك»[١].

ولم يقتصر الحج فى هذه الفترة بالذات على جماعات الفقراء الذين عُرفوا بفقراء المسيح بل تعداهم إلى أصحاب السلطة والسطوة وذوى الأسماء الضخمة فى التاريخ، ولم يقتصر على الرجال بل انضم إليهم النساء، فنسمع عن هيلدا كونتة سوابيا التى لقيت حتفها وهى فى طريقها عام ٩٦٩ م، وجوديث دوقة باڤاريا وقريبة الإمبراطور أوتو الكبير.

على أنه ظهر فى هذا القرن أيضا عامل كان مساعدا إلى حد كبير على ازدياد الإقبال على الحج ذلك هو تأسيس دير كلونى فى العقد الأول من هذا القرن، وأخذت قوة كلونى فى التضخم حتى أصبح ذا تدخل فى الشئون السياسية وتحريكها، وقد استطاع الوصول إلى هذه الغاية بفضل تنظيماته ورجاله المنبثين فى جميع النواحى المسيحية وغير المسيحية، وعدّوا الحج إلى الأماكن المقدسة سواء فى الشرق أو الغرب من الفرائض التى ينبغى على المسيحيين أداؤها، حتى ليقال إن زيارة الأماكن المقدسة فى إسبانيا إبان القرن الحادى عشر كانت تنظم بواسطتهم، ثم أخذوا فى تنظيم زيارات للقبر المقدس، فاستجاب لهم الكثيرون من العامة ومن علية المجتمع الوسيط،

(١) Cf. Migne : Nouvelle Encycl. Theologie, P. 818.

ووجدت دعوتهم صدى قويا فى فرنسا على الأخص فكان عدد الحجاج الفرنسيين وحدهم يكافىء عدد بقية الحجاج الإنجليز والألمان وغيرهم من الاوربيين مجتمعين معا ، كما وجدت دعوتهم إلى زيارة بيت المقدس عطفا من أدواق نورمانديا ، حتى إننا لنرى ريتشارد الثالث النورماندى يبعث إليه بصدقات جسام .

وإذا كنا قد أشرنا آنفا إلى ذهاب بعض الأماكن بالقداسة الروحية ، فقد ذهبت أماكن معينة فى ذلك القرن أيضا بهذه الشهرة العالمية مثل سنت چيمس دى كومبستليا فى إسبانيا ، وسنت ميشيل فى مونت جرجانو بإيطاليا ؛ والواقع أن هـــذا المكان الأخير كان أكثر الأماكن قربا إلى نفوس النورمانديين الذين زاد عـدد حجاجهم على بقية الحجاج زيادة ملحوظة ، وكأن هـذه الزيادة بعثت فيهم الرغبة فى زيارة القبر المقدس بفلسطين ، فما كاد القرن الحادى عشر ينتصف حتى كان حجاجهم يؤلفون الجزء الأكبر من حجاج بيت المقدس .

ويخَيَّل لمطالع أسماء الحجاج فى القرن الحادى عشر أن بيت المقدس كان أكثر جاذبيـة لجماعات الشماليين من نورمانديين وإسكندنافيين ودانيمركيين ، وربما كانت علة هـذا هى أن الامبراطورية البيزنطية كانت تصطنع بعضا من هؤلاء فى جيوشها ، فكان وجودهم فى هذه البقعة مؤديًا بهم إلى زيارة القبر المقدس ، ولقـد كان اختفاء Olaf العجيب سنة ١٠٠٠ م — وهو أول ملك مسيحى للنرويج — باعثا لأن ينسج الشماليون حوله كثيراً من الأساطير التى تنزله منزلة القداسة وتدرجه فى عداد الطوباويين .

لكن ما هى الدوافع للحج !

ربما كان أول ما يتبادر إلى الذهن هو أنّ الرغبة فى زيارة الأماكن التى شهدت التكريز بالدعوة المسيحية كانت الدافع الأكبر لهذه الزيارة، وهو قول فيه كثير من الحق، ولكن ليس كل الحق، فهناك جماعات كثيرة كانت تتخذه تكفيرا عن آثامها وخطاياها لأنّ ما يتكبده الحاج من أموال فى سفرته، وتعبه فى الوصول إلى وجهته، وطولَ زمن يقضيه منذ خروجه من بلده حتى يبلغ القبر المقدس، كل هذه كانت فى نظره كافية لأن تجبّ خطاياه. ومن الأسماء التى نصت عليها كتابات المؤرخين وأقدمها اسم Fromand أحد الأشراف الفرنسيين حيث حجّ هو وإخوته[1]؛ وثم اسم آخر هو «لاجمان جيد رودسون»، أحد الملوك النورمانديين الذى ذهب إلى بيت المقدس حافياً سيراً على القدمين تكفيراً عن خطيئته لقتله أخاه.

إن الشقة بين بيت المقدس وبين إيطاليا أو فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو البلاد الشمالية بعيدة ولاسيما فى تلك العصور التى لم يكن ثم وسيلة للانتقال فيها إلا الجياد، بل إن هذه الوسيلة كانت وقفا على كبار الملاك والإقطاعيين والسادة من ذوى الثراء، أما بقية الحجاج — وعامتهم من الفقراء — فلم يكن لديهم طريقة إلا السير على الأقدام، او ادخار مبلغ من المال لدفعه لبعض السفن لنقلهم إلى أقرب ميناء يتابعون من عنده السير حتى يبلغوا طيتهم؛ أضف إلى هذا أن أجور السفر كانت مرتفعة ارتفاعا باهظا بالنسبة للعصر، يعجز عن دفعها الأكثرون، وكان الحجاج فى القرن العاشر يبحرون إلى

(١) Cf. Runciman, op. cit.p. 45, note I.

القسطنطينية أو إلى بلاد الشام إن مكنتهم ظروفهم المادية ؛ غير أنّ حدثا هاما فى تاريخ المسيحية حدث فى الربع الأخير من ذلك القرن ، وأعنى به اعتناق حكام المجر الديانة المسيحية مما فتح الطريق البرى أمام هؤلاء الحجاج الذين راحوا يعبرون بلاد البلقان إلى القسطنطينية ، غير أنه لم يكن طريقاً مأموناً كل الأمان إلى أن تمكنت بيزنطة سنة ١٠١٩ من السيطرة على البلقان ؛ وليس من شك فى أن السفر بالبر أقل كلفة من السفر بالبحر .

غير أنّ كثرة الحجاج دعت أولى الأمر للعناية بشئونهم وذلك بإقامة الفنادق لهم ، وكان من أكثر المتحمسين للإكثار منها رهبان كلونى المنبثون فى كل النواحى ، كما أن هناك فندقا فى القسطنطينية ذاتها عرف بفندق شمشون ، قد خُصّص للحجاج القادمين من الغرب ، ويحدثنا وليم الصورى أن تجار أمالفى أقاموا نزلا فى بيت المقدس عرف بفندق القديس يوحنا .(١)

فلما جاء القرن الحادى عشر اتّسم الحج بسمة لم تكن ظاهرة تماما فيه من قبلُ ، وأعنى بذلك خروج الحجاج فى فئات كبيرة مسلّحة ، ويمكن تفسير الغرض من ذلك التسليح بالدفاع عن النفس ، ولكن ضد من ؟ أهو دفاع ضد المسلمين ، أم من يتعرضون للحجاج فى الطريق ؟ أم ضد البيزنطيين؟ . . . ربما كان الثلاثة معا ، وعلى أية حال فقد أصبح حجا مسلحا .

وقد خافت بيزنطة من هذا الحج المسلّح ، لاسيما بعد أن اعتنق المجريون النصرانية على يد سنت اتيين (٩٩٧ - ١٠٣٨ م) ، إذ كان هذا الاعتناق إيذاناً بفتح الطريق البرى أمام حملات الحجاج الغربيين المسلحين للوفود إلى الشرق - أكثر مما كان من قبل .

(١) William of Tyre : Estoire de Eracles, pp. 822 — 6.

ومن حملات الحج المسلحة التى أرهبت بيزنطه حملة جونتر أسقف بامبرج التى تألفت من كبار رجال الدين والفرسان الألمان ، فقامت فى أخريات عام ١٠٦٤ وفيها سيجفريد رئيس أساقفة مينز وأتو أسقف راتسبون ، ووليم أسقف أوتريخت ، وقد بولغ فى ما استصحبته هذه الحملة الدينية من متاع استلفت الأنظار ، حتى أنها لما بلغت القسطنطينية شدهت أنظار الإمبراطور الذى رأى فى جونتر « أميرا فى زى أسقف » كى يسهل عليه الوصول إلى بيت المقدس[١] .

على أية حال تابع هؤلاء الحجاج سيرهم حتى طرقوا أبواب اللاذقية ، حيث صادفوا جماعة من الحجاج النصارى العائدين من بيت المقدس فنصحوهم بالعودة من حيث أتوا لما صادفوه من تعنت المسلمين ، ولكنهم لم يستمعوا إليهم بل مضوا فى سيرهم حتى وصلوا قرب الرملة حيث خرج عليهم جماعة من البدو شتتوهم واضطر أسقف بامبرج فى النهاية إلى الرجوع .

ويكاد الإجماع بين المؤرخين ينعقد على أن رواد الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة من أهل الشرق والغرب على السواء لم يكونوا يصادفون شيئا من العنت أو الإرهاق أو الشدة من جانب المسلمين[٢] الأوائل ، حتى إننا لنسمع مؤرخا حديثاً[٣] يصرح بأن المسيحيين كانوا أسعد حظاً فى الغالب تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم الأباطرة الرومان حيث تمتعوا بحرية التجارة والعيش فى ظل من الأمن قوى ، زيادة على أن المسلمين

(١) Brehier : L' Eglise et L' Orient, (Paris, 1928), p. 46.

(٢) Jorga : Byzantine Empire, p. 49 seq.

(٣) Runciman : op. cit. p. 26.

لم يرهقوهم بالضرائب كما كانوا يعانون من قبل ؛ وثم دليل ناصع على حسن سياسة المسلمين إزاء المسيحيين فى هذا الخطاب الذى بعث به أسقف بيت المقدس فى القرن التاسع الميلادى إلى بطرك القسطنطينية ، وفيه يشير إلى حسن معاملة المسئولين للنّصارى ، وأنهم لا يستعملون معهم أى نوع من العنف أو القسوة[1] .

على أنه لا يُنكر أن هؤلاء الحجاج المسيحيين وجدوا كثيرا من المتاعب زمن ضعف الحكام المسلمين وتفكك الخلافة ودخول جماعات جديدة فى الدين حملها تحمسها على أن تسلك فى بعض الأحيان سبيل العنف ، كما أنّ بعض المسلمين نقموا على المسيحيين ما كانوا ينعمون به من ثروة وجاه ورفعة ومنزلة عند بعض الخلفاء والسلاطين والملوك[2] .

على أية حال لعب الحج أكبر دور فى توجيه الغرب النصرانى توجيها روحيا واقتصاديا وسياسيا وحربياً إلى الشرق الإسلامى فى القرن الحادى عشر ، ولم يقف بعد المسافة بين الأقطار وبين بيت المقدس حائلا دون القيام بالحج ، بل كلما زادت الشقة بعدا أمام الحاج العادى والطريق نصباً زادت نفسه اطمئنانا إلى غفران خطاياه ومحو آثامه ، وما قيمة التعب الذى يصادفه ؟ أليس المسيح هو القائل هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله[3] » ؟ وإذاً فلا محل للشكوى من أهوال الطريق وما يصادفه « الحاج المسيحى » من متاعب جثمانية مظهرها الجوع والظمأ وتشقق الأيدى والأقدام والعرى

(1) Mansi, Concilia (in) Runciman : op. cit. p. 27, note. 2.

(٢) راجع ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٣٦ الى ١٤٧

(٣) يوحنا ، ١١ : ٤

أحيانا ، والسير فى حمارّة القيظ أو تحت زمهرير الشتاء ، فكل هذه المتاعب ليست ألا تمجيداً للرب وللعقيدة الدينية الخالصة ، وهذا هو إيمان المسيحى الماضى إلى فلسطين حيث يعدُّ تعفير قدميه فى تراب البقعة التى شهدت مولد المسيح وتكريزه وآلامه فى سبيل الإنسانية راحة نفسية عميقة تصاحبه فى دنيه وزاداً يتقوت به فى أخراه ، كما يرى فى هذه الزيارة مولد جديدا تطمئن له نفسه .

على أن الحجاج لاقوا عنتا كبيراً بعضه من الدولة للبيزنطية ذاتها (١) وبعضه من المسلمين .

أما فيما يتعلق بالإمبراطورية البيزنطية فالمشاهد أنها كانت لا تعارض فى وفود الحجاج المنظمين الذين لم تكن بغيتهم إلا تأدية الواجب الدينى بزيارة القبر المقدس ، غير أنها بدأت تخاف من الحجاج النورمانديين الذين رأت فيهم فرسانا مسلحين ، وكانت بيزنطة أكثر إدراكا من غيرها بما يبيته النرمنديون من نوايا سيئة ضدها وبرغبتهم العنيفة فى إيجاد مجال حيوى لاستغلال نشاطهم الفتىّ دون رعاية للدين ، وعرفتهم على وجه الخصوص من غاراتهم المتعددة على أملاكها فى إيطاليا ، فلا عجب إذا داخلها الشكّ فى هؤلاء الحجاج النورمانديين إلى بيت المقدس وعملت على مضايقتهم خوفا على نفسها .

ووجد الحجاج المسيحيون عامة فى بعض الأحيان عنفا من بيزنطة تمثّل فيما حدث فى زمن باسيل الثانى وابنة أخيه الإمبراطورة تيودورا ، فقد أمرا رجالَ الجمارك البيزنطية بجباية ضريبة على الحجاج وجيادهم ، وهو

(١) Brehier : Schisme Orientale du XIe Siécle, pp. 21 - 2.

أمر لم يكن مألوفا من قبل ، هذا بالإضافة إلى ما فيه من إرهاق لجماعات الحجاج ومعظمهم من الفقراء ، وقد حمل هذا العمل البابا فيكتور الثانى (١٠٥٥—١٠٥٧م) على أن يبعث برسالة فى ديسمبر سنة ١٠٥٦ إلى الإمبراطورة تيودورا ملتمسا منها إلغاء هذا القرار[١] ، والواقع أنه حدث قبل ذلك بعامين شقاق بين ممثلى كنيستى بيزنطة وروما ، وهو شـــقاق أدّى بمندوبى البابا ليو التاسع (١٠٤٩ — ١٠٥٤) أن يعلنوا من على منبر القديسة صوفيا قرار حرمان بطريرك القسطنطينية[٢] ، وكان هذا الإعلان بمثابة لطمة لهيبة الإمبراطورية بأجمعها مما حملها على أن تقف موقف المضايقة من الحجاج الغربيين القادمين إلى زيارة بيت المقدس والذين يعبرون بلاد الإمبراطورية .

ولم تعدم بيزنطة الرسمية حيلة فى مضايقة الحجاج الغربيين والتعنت معهم وذلك بالحيلولة بينهم وبين إكمال رحلتهم ، فقد حدث فى السنة التالية لهذا الشقاق ، أعنى سنة ١٠٥٥ أن قام Luthbert — أسقف كامبرى — برحلة إلى بيت المقدس فركب إلى اللاذقية حيث توارد إلى سمعه أن المسلمين «السلاجقة» سوف يحولون بينه وبين إتمام رحلته ، فعاد إلى قبرص التى استبقاه حاكمها البيزنطى بضعة أيام ، ثم حال بينه وبين السفر لبيت المقدس بحجة الخوف عليه من الوقوع فى أيدى المسلمين[٣] .

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الشقاق المذهبى بين الكنيستين والخوف من الحجاج المسلحين كانا من العوامل المؤدية ببيزنطة إلى إرهاق

(١) Cf. Riant (in) Archives de L' Orient Latin, t. I, pp. 50 - 53, Brehiér, L' Eglise et L' Orient, p. 42.

(٢) Cf. Brehiér, op. cit. p. 41.

(٣) Brehier : op. cit .p. 42.

الحجاج . ويذهب رنسيمان إلى محاولة تبرئة ساحة الأباطرة وإلقاء تبعة هذه هذه المضايقة على أكتاف كبار الموظفين ، بل إنه يرجح أن كراهية بيزنطة للنورمانديين كانت أكثر من هذا الشقاق المذهبي في حملها على سلوك هذا المسلك[١] ، ولقد كانت بيزنطة تدرك نوايا البابوية نحوها ، وهي نوايا لا تنطوي على خير مطلقا ، وليس أدل على ذلك مما حدث عام ١٠٥٩ حين قام البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩ — ١٠٦٠) من عقد معاهـــدة مع النورمان بإيطاليا[٢] أخذ روبرت جيسكارد بمقتضاها دوقية أبوليا ، وكان هذا العمل من جانب البابا رمزا لمضايقة بيزنطة ؛ ذلك أن روبرت جيسكارد كان أكبر العاملين على تقويض القوة البيزنطية في إيطاليا .

كذلك صادف الحجاج الأوربيون مشقة عظمى زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، والواقع أن سياسة الحاكم من أعجب السياسات في التاريخ على الإطلاق ، على أن المحنة لم تقتصر في زمنه على المسيحيين وحدهم بل تعدتهم إلى اليهود والمسلمين أيضا[٣] .

* * *

وكان للحج في العصور الوسطى تقاليده الخاصة به لا سيما في الغرب إذ

(١) Runciman : Hist. of the Crusades p. 49, note 2.

(٢) تاريخ أوربة في العصور الوسطى لفيشر ترجمة زيادة والعريني ، ص ١٣١ .

(٣) يذكر الذهبي أن الحاكم بأمر الله أمر بقتل الكلاب في مملكته ، وأبطل الفقاع والملوخية ، ونهى عن السمك وظفر بمن باع ذلك فقتلهم ، ومنع من بيع العنب وأباد الكثير من الكروم ... وأمر اليهود بأن يحملوا في أعناقهم قرامى الخشب في زنة الصلبان أيضاً وأن يلبسوا العمائم السود ولا يكتروا من مسلم بهيمة ، وأن يدخلوا الحمام بالصلبان ، ثم أفرد لهم حمامات ، وأمر بهدم الكنيسة المعروفة بالقيامة ... وطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك ثم بدا له فقتلهما صبراً ؛ راجع النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١٧٨ .

يتحتم على الراغب فيه أن يستأذن الأسقف ويتناول منه عصا الحج ومزوداً ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير حتى إن روبرت دوق نورمانديا خرج حافى القدمين سنة ١٠٣٥ وبصحبته كثير من « الفقراء » الذين كان يعيلهم من جيبه الخاص .

أما العصا فتكاد تبلغ طول الحاج وفى وسطها عقدة ، وقد تزاد أخرى فى أعلاها وكثيرا مايعقد هذا الطرف على شكل صليب . وأما المزود فيعلق برباط ، ويزوّد الحاج بكتب توصية إلى جميع الأديرة التى يمر بها ، فإذا جاء يوم الرحيل خرج أهله وأحباؤه وكاهن القرية مرتّلين الأناشيد الدينية ثم يقفل الركب راجعا ، ويخبُّ الحاج فى طريقه بروح ملؤها الإيمان والشوق للغاية التى غادر من أجلها أهله وبنيه ووطنه ، وقد تكون الشقة بعيدة لكن يعوّض عليه ذلك وثوقه من ترحيب كل من يصادفه به .

وقد يعمد الحاج فى بعض الأحيان إلى التعريج على روما فيتناول من يد البابا ذاته الصليب ويتلقى بركاته ، ثم يمضى إلى أحد الموانى الإيطالية حيث يركب البحر إلى القسطنطينية وينحدر منها عبر آسيا الصغرى إلى بيت المقدس[١] .

وظل الحجاج من القرن الثالث على هذا المنوال ثم أخذوا منذ أواخر القرن العاشر يسلكون عبر بلاد المجر بعد اعتناق أهلها النصرانية[٢] ، وكان الحجاج إذا بلغوا حدود بيت المقدس دفعوا للمسلمين رسم الدخول عند باب يعرف « بباب الحاج » ، وحينذاك يؤذن لهم بالتجول فى نواحيها وأداء مناسك الحج ورسومه الدينية ، ومعنى هذا أن أبواب المدينة لاتفتح على

(١) Migne : Nonvelle Encycl. Theologique, p. 809 - 13.

(٢) راجع ما سبق ص ٢٣ .

الأكثر إلا الأغنياء أو من فى حكمهم[1] ، ويعرج الحاج بعدئذ على كنيسة القيامة والضريح ثم يصعد جبل الزيتون ويمضى إلى مغـارة بيت لحم ، ثم يستحم بماء الأردن ويأخذ بعض سعف النخل ، ويحملها معه إلى بلده حيث يضعها على مذبح الكنيسة ، وأصبح الحجاج يرسمون على ملابسهم علامة الصليب[2].

هذه هى تقاليد الحاج فى العصور الوسطى إلى الأماكن المقدسة .

* * *

لم يدخل عامل الحج فى توجيه بيزنطة لمحاربة المسلمين ، وكذلك يمكن أن نسقط من حسابنا فى هذا التوجيه فكرة استرداد بيت المقدس من أيديهم ، ولكنهم أرادوا تأديب القوى الإسلامية ، فقيل إنهم فكروا فى الاستيلاء على مكة[3] ذاتها كرد فعل لاستيلاء المسلمين على الأماكن المقدسة بفلسطين ، وهناك من يذهب للقول بأن بعض أباطرتهم كان يهدف للاستيلاء على بغداد أيضا[4] ، وربما شجعهم ضعف الخلافة العباسية على السير قدما فى مشروعاتهم الحربية الجريئة على حساب القوات الإسلامية المغـــيرة فى بلاد الشام وشمال العراق .

على أن هناك عنصرا قويا جديدا دخل الدولة العباسية وشدّ من قواها الحربية ونعنى به السلاجقة الذين وفدوا على العراق من منطقة بحر

(١) Lacrois : La vie militaire el Religieuse au moyen âge, p. 110.

(٢) Ibid., p. 400 .

(٣) Schlumberger : Un Enpereur Byzantin, p. 430.

(٤) Ibid., p. 257.

أرال[١] ، وكان تحمسهم للإسلام وللمذهب السنى على وجه الخصوص أبرز مايميزهم ، ووجدوا فى بلاد العراق الخصيبة وماحولها ماحملهم على التفكير الجدّى فى الاستقرار، فقام زعيمهم طغرلبك (١٠٢٨ = ٤٣١ هـ) باحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم ، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى واحتل نيسابور عاصمة خراسان ، وتدرجت القوة السلجوقية فى معارج البأس فدخل أصحابها بغداد سنة ١٠٥٥ . وكان من الطبيعى أن تحتك القوة السلجوقية الناشئة بالإمبراطورية البيزنطية : فأخذ السلاجقة فى الإغارة على أطرافها فى البلاد الأرمنية ، ففى سنة ١٠٤٩ م أغارت فئة منهم بقيادة إبراهيم إينال بن أخى طغرلبك على نواحى أرضروم ، ثم تتابعت الهجمات السلجوقية على أرمينيا فأحرقوا ملطية عام ١٠٥٧[٢] وبعض الأماكن الأخرى التى انتزعوها من يد عمال بيزنطة الأرمن[٣] .

غير أن حدّة الفتح على حساب الولايات الأرمنية لم تهدأ بوفاة طغرلبك وتولية ألب أرسلان مكانه ، فقد انتزع مدينتى آنى وكارس[٤] اللتين كانتا خط الدفاع الأول عن السيادة البيزنطية فى هذه المنطقة ، ولم يكن يغيب عن الأذهان أن وقوع أرمينيا فى أيدى السلاجقة سوف يمهّد الطريق إلى آسيا الصغرى ذاتها .

---

(١) فيايتعلق بأصل السلاجقة راجع Grousset, L' Empire de Steppes, pp. 203-5.

(٢) Matthiew d' Edesse, op. cit. pp. 107 - 8.

(٣) Ibid., p. 111 على أنه يستفاد من المقريزى فى السلوك (طبعة زيادة) ج ١ ص ٣٢ أن طغرلبك اصطنع سياسة الموادعة مع البيزنطيين أنفسهم حين أنفذ سفارة إلى القسطنطينية لعقد السلام إجابة لطلب إمبراطورهم ، راجع أيضا Grousset : Hist. des Croisades, t. I, Introd.d. p. XXIX .

(٤) J. Laurent : Byzance et Les Seldjoucides , p. 24 وراجع الدائرة الاسلامية مقالة kars لبارتولد .

كذلك أخذت جيوش ألب أرسلان القدس والرملة من الفاطميين،(١) وعاصره الإمبراطور رومانوس ديوچين (١٠٦٧ — ١٠٧١ م) الذى حاول تقوية الجيش البيزنطى ، وليس من شـــك فى أن رومانوس كان يستهدف إرجاع عظمة بيزنطة ولكنه نسى ماصار إليه الجيش البيزنطى من ضعف لاسيما من جراء سياسة سلفه قسطنطين العاشر الذى عمل على تخفيض عدد القوات المقاتلة(٢) ، ومن ثم فقد كانت مهمة الإمبراطور الجديد ذات شقين أحدهما يرمى إلى تقوية الجيش وثانيهما طرد السلاچقة من الأناضول ، غير أنه أخطأ التوفيق حين عمد إلى ضم عناصر مرتزقة من نرمان إيطاليا وتركان جنوب الروسيا وفرنجة أوربة الغربية وبعض الجماعات الصقلبية ، وهكذا كان الجيش خليطا من تلك العناصر الأجنبية وإن نجحت بعض الشىء فى مضايقة السلاچقة(٣) .

قام رومانوس ديوچين فى ربيع ١٠٧١ (= ٤٦٤ هـ) بمحاولة استرداد أرمينيا وجمع جيشا ضخما من المرتزقة ظهرت فيه غلبة العنصر التركمانى(٤) ، حتى إذا بلغ بهم مشارف أرضروم قسّمهم قسمين يتألف أحدهما من جماعات الكومان بقيادة القائد البيزنطى يوسف طرخانيوتس ، يعاونه أحد فرسان النرمان واسمه رسل دى باليول(٥) Roussel de Bailleul ، وقد مضى هذا

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ — ٩٩ ؛ السلوك للمقريزى ، ص ٢٣ .

(٢) Laurent, op. cit. pp. 49 - 59.

(٣) راجع أحداث هذا بالتفصيل فى ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٠١ — ١٠٤ ؛ Vasiliev Hist. de L' Empire Byzantin (Paris, 1932), t. I, pp. 466 — 74; Laurent . op. cit. pp. 25 - 9, Grousset . op. cit. Introd., pXXIX seq.

(٤) Vasiliev : op. cit. p. 468.

(٥) فيما يتعلق بالدور الذى لعبه هذا المخاطر النرمندى ومطامعه فى تكوين إمارة مستقلة له وتمرده بعد قليل على مولاه الفرعى راجع Newmann, op. cit. t. I, pp. 197 — 8.

الفريق لمهاجمة خلاط على ضفات بحيرة ڤان ، أما الفريق الآخر فكان بقيادة الإمبراطور ذاته وقد زحف قاصدا ملازكرت .

كان ألب أرسلان فى هذه الأثناء فى الموصل حين وفد عليه بعض أهالى خلاط وفيهم قاضى منزيكرت يستصرخونه للدفاع عنهم[١] ، فما كان منه إلا أن استجاب لهـــذه الدعوة وخرج على رأس جيش قوى قوامه السلاجقة والأكراد .

التقى الجمعان يوم ١٩ أغسطس ١٠٧١ م جنوب المدينة[٢]، وجدّ من الأمور مالم يجر قط فى حسبان الإمبراطور ، إذ تحرّكت عصبية الدم عند مرتزقة التركمان فتركوه وانضموا إلى السلاجقة ، وكأنّ المقادير أرادت أن تسخر منه وأن تهوّن على نفسه موقف التركمان فأتته الخيانة على يد قواده ذاتهم ، فقد اعتزل روسل دى باليول المعركة دون أن يمدّ يد المساعدة إلى مولاه ، كما أن قائداً آخر عنده هو أند رونيكس دوكاس — وكان طامعاً فى العرش — رأى أن الدائرة لابد وأن تدور على الإمبراطور ، وهنا وضع مصالحه الخاصة فوق مصالح البلد ، فانسحب بقواته قاصدا الذهاب إلى القسطنطينية ليعالج الأمور قبل أن يفلت زمامها من يده .

انفض عن الإمبراطور جميع من حوله إلا الأقلون ، بيد أنه أبلى مع هـــذه القلة البلاء الحسن حتى نفق من تحته جواده وسيق أسيراً إلى ألب أرسلان الذى ما لبث أن ردّه إلى بلاده بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق

(١) Chalandon, La Campagne de Manzikert (in) Byzantion, (1934), p. 640.

(٢) Cf. Ency. Islam, art Malazgerd; Laurent, op. cit. p, 43, note 10.

بترك التعرض لشيء من أعمال الإسلام وإطلاق الأسارى ، كما أخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ؛ ولكن ماجد بعد ذلك من القبض عليه على يد قواد ميخائيل السابع قرب أطنة يدخل ضمن نطاق التاريخ البيزنطي[١] ، وهكذا خسرت الإمبراطورية البيزنطية وقعة ملازكرت التي يعدها معظم المؤرخين نقطة الانتقال في تاريخ الدولة والحروب بين الإسلام والمسيحية وأنها أكبر نكبة في تاريخ بيزنطة[٢] .

لم يكن ثمت شك في أن وقعة ملازكرت كانت من الوقعات ذات الأثر البالغ العميق في تاريخ بيزنطة فقد كشفت القناع عن ضعف قوتها الحربية ضعفاً لم يعدم الغرب الأوربي أن يجد فيه ذريعة تؤيد تدخله في بقعة الشرق الإسلامي والمسيحي على السواء بحجة المحافظة على المسيحية في هذه البقاع ، ولم تلبث هذه الفكرة أن راحت تلتمس لها المبررات . فقالت إن الحجاج المسيحيين لم يعودوا آمنين على أنفسهم ولم تعد هناك قوة تحميهم ، بل إنه على ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفسر تلك النقمة التي راح يرددها الغرب من أن الإمبراطور الكسيس كومنين شعر بضعف قواته إزاء القوة الإسلامية النامية ، فكان من ذلك الزعم القائل بأنه بعث بكتاب استنجاد إلى روبرت كونت فلاندر ، وكان هذا الكتاب تكئة اتخذها دعاة الحرب الصليبية الأولى في تبرير القيام بتلك الحملة .

(١) كل هذه الأحداث مذكورة بالتفصيل في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٩٩ — ١٠٥ ، وراجع أيضا Neumamn , La Situation mondiale, pp. 105 - 8

(٢) Vasiliev , op. cit. , t. I, p. 499, Baynes · Byzantine Empire, p. 138 ; cf ·Grousset, op. cit. Introd., p XXXIII; Runcimanu, op. cit. vol. I, p. 64 .

ولا جدال فى أن وقعة ملا زكرت هذه كانت هزة عنيفة أصابت كيان الإمبراطورية التى لم تستطع الإفاقة منها ، وكان من الممكن أن تؤدى إلى أسوأ مما أدت إليه عام حدوثها لولا أن ألب أرسلان اكتفى منها بانتصاره السحيق ولم يتابع ماهيأته له من إمكان السيطرة الكلية على مقاليد الإمبراطورية أو على الأقل إضعافها أكثر مما حدث .

على أية حال مال ميزان القوى الحربية فى منطقة الشرق ، فالدولة البيزنطية تزداد كل يوم ضعفا ، والسلاجقة يدرجون فى معارج القوة والنفوذ والفتح ، وأدى الضعف الداخلى فى بيزنطة إلى نشوب الفتن الأهلية وتنازع الطامعين فى العرش ، وليس من المبالغة فى القول فى أن الفضل فى تمكين السلاجقة من الاستيلاء على كثير من مدن الأناضول راجع إلى الأحداث البيزنطية الداخلية ، ففى سنة ١٠٧٨ تمرد أحد القادة البيزنطيين واسمه نقفوربو تنتياتس Botantiatés على الإمبرطور ميخائيل دوكاس ، وجند جيشا استعان فيه بجماعات من التركمان والأكراد والسلاجقة ، وتم له بواسطة هذه القوات فتح بعض البلاد أمثال أزنيق ونيقية ونيقوميديا وخلقدونية ، وتركز أهمية هذه الحركة من وجهة النظر السلجوقية فى أنها أتاحت لهم الفرصة لأن يقوموا بحراسة نيقية على وجه الخصوص ، ونظروا فيما حولهم فرأوا أنهم كانوا عصب هذا الفتح ، وإذا كانوا قد أتموه لغيرهم فما الذى يحول بينهم وبين أن يجعلوه ملكا خاصا لهم ؟

كان معنى هذا اتجاه موجة الفتح السلجوقى شطر آسيا الصغرى ، فانطلقوا فى حملات عدة يجوبون بعض النواحى القريبة منهم ويستولون على المدن

والقرى ، وأصبحوا بذلك فى وضع يسيطرون منه على الطريق الموصل بين القسطنطينية والأناضول ، أى أنهم أصبحوا على مقربة من قاعدة دولة الروم الشرقية . واستفحل خطر المرتزقة السلاجقة حتى راحوا يتمرّدون على نقفور بوتنتياتس نفسه [١]، وماكان له إلا أن يلوم نفسه على استعانته بهم ، وإذْ كانوا يدركون نتيجة بيعهم سيوفهم من ربح لهم فإنهم سرعان ما وقفوا إلى جانب ثائر آخر اسمه نقفور ميليسين Melissene وراحوا يحاربون بيزنطة تحت لوائه سنة ١٠٨١ م .

لم تكن هناك من قوة يمكن للخارج على الإمبرطورية أن يستعين بها سوى قوة السلاجقة ، وهذا ما فعله نقفور ميليسين هذه المرة أيضا حين عقد اتفاقية مع سليمان بن قُطَلْمِشْ ، ولا نعرف مواد هـــذه الاتفاقية بالتفصيل ، غير أن بعض المؤرخين يؤكدون أنه أعطى لسليمان الحق فى الاستيلاء على نصف الولايات والمدن التى يستولى عليها من بوتنتياتس [٢] . وسار الطرفان على شىء من الاتفاق .

غير أن الثائر ميليسين ما لبث أن أعلن خضوعه لألكسيس كومنين معترفا بأنه الإمبراطور الوحيد ، إلا أن السلاجقة رفضوا مجاراته فى خطته الجديدة ، وظلوا مقيمين حيث هم وآلوا ألا يبرحوا الناحية التى هم بهـا ، وذهبوا إلى أبعد من هذا فاعتبروا نيقية وجميع النواحى التى حولها ملكا لهم بعد أن أخلّ حليفهم بعهده معهم ورجع عما دعاهم من أجله .

ثم سلبوا من الإمبراطورية البيزنطية ذاتها فى الوقت نفسه أزميـــد

---

(١) Laurent, Byzance et les Seldjoucides, p. 98.

(٢) Ibid., Loc. cit.

(نيقوميديا) ولم يستطع ألكسيس استردادها منهم إلا بعد موت سليمان بن قطلمش عام ١٠٨٦[١]

* * *

على أن السلاجقة لم يقفوا عند هذا الحد من هزيمة الإمبراطورية البيزنطية وإذلالها بل امتدت أطماعهم إلى بلاد الشام ذاتها ووجدوا فيها تنفيسا لنشاطهم الحربى

ولما تولى تتش الأمر ضم جنوب سورية إليه فاستولى على دمشق سنة ١٠٧٩ (٤٧١ هـ) واستقام له الأمر فيها وأحسن السير فى أهلها[٢] ، ثم جدّ النزاع بينه وبين أخيه ملكشاه ، فخاف منه تتش ولم يحرك ساكناً ضد ما فعله أخوه من إقطاعه حلب لقسيم الدولة آق سنقر جد بنى زنكى ، كما أقطع الرها لبزان ، وأنطاكية لياغى سيان .

غير أنه بعد موت ملك شاه تحرّك تتش فى يونيو ١٠٩٤ (= جمادى الآخرة ٤٤٨ هـ) قاصداً حلب ، فاتحدت قوات بُزان وآق سنقر ، وأمدّهما السلطان بركياروق بقوة من عنده بقيادة كربوغا فلم تُجْد نفعا ، إذ انعقد لواء النصر لتتش وإن حمل فى طياته كل دلائل الضعف فى وقت استعدّت فيه أوربة لحمل السلاح لنجدة بيت المقدس وهبّ عليها ريح من التعصّب والمطامع الشخصية والرغبة فى بسط سلطان الكنيسة الغربية على الكنائس فى الشرق[٣] . إلا أن تتش مالبث أن قتل فتقاسم البلاد أبناه : رضوان

(١) راجع مقالة « أزميد » فى الدائرة .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٢ .

(٣) Rousset, op . cit. p. 56.

(١٠٩٥ — ١١١٣ = ٤٨٨ — ٥٠٧ هـ) ومقره حلب ، ودقاق (٤٨٨ — ٤٩٨ هـ = ١٠٩٥ — ١١٠٤ م) ومركزه دمشق . ودبّت الشحناء بين الأخوين[1] ، ولم تخفّف حالة الضعف على الدولة الفاطمية فى مصر فأرسلت فى أغسطس[2] ١٠٩٨ الأفضل لأخذ بيت المقدس من يد بنى أرتق ، إذ نهض الوزير الفاطمى فى شعبان ٤٩١ هـ إلى بيت المقدس وفيه بنو أرتق فراسلهم طالباً إليهم تسليمه من غير حرب ولا سفك دماء ، فلم يجيبوه إلى طلبه ، وحينذاك قاتل البلد ونصب عليه المناجيق فهدمت ثلمة من سوره ، واستطاع الفاطميون امتلاك وتسلم محراب داود[3] ، وهذا مظهر جلى من مظاهر الضعف الشامل الذى ألم بالدولة السلجوقية واقترن زمنيا بظهور ألكسيس كومنين .

* * *

إذا كان المسلمون فى بقعة الشرق الأدنى — لاسيما فى بلاد الشام وآسيا الصغرى — قد أصبحوا فى حال من الضعف شديدة ، فقد مرت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت بالذات بمثل هذا الدور حين تعرضت لخطر خارجى هو ظهور النرمنديين كقوة فعالة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وتطلعهم للاستيلاء على بعض جزائره واحترافهم القرصنة فيه فى وقت السلم ، ثم اتخاذهم سياسة فتح جديدة وجهتها الشرق على حساب أى قوة تقف فى طريقهم .

(١) توجد سورة من هذا النزاع فى ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٣٣ . وراجع أيضا أبا الفداء : المختصر (طبعة أوربة) ج ١ ، ص ٣ .

(٢) راجع فى تحقيق التاريخ Hagenmeyer : Chronolgie de La premiere Croisade, p. 322, note 2.

(٣) راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ .

كان القرن الحادى عشر الميلادى هو عصر التوسع النرمندى سواء أكان ذلك فى فرنسا أم انجلترا أم فى جنوب إيطاليا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وقد امتاز العنصر النرمندى بنشاطه فى التنقل والحرب وركوب البحر ، وظهر خطرهم فى الواقع بظهور شأو روبرت بن تانكريد دى هوتفيل المعروف بروبرت جسكارد الذى جاء إلى ايطاليا عام ١٠٤٧ وهو فى ريق الشباب ، ولكنه كان كبير الأطماع والمآرب ، وقد نزل فى ثلة ضئيلة من جماعة نهجوا نهجه فى قمم جبال منطقة قلهورية واحترفوا السلب والنهب وقطع الطريق .

لم يكن يخطر ببال روبرت جسكارد أن يتحول من قاطع طريق إلى أمير ، بيد أن الظروف خدمته خدمة ما كان يرقبها له أحد ، ذلك أن أمير سالرنو واسمه جيمار اغتنم فرصة رجوع الإمبراطور هنرى الثالث ملك ألمانيا عن إيطاليا وأراد استرداد منطقة كابوا من عدوه باندولف فلم يجد بدأً من الاستعانة بروبرت جسكارد لمضايقة خصمه ، وحقق جيمار غرضه وإذذاك صرف روبرت بعد أن نقده أجره لقاء هذه المساعدة .

على أن روبرت عاد لحياة التشرد يضرب فى ربوع قلهورية أفاقا صعلوكا ، ومرت به الأيام وهو ينزل الخوف بمن حوله ، ولم يكن روبرت وحده مصدر إزعاج للأهالى بل كان إخوته وأبناء جلدته من النرمنديين الذين تفاقم شرهم مما أزعج خاطر البابا ليون التاسع[١] (١٠٤٩ — ١٠٥٤) واضطره إلى طلب النجدة من الإمبراطور هنرى الثالث ومن ملك فرنسا ودوق مرسيليا ، واعداً إياهم بجب خطاياهم وآثامهم إن عملوا معه على تخليص إيطاليا

(١) L eib : Rome, Kiev et Byzance, p. 27.

من شرور النرمان ، إلا أن هذه الدعوة لم تجد أذنا صاغية ولم تصادف قلوباً تتفتح لها وسيوفا تقف إلى جانبها ، غير أن ظروف الإمبراطورية البيزنطية إذ ذاك بدت كأنها تعمل على تحقيق هدف البابا ليون ، وذلك حين قدم أرجيروس Argyros البيزنطى عاملا للإمبراطورية على أملاكها فى إيطاليا سنة ١٠٥١ ، فجاء إلى النرمنديين يبغى شراء سيوفهم مستميلا إياهم إليه بالهدايا والمنح والأموال ، إلا أنهم رفضـــوا دعوته وأبوا مغادرة إيطاليا مؤثرين الفتح فيها لحسابهم الخاص على الانخراط كقوة مرتزقة فى جيش الإمبراطورية فى الشرق .

أهتبل ليون التاسع هذه الفرصة وتحالف مع أرجيروس ضد النرمان عام ١٠٥٢م ، ورتب خطته على أن يقوم حلفاؤه البيزنطيون بمهاجمتهم من ناحية بارى ، على أن يُطْبِق هو عليهم بمن يجمعه من الجيوش من الجنوب ، لكنه أراد أولا ضمان محالفة جيمار أمير سالرنو القوى وانضمامه إلى جانبه وبذلك يتأكد لديه فكرة القضاء على النرمان ، لكن جيمار خيّب أمل البابا ، وقد تذرّع فيما بينه وبين نفسه بأمرين أولهما اعتزازه بولاء النرمنديين له وثانيهما تخوّفه من زيادة النفوذ البيزنطى فى إيطاليا ، وكان جيمار يرى فى بقاء النرمنديين توازناً للقوى المتصارعة بشبه الجزيرة ، غير أنه ما لبث أن اغتيل .

ربما رأى البابا ليون فى خلو المسرح من أمير سالرنو ما يهيئ له الفرصة لتأديب النرمنديين ، ومن ثم زحف عليهم فى مايو ١٠٥٣ بجيش كان هو على رأسه فى الوقت الذى اتحدت فيه جماعاتهم المختلفة وأنزلت كثيراً من الضربات بالبيزنطيين حتى أضعفت شأوهم وفلّت حدّ غاربهم ، ولم يتعظ

البابا بما جرى لحلفائه بل أصرّ على قتال خصومه فكانت بينه وبينهم وقعة في يونيو ١٠٥٣ م ألزموه فيها الفرار إلى شفتات Civitate حيث عرفت الوقعة الفاصلة بينهما باسمها [1].

وجرت أحداث بعدئذ هي أكثر اتصالا بتاريخ البابوية منها بتاريخ العلاقات البيزنطية النرمندية.

لكن الذى يهمنا هو ما تمخضت عنه وقعة شفتات من وجهة النظر البيزنطية.

ماكادت الوقعة تنجلى عن هزيمة البابا وأسره بيد النرمان حتى أنفذ أرجيروس إلى القسطنطينية أسقف ترانى، واسمه جان، يحمل خبر هذه المأساة التى نزلت بحليف بيزنطة، ولكن الأموركانت جد مضطربةفى داخل العاصمة وآلت مقاليد الحكم إذ ذاك إلى الإمبراطورة تيودورا التى تراخت فى نجدة قواتها بإيطاليا وانصرفت بدلا من هذا إلى إغداق أكبر الوظائف على خدم القصر وخصيانه، ولم تفكر فى إرسال قوات جديدة تشد أزر أرجيروس فى قتاله النرمنديين الذين وضح الشر عندهم تجاه الأملاك البيزنطية بإيطاليا، كما أنصرفت الإمبراطورة فى الوقت ذاته أيضاً إلى الانتقام من أولئك الذين كانوا يعارضون توليها الحكم.

لم يجد أرجيروس بدآ فى عام ١٠٥٥ من أن يشخص بنفسه إلى القسطنطينية بصحبة أسقف بارى كى يوضح لتيودورا مقدار الخطر الذى يتهدّد الأملاك البيزنطية وسمعة الإمبراطورية وهيبتها، عساه يحركها لتمدّه بنجدة حربية

(1) cf. Gay : Les Papes du XIe siécle, p. 151 - 4.

يقاتل بها النرمنديين ، فلم يفز منها بطائل ، وماتت تيودورا عام ١٠٥٦ ولم يكن خليفتها ميشيل ستراتيوتيكوس أبعد نظراً منها ، فبقيت الأمور على ماهي عليه إن لم تكن قد أخذت فى التدهور عما كانت عليه من قبل .

لم يعد خافياً على أحد مقدار تراخى الإمبراطورية البيزنطية والقوامين على الحكم فى القسطنطينية من العناية بشئون الأقاليم التابعة لهم فى إيطاليا ، وكان أول المدركين لهذا التراخى جماعة النرمنديين أنفسهم ، ومن ثم استغلوا هذه الفرصة واتجهوا إلى التوسّع فى الفتوحات فى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة ، وخرجوا فى حملة مؤلفة من ثلاث كتائب إحداها بقيادة همفرى والثانية بقيادة جوفرى وعلى الثالثة أخوهما روبرت جسكارد ، واستطاع همفرى بمن معه أن ينزل الهزيمة الساحقة بالبيزنطيين الموجودين فى أوريا Oria شرقى برنديزى ، أما روبرت فقد تمكّن من الاستيلاء على بعض النواحى التى جعلته المتصرف المطلق فى أترانتو .

إذا كان شريد الأمس قد أصبح صاحب إمارة فإن الأقدار مدّت له أكثر من ذلك حين مات أخوه همفرى فأضحى هو الوريث لولاية أبوليا وقلورية عام ١٠٥٧ م ، ثم تتابعت فتوحاته حتى ملك تارنت بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ ، ثم انصرف لمحاربة المسلمين فى صقلية ، وشغل هذا الفتح النرمنديين بضعة أعوام خلص لهم بعدها معظم صقلية وزال النفوذ السياسى الإسلامى وإن بقى النفوذ الأدبى والثقافى .

واتت الظروف روبرت جسكارد فى بسط سلطانه على بعض المدن

الإيطالية التى نال بعضها بالسيف والبعض الآخر بالإرث عن طريق أخيه همفرى وبعضها مشاركة مع زعماء آخرين نرمنديين ، وراحت الصبغة النرمندية تزداد وضوحاً فى جنوب إيطاليا لاسيما كما قلنا منذ احتلالهم قلهورية وتدخلهم فى الأمور الدينية[١] ، على أنه مما زاد فى قوة النرمنديين فى إيطاليا اضطراب أمور بيزنطة وموت الإمبراطور قسطنطين دوكاس (مايو ١٠٦٧) ، وقفاهُ فى السنة التالية أرجيروس خصم النرمان التقليدى ، فتطلع روبرت إذ ذاك إلى بارى Bari عاصمة الأملاك البيزنطية فى إيطاليا ، فحاول فى البداية إظهار عطفه عليها فى صراعها ضد من حولها ، غير أن أهلها أدركوا ما وراء هذا العطف الظاهرى من نية مبيتة للقضاء عليها وإدخالها ضمن مناطق نفوذه ، لاسيما وأنها كانت تشرف على البحر مما يزيد فى حصانتها .

على أنه ما كان لهذه المنعة أن تقف حائلا أمام روبرت جسكارد فى تدبير كل ما من شأنه الاستيلاء عليها ، ومهّد لذلك بالسفن جاعلا إياها جسراً تعبر عليه قواته إلى البلد ، ومن ثم خشى أهلها مغبة هذه الاستعدادت فقام أحد أشرافهم واسمه بيزانزيو Bezanzio وسافر إلى القسطنطينية مبينا للإمبراطور ضرورة التعجيل بإرسال القوات والمعونة إلى بارى حتى لا تقع فى أيدى خصومه النرمنديين .

حينذاك فقط أحست بيزنطة بمدى الخطر النرمندى وأدركت ضرورة القيام بعمل حاسم يُبقى على أملاكها وعلى هيبتها فى إيطاليا ، ومن ثم بادرت بتعيين حاكم اسمه أفارتوتيل .Avartutéle واليا على أملاكها الإيطالية وأنفذت

(١) Leib : op. cit. p. 126.

معه قائداً حربيا هو استيفانو باتريانو وأمدتهما بذخيرة ضخمة ومؤونة كبيرة وبعثت معهما المقاتلين والأموال كما صحب هذه الحملة بيزانزيو ، وعلى الرغم من تعرض النرمنديين لهـذه الحملة فى الطريق إلا أنها استطاعت الوصول إلى بارى وتقوية حاميتها فى الدفاع عنها .

لم تعد المسألة بين النرمنديين والبيزنطيين قاصرة على المناوشات الحربية الصغيرة ، فقد استبان كل منهما الجدّ فى خصمه وعزمه على إبادته ، فعمد روبرت إلى إقامة برج من الخشب يعلو أعظم أسوار المدينة ارتفاعاً وراح يرمى منه مَن بداخلها ، إلا أن الجهود تضافرت على مقاومته ، فأسقطه الأهلون إلى الأرض وأضرموا به النيران ، وبدى للعيان أن أمل النرمان فى اقتحام المدينة أصبح بعيد المنال .

غير أن جماعة بداخل المدينة — وعلى رأسهم إيطالى اسمه ارجيريزو Argirizzo — كانوا ضالعين مع روبرت جسكارد ، فدبروا القضاء على روح المقاومة الداخلية وذلك باغتيال بيزانزيو ، وتم لهم ما أرادوه يوم ١٨ يوليو سنة ١٠٧٠ ، وبذلك اطمأن بال روبرت من ناحية خصمه العنيف الذى كان حائلا منيعاً فى تحقيق أهدافه ، والذى نجح فيما فشل فيه سابقوه ألا وهو حمل المسؤلين فى بيزنطة على الاهتمام الجدى بمقاومة النرمنديين ؛ وإذا كان وقع مصرع بيزانزيو طيبا على نفس روبرت فقد أدى مصرعه من ناحية أخرى إلى حمل أنصار أرجيريزو على السير فى المدينة أسوأ سيرة ، فراحوا يضرمون النيران فى بيوت خصومهم ، وامتدت ألسنتها فأتت على كثير من المخازن والذخيرة مما أحدث مجاعة مخيفة فى البلد .

لم يجـــد أهل بارى بدًّا من اصطناع كل الوسائل للقضاء على روبرت جسكارد مهما كلفهم ذلك من جهد أو مال وأيا كانت السبل المؤدية إلى تحقيقه، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، لذلك اتفق باتريانو مع أحـد الجند من أهل بارى واسمه أمرينوس Amerinus على القيام باغتيال روبرت، وكان أمرينوس هـذا قد خدم من قبل تحت إمرة روبرت ورآه وجها لوجه ويدرى حركاته وسكناته، وتمت الخطة على أن يخرج من المدينة متظاهراً بالهروب منهـا من البيزنطيين ليطمئن إليه الجانب المهاجم، ونجح أمرينوس فى خطته الأولى وواتاه النجاح أكثر مما كان يتصور فلم يره أحد وهو يغادر البلد، فلما أصبح على بعد منها ولىَّ ظهره للنرمنديين متظاهرا أنه من صفوفهم وراح يرمى المدينـة من ناحية الخندق، ثم تظاهر مرة أخرى بالرجوع إلى معسكره النرمندى فدخله دون إثارة أية شبهة حوله، وراح يجوس خلاله حتى أوصلته قدماه إلى حيث يقيم روبرت فأبصره فى كوخ من أغصان الشجر وليس حوله من حرس، وألفاه وحده قد جلس إلى مائدة بعد أن غلب عليه تعب النهار، فاغتنم أمرينوس فرصة الظلام وفوّق إليـه سهما مسموماً ثم انكفأ سريعاً إلى بارى معلنا خبر مصرع روبرت جسكارد، ودب الذعر بين صفوف النرمنديين وإن كذّب الواقع الشائعة فقد مرّ السهم دون أن يصيبه بأذى، غير أن هذه الحادثة حملت جماعة روبرت على أن يتخذوا لقائدهم بناء من الحجر.

أنفذت بيزنطة فى هذه الأثناء حملة من لدنها مزودة بالرجال والأقوات نجدة لبارى، ولم يخفَ خبر هذه الحملة على جسكارد وأخيه روجر صاحب

صقلية الذى كان يعاونه إذ ذاك بأسطول من سفنه ، فتقدم روجر بمراكبه واعترض سبيل النجدة البيزنطية ، فكانت ملحمة بين الأسطولين انتهت بوقوع جوسلين أمير الحملة فى يد صاحب صقلية الذى جاء بأسيره إلى أخيه .

على أن نكبة هذه الحملة لم تقف عند حد أسر جوسلين بل تعدته إلى ماهو أخطر من ذلك وأعنى به أن أهل بارى يئسوا من نجدة أخرى تصلهم قريباً من القسطنطينية ، أى أنهم تركوا وحيدين يجابهون الخطر النرمندى ، وأدركوا أنهم هم — دون غيرهم — الذين أصبحوا يقررون مصيرهم ومصير بارى ، أضف إلى هذا أنهم حرموا من الأقوات والذخيرة التى أرسلتها بيزنطة صحبة حملة جوسلين فى مراكب يقدرها البعض بتسعمائة مركب ؛ وهكذا قدر أيضاً لبارى أن تواجه المجاعة فى أبلغ صورها بعد أن أقام عليها الأسطول النرمندى حصاراً بحريا فقدت معه كل أمل فى مراكب أخرى تأتيها من أى ناحية .

حينذاك بدت الفرصة مواتية للحزب الموالى للنرمنديين داخل بارى ، وعلى رأسه أرجريزو الذى أخذ يثبط الهمم ويدعو إلى التسليم ، بل لقد أقدم على مفاوضة المغيرين ، وأرسل إليهم ابنته رهينة يؤكد بها صدق نيته نحوهم ، واستمرت المفاوضات بين الجانبين حتى آن لها أخيرا أن تتم وفق هوى روبرت جسكارد الذى دخلها يوم ١٥ أبريل ١٠٧١[١] بعد حصار دام عامين وثمانية أشهر .

---

(١) « In 15 die mensis Aprilis cepit Rubertus dux civitatem Bari ».

ويعد سقوط باري[1] نقطة انتقال هامة فى تاريخ بيزنطة فى النرمنديين معا على السواء، لأنه حمل معنى إخراج القوات البيزنطية من إيطاليا وتقلص النفوذ البيزنطى حتى في البحر الأبيض المتوسط وظهور قوة حربية بحرية جديدة هى قوة النرمنديين . والواقع أن قيام البحرية النرمندية كقوة فعالة محركة نشيطة فى هذه النواحى كان تثبيتا لحركة الفتوحات النرمندية ، وقد يُعزَى عدم احتفاظ النرمنديين من قبل بكثير مما تم لهم من الفتوح إلى نقص البحرية الثابتة ، وزيادة على ذلك فقد كان لابد للمسيطر على إيطاليا أو على بعض نواحيها من أن يعتمد على البحرية التى كان قيامها ضرورة يقتضيها وضع إيطاليا الجغرافى .

وثَم خطر آخر انطوى على استسلام باري هو تسرّب الخوف إلى نفوس الجاليات البيزنطية فى النواحى المختلفة من أن يلقوا نفس المصير الذى لقيه الباريّون من المجاعة والتعذيب والقتل وإحراق المساكن ؛ وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير ماقام به يونان « ذورازّو » من تقديم الهدايا لروبرت جسكارد حين رأوه قريبا من « أترانتو » التى أخضعها ثم مالبثه أن انتقل منها لمحاربة بقايا المسلمين فى صقلية .

وقد عرفت الإمبراطورية البيزنطية فى النرمنديين خصما عنيداً ، فهل كان لها أن تتوقع منهم غير الشر وقت الحروب الصليبية ؟

وإذا كانت بيزنطة قد ذاقت الأمرّين من نرمان إيطاليا فى إيطاليا فقد

(١) Cf. Chalandon, Essai Sur Alexis Comnéne, pp. 83 — 84; Vasiliev, op. cit., t. I, p. 474; Delarc, Les Normands en Italie, pp. 438 — 39.

جرّبتهم فى عقر دارها حين خرج الإمبراطور رومانوس ديوجين لمحاربة السلاجقة فى منزيكرت .

* * *

وثَـم تجربة أخرى مرت بها الإمبراطورية البيزنطية مع النرمان ، ذلك أنها كانت قد استعانت فيمن استعانت بالمرتزقة النرمنديين الذين وضح خطرهم عليها فى وقعة ملازكرت حين تخلوا — وكانوا بقيادة أحدهم واسمه روسول دى باليول Roussol de Bailleul — عن الصمود إلى جانب رومانوس ديوجين وتركوه وحده يلاقى أسوأ مصير كانوا هم عاملا من عوامله غير المنكورة ، مما أدّى إلى هزيمة منزيكرت النكراء وضياع زهرة الجيش البيزنطى .

لم يكن روسول دى باليول سوى مخاطر من هؤلاء المخاطرين النرمنديين الذين طبعوا على حبّ المجد وتسنم ذروة الشهرة والتملك على حساب الآخرين ولو كان ذلك عن طريق إغفال الضمير وتناسى حق الولاء ويمين الطاعة ، وما كان لدى باليول أن يحترم عهداً إلا إذا رأى فيه منفعة ذاتية له ، والواقع أن مجيئه إلى الشرق البيزنطى فى جماعته المؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل لم يكن إلا تحت شهوة تكوين إمارة مستقلة أو تابعة لبيزنطة فى منطقة الأناضول ، ولم يتعظ المسئولون فى بيزنطة من هذا الموقف المستهجن الذى وقفه روسول دى باليول من الإمبراطور رومانوس ، فدأبوا على اصطناعه كرئيس جماعة مرتزقة من تلك الجماعات العدة : الشرقية والغربية على السواء التى تكوّن جانبا غير ضئيل فى تكوين الجيش الإمبراطورى ، وكان من المنتظر أن

يستغنى الإمبراطور الجديد ميشيل السابع عن خدمات هذا المرتزق النرمندي إلا أن الواقع أثبت عكس ذلك ، فقد عهد إليه فى سنة ١٠٧٣ أن يصحب القائد البيزنطى إسحق كومنين فى بعض نواحى آسيا الصغرى .

إلا أن روسول دى باليول مالبث أن انفصل عن اسحق وراح يفتح لحسابه الخاص بعض البلاد فيما حول نيقية وأنقرة مما أدى إلى وقوع القائد البيزنطى أسيراً فى أيدى السلاجقة ، أى أن منزيكرت تكررت مرة ثانية ولكن على صورة مصغرة ، وهكذا برهن دى باليول مرة أخرى على أنه تحركه أطماعه الخاصة وعلى أنه حرب على الإمبراطورية التى كانت تعده — باستعمالها إياه — درءاً وعونا لها ضد أعدائها ؛ وحينذاك اضطر الإمبراطور ميشيل السابع إلى إنفاذ حملة لتأديب ذلك العاصى الطامع ؛ ووكل قيادة هذه الحملة إلى عمه يوحنا دوكاس ، فلما التقى المصافان كانت الغلبة للمخاطر النرمندى وتمثل انتصاره فى أسره يوحنا نفسه ، ولكنه عمد إلى إيقاع الفتنة بينه وبين ابن أخيه ميشيل فنادى بأسيره إمبراطوراً ليكون رهن إشارته حتى يُكسب فتوحاته صفة شرعية ، ولم يقف عن هذا الحد بل زحف بإمبراطوره الجديد على القسطنطينية مخربا كل مامر به فى طريقه .

اضطرب بال بيزنطة وخشيت تعقُّد الأمور ، وهنا لم يجد الإمبراطور ميشيل بدا من الاستعانة بقوة أخرى لمحاربة المخاطر النرمندى ، فكان — كما يقول المثل — كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ اضطر تحت ضغط الظروف إلى الاستنجاد بجماعة من السلاجقة أقطعها بعض النواحى لقاء محاربتها روسول دى باليول ، فاضطره السلاجقة إلى الفرار من أمامهم حتى بلغ نواحى

سيواس يدمر ويخرب ، ثم اعتصم ببلدة أماسيا فى الشمال الشرقى من منطقة كبادوشيا ، فأرسل إليه الإمبراطور قوة أخرى بقيادة ألكسيوس كومنين — الذى صار إمبراطوراً فيما بعد — فاستطاع استنزاله من معقله وأرغمه على الفرار ، ولم يعد يظهر على مسرح الأحداث فيقلق بال بيزنطة .

* * *

وهكذا مرت الإمبرطورية البيزنطية فى علاقاتها بالنرمنديين بتجربتين مريرتين أثبتت كلتاهما لها مقدار ما تنطوى عليه معاملتهم من خطر ، وكشفت القناع عن طمعهم فى التوسع على حسابها سواء أكان ذلك باغتصاب أملاكها الإيطالية أم فى محاربتها فى عقر دارها .

فهل تلام بيزنطة بعدئذ إذا نظرت إلى النرمان الصليبيين نظرة التخوف والشك ؟

الفصل الثاني

مجمع كليرمونت والدعوة للحرب . حملة بطرس الناسك . حملة الأمراء النظامية . الإمبراطور والأمراء الأوربيون . الصليبيون فى آسيا الصغرى . بلدوين والرها . النصر الأوربى فى الشرق .

كان البابا إربان الثانى يتحين الفرصة الملائمة لإثارة الغرب ، وقد نظلمه إذا قلنا إن الدين كان كل شىء فى الحركة ، إذ الواقع أن البابوية — كقوة لها خطورتها فى أوربة[1] — كانت تخشى أكبر الخشية من زيادة بأس النرمان ،[2] ولعلها وجدت الفرصة مواتية للتخلص منهم بتوجيه نشاطهم الحربى لخدمة الدين والكنيسة فى الشرق وإبعادهم عن مسرح السياسة الأوربية[3] ، ومهما يكن الأمر فالثابت هو عقد مؤتمر كليرمونت حيث خطب البابا خطبته المعروفة مما ظهر أثرها فى صيحة السامعين جميعا « هكذا أراد الله »[4] « Deus vult » ، وجاء إليه أديمار دى مونتيل أسقف پوى وركع عند قدميه وكان أول من حمل الصليب ، فجعله البابا قائد الحملة الروحى ، وكان لأديمار من التأثير على المساهمين فى الحرب ماتفصح عنه كتابات المؤرخين ممن شاهدوا الحملة ، يستوى فى هذا الأشراف والدهماء على السواء .

وقد تخوف البعض من دعوة البابا إربان الثانى لعقد مجمع كليرمونت الذى حدد له يوم ١٨ نوفمبر ١٠٩٥م فحال ملك انجلترا بين رجال كنيسته وبين المساهمة فى المؤتمر ، وحضرت قلة من إكليروس ألمانيا[5] ،

---

(١) Powike : Christian Life in the Middle Ages, p. 22.

(٢) Rousset : op. cit. pp. 47 — 48; Delarc : Les Normands en Italie, pp. 202 — 237.

(٣) Delarc : op. cit. pp. 143 — 4, 192 — 4, 312.

(٤) Robert le Moine, op. cit., p. 729.

(٥) Ibid., loc. cit.

وكان أكثر المساهمين فيـــه من فرنسا[1] .

ورغم ماهو معروف فى الأذهان من أن مجمع كليرمونت[2] عقد لبحث المسألة الصليبية إلا أن دراسته تبين لنا أن البابا انصرف فى جلساته الأولى التى استغرقت أكثر من أسبوع لمناقشة المسائل الدينية التى تهم الكنائس ورجال الدين عامة ، ولم يتخذ المؤتمرون قرارا بشأن إنفاذ الحملة الصليبية للأراضى المقدسة إلا فى جلسة قصيرة بعد أسبوع[2] ، وذلك فى خطبة له واردة على شىء من الاختلاف باختلاف المصادر التى ذكرتها[3] .

لم يقتصر البابا على مؤتمر كليرمونت بل تعـــددت المجامع التى خطب فيها من أجل حمل القوم على الانخراط فى الجيش الماضى إلى فلسطين[4] ، وراح يذرع أرجاء فرنسا عاقدا المجامع[5] مكرزا للدعوة التى استولت على نفسه ، وطبيعى أن تجد هـذه الدعوة آذانا صاغية وقلوبا واعية لاسيما عند طبقات الشعب الدنيا وهم غالبية السكان ، هذا إلى أن بعضهم كان يطمع فى أن يتحرر من ملازمته أرض السيد حسب النظام الإقطاعى المألوف وقتئذ ، بل إننـا نرى فى الفئة الأولى من الحمـلة جماعات من اللصوص والمجرمين ،

(١) ناقش المؤرخ Chalandon : Histoire de la premiére croisade p. 925, note 2 عدد الأساقفة الذين اشتركوا فى المؤتمر ، معتمدا على المصادر الأولى فى هذا الموضوع ، فبين اختلافها حول عددهم وهم ما بين ١٩٠ و ٤٦٣ ، والفرق ضخم .

(٢) Rob. Mon., loc. cit.

(٣) أنبه القارىء هنا إلى أنى أوثر الاعتماد على روايتين لهما الصدارة فى هذا الموضوع هما :
Rob. Mon., t. III, p. 727 & Foucher, t. IV, p. 323.

(٤) Riant : Inventaire, p. 109 — 110, lettre No. XLIV.

(٥) Riant : Inventaire, p. 116.

كذلك قوبلت الدعوة بالتأييد من جانب «الجنويّة» البحريين الذين وعدوا بالمساهمة ببعض السفن لنقل الحجاج والذخيرة والأقوات ، ودخل أهل «بيزا» إلى جانبهم لقاء بعض الامتيازات التي قدروها وحققها لهم النصر الصليبي في بلاد الشام وفلسطين كما نرى هذا الأمر جليا في اشتراك الأسطولين جنبا إلى جنب في حصار أرسوف وعكا فيما بعد[1] ، وإذا كان العامل المادي قد أغرى الجمهوريات الإيطالية التجارية على المساهمة في حملة الحجاج المسلحين للشرق فقد وجدت إلى جانب هذا العامل روح من التصوف الديني ترجمت عن نفسها في شخصية بطرس الناسك الذي اختلطت الحقيقة بالخرافة في تاريخه ، والذي كان تأثيره الشديد على سامعيه — لا سيما من الطبقات الدنيا والجاهلة — أكبر معوان على تحقيق الفكرة العامة التي اختمرت ولم يبق إلا تنفيذها[2] .

لم يكن بطرس من ذوي المكانة أو الخطر ، ولكن ليس من شك في أنه كان قديراً على مخاطبة جمهور الرعاع من شعوب فرنسا ، وكان من دأبه السير حافي القدمين في ثياب قذرة ؛ ولعله واحد من هؤلاء «المجذوبين» الذين تحفل بهم العصور الوسطى والذين كلما ازدادوا قذارة كلما ازداد إيمان العامة بهم ، وليس أدل على أنه كانت به «جذبة» من أنه كان يقتصر في طعامه على السمك فلم يعرف عنه أنه تناول اللحم أو الخبز ، وكانت هذه الصفات مدعاة التفاف الجماهير حوله والإيمان بأن في أثواب هذا الرجل قديسا ، حتى

---

(١) Heyd : Hist. du Commerce, t. I. p. 139 note 3, et p. 149.

(٢) Brehiér : L' Eglise et l' Orient, p. 69.

ليصفه من رآه[1] بأنه كان « نصف ملهم » .

ومما ساعد بطرس فى وصول دعوته إلى قلوب النـاس ما كانت تمر به أوربة إذ ذاك من قسوة فى العيش ، فقد نكبت فرنسا قبل أعوام قلائل سنة ١٠٩٤ بالفيضانات التى اجتاحت كثيراً من نواحيها فأهلكت الزرع والحرث ، وتلى ذلك الطاعون والمجاعة ، أضف إلى هذا وذاك ما كانت تعانيه طبقة العامة من تحكم اللوردات والسادة الإقطاعيين الذين لجّ بهم الطغيان فأبوا أن يزيلوا الغابات لتحل الزراعة مكانها ، احتفاظاً منهم بهـا لأنفسهم للصيد والقنص ، أما النواحى التى لم يكن للّورد فيها أثره ـ وأعنى بها الحصن ـ فكانت عرضة لهجمات اللصوص وقطاع الطرق وما يتبع ذلك من النهب والسلب ، حتى غدا الناس غير آمنين على أنفسهم .

خرج بطرس فى أبريل سنة ١٠٩٦ ومعه خمسة عشر ألف صليبى ـ على أقل الروايات ـ بلغ بهم مدينة كولونيا حيث فكرّ فى دعوة أهلها للانضمام إلى الحملة ، ولم يجد بطرس إقبالا من كبار النبلاء والفرسان الذين رأوا فى الخروج مع هـذه الحملة الشعبية امتهانا لكرامتهم ، على أنه لم يعدم فئة من صغار المحاربين وقلة قليلة من فقراء الكونتات .

على أنه إذا لم تتهيأ له الفرصة أثناء إقامته فى كولونيا أن يشهد استجابة قوية لدعوته إلا أن هـذه الاستجابة مالبثت أن قويت بعد مغادرته ألمانيا ، ولكنها اتجهت فى صليبيتها ضد اليهود وعمت حركة القتل فيهم ، وتجاوزت حدود كولونيا إلى غيرها من المدن الألمانية الأخرى .

---

(١) Guibert de Nogent : Historia Hierosolymitana, (R. H. Occ. Cr.), t. IV, p. 142.

كان أكثر المتحمسين للسير على خطة بطرس تلميذه الروحى جوتشالك Gottschalk الذى لم يدّخر وسعاً فى دعوة أبناء جلدته إلى محاربة « أعداء السيد الرب » ، وكان رجْع صداها قويا هذه المرة ، غير أن الألمان عمّموا تعبير « أعداء السيد » ، فاتجهوا قبل كل شىء إلى اليهود المقيمين فى ألمانيا والذين كانت صلاتهم بيهود بيزنطة والشرق الإسلامى قوية ، وما لبثوا على مر السنين أن احتكروا الصيرفة وإقراض الأموال ؛ وكان الألمان يكرهون من اليهود إلى جانب ذلك ماراحوا يتمتعون به ـ بفضل أموالهم ـ من صداقة الأمراء بل وكثير من رؤساء الأساقفة ، على حين أن جمهور الشعب أصبح مدينا لهؤلاء اليهود ، فوجد الألمان فى الدعوة للحرب الصليبية متنفّسا عن كرههم وراحوا يصبّون عليهم جام نقمتهم .

والواقع أن اليهود كانوا يدركون مقدار بغضاء الشعوب الأوربية لهم ، ولعل أوضح دليل على هذا الإدراك ما كتبه يهود شمال فرنسا إلى إخوانهم يهود ألمانيا فى ديسمبر ١٠٩٥ من أن الدعوة للحرب الصليبية قد تنطوى على أخطار تهدد جالياتهم فى حياتها وأموالها وممتلكاتها (١) .

وجرت الشائعات يومذاك أيضاً أن جودفروى دى بويون آلى على نفسه أن يأخذ بدم المسيح من اليهود ، إلا أنهم استطاعوا عن طريق المال الذى دفعوه لجودفروى رشوة له كى يضمنوا لأنفسهم السلامة (٢).

على أن تلك الرشوة لم تستطع وقف إنزال أشدّ أنواع الاضطهاد باليهود

(١) Hagenmeyer : Chronologie de la Premiére Croisade, pp. 11 — 12.

(٢) Salomon bar Simeon (in) Runciman , op. cit., vol. I, p. 136.

واختلط ذلك بالحملات الألمانية المختلفة التي حملت الصليب للمضيّ إلى بيت المقدس ، ذلك أن إحدى هذه التجريدات خرجت بقيادة أحد صغار اللوردات الألمان واسمه إميخ Emich لورد ليزنجين في منطقة الرين ، وكان إميخ هذا رجلا يدرك مدى تأثير الخرافة على جماهير الشعب التي نهضت للحرب ، فزعم أنه أصبح ذات يوم ليجد صليباً مرسوماً على جسده (١) ، فازداد المؤمنون به وانثالت الجموع تحت لوائه . فلما أيقن إميخ من كثرة أتباعه وإيمانهم القويّ به أعلن أن الحرب الصليبية تبدأ يوم ٣ مايو ١٠٩٦ ولكن في ألمانيا ذاتها ضد الجالية اليهودية المقيمة في مدينة شبير Spier ، غير أن هؤلاء اليهود وجدوا الحماية من أسقف المدينة ، وذلك بفضل الهدايا الضخمة التي وصله بها يهودها ، وبذلك استطاع أن يكف عنهم نقمة الجيش الصليبي الذي لم يستطع أن يفتك بأكثر من اثني عشر فرداً منهم .

على أن دعوة إميخ كشفت النقاب عن شيء واحد هو الكراهية الشديدة التي يضمرها الألمان لليهود ، وشاركت مدنية ورمز شبير في بغضائها لهم ، فانضم أهلها إلى جيش إميخ وهاجموا الحيّ اليهودي ، وفعل يهودها ما فعله إخوانهم أهل شبير من شراء حماية أسقفها إياهم ، إلا أن الصليبيين هذه المرة لم يأبهوا بهذه الحماية ، فاقتحموا مسكن الأسقف وقتلوا جميع من به ، حتى إذا فرغوا من القتل الذي عدّوه تكفيرا عن ذنوبهم وتقرّبا لله لما أنزله اليهود بالسيد المسيح من مضايقات وأهوال ساروا قدما حتى طرقوا أبواب مدينـــة ميتز Mainz يوم ٢٦ مايو فوجدوها مغلقة أمامهم إنفاذا لأوامر رئيس أساقفتها .

(١) Albert d' Aix, pp. 292 — 3.

على أن يهود المدينة بعثوا إلى رئيس الأساقفة مائتى مارك ، وإلى إميخ سبعة أرطال ذهب فوعدهم بالأمان ، لكنه مالبث أن نقض عهده ودخل المدينة وسفح دماء يهودها ، واستحر القتل فيهم مدة يومين حتى ايقال إن عدة من قتلوا بلغوا الألفين (١) ، ثم تابع إميخ سيره إلى كولونيا وحاول الفتك بيهودها فلم يقدر له النجاح فى هذا المشروع نجاحا تاما (٢) .

كان كل مافى جو كولونيا ينذر بالعاصفة توشك أن تهبّ ضد يهودها الذين رأوا نجاتهم فى مغادرتها إلى ما حولها من القرى يلتمسون الاختفاء عند من يتوسموا فيهم الصداقة لهم وشيئاً من العطف عليهم ، على أن إميخ لم يتوقف كثيرا لمتابعة صليبيته ضد اليهود بل يمم وجهه بالشطر الأكبر من رجاله ناحية المجر ، أما البقية التى تخلفت من رجاله فقد راحت تتعقب اليهود وتقلتهم أنىَّ ثقفتهم .

دنت قوات إميخ من الحدود المجرية وكانت من الكثرة بالدرجة التى أزعجت ملكها كولومان Coloman سيما وقد كره سيرة بقية الصليبيين الألمان الذين سبقوا إميخ ، فلم يأذن كولومان لهذا الجيش الجديد بعبور بلاده واشتبكت الرماح ، وجرت أحداث جمة من القتل والنهب والسلب والتدمير والإحراق انتهت بتمكن إميخ من اقتحام الناحية ؛ ومع أن البوادر الأولى كانت تدل على رجحان كفتهم إلا أنهم سرعان ماعادوا إلى الفوضى وسوء السيرة وعدم النظام ، فكرّت عليهم القوات المجرية كرّة أنزلت بهم فيها

(١) Ibid., pp. 292 — 3.

(٢) Ibid., p. 292.

الهزيمة ، وهرب إميخ نفسه ورأى أن يكتفى من حملته الصليبية بهذا القدر وعاد أدراجه إلى بلاده [١] .

وهكذا انتهت الحملة الألمانية دون أن تحقق الهدف الذى كان معقوداً عليها .

* * *

أما بطرس الناسك فقد شجب النزاع بينه وبين فرنسى فى صحبته هو جوتييه سانز أڤوار Gautier Sans - Avoir الذى كان يتلهف للوصول إلى بيت المقدس ، ومن ثم أنكر على بطرس طول مكثه فى كولونيا ، فانفصل بمن معه عن بقية الجيش الصليبى ، حتى إذا بلغ بلغراد من أعمال الإمبراطورية البيزنطية لم يدْرِ عاملها ماذا يفعل إزاء هذه الجماعة من الحجاج المحاربين ، وراح يتلمّس الخطة التى يسير عليها ولكن بلاجدوى ؛ فطلب إليه جوتييه إمداده هو وجيشه بالمؤونة فلم يستجب له ، إذْ لم يكن فى الناحية مدّخر من الأقوات يكفى لإعانة هذه الجموع الضخمة نسبيا إلى طاقة المدينة ، هذا بالإضافة إلى أن وقت الحصاد لم يكن قد حان بعد ، وهكذا أصبح المحاربون الصليبيون فى موقف نكد لم يجدوا معه بدًّا من الإفساد فى تلك النواحى نهبا وسلباً ، فتقاتل الجانبان ، وتأزّمت الأمور أمام جوتييه تأزّماً لم يجد مناصاً معه من الرحيل بمن بقى معه من الصليبيين حيث تلقاه فى بعض الطريق أحد الولاة البيزنطيين مزوّدا بتعليمات الإمبراطور بإيصاله هو ومن معه إلى القسطنطينية فبلغوها فى يوليو ١٠٩٦ سالمين .

---

(١) Ibid., p. 259.

أما بطرس فقد أقام بعض الزمن فى كولونيا وأجْـدَتْ عليه إقامته نفعاً ، فقد انضمت إليه جموع غفـيرة من الألمان سار بهم عبر الدانوب حتى بلغ بلاد المجر فعبرها سالماً حتى بلغ مدينة « سملين » ، إلا أن حادثاً تافها جرى أدّى إلى معركة بين جموع بطرس والأهالى ، وكان ذلك على كره من بطرس ، ولكن ماذا يفعل وليس من معه بالجند النظاميين الذين يأمرهم فيصدعون بالأمر !!

ورغم ديماجوجية بطرس إلا أن استعراض الأحداث التى صحبت مسير حملته حتى بلوغه القسطنطينية يشير إشارة جلية إلى أنه كان كارها للفوضى التى انطبع عليها رجاله وللعنف الذى استعملوه مع قوم هم إخوان لهم فى الدين ، وعلى الرغم أيضا من سوء مسلك جماعته إلا أن ذلك لم يحمل الكسيوس كومنين على أن ينزل بهم العقاب حين بلغوا القسطنطينية فى أول أغسطس ١٠٩٦ م .

وربما قيل إن الإمبراطور الكسيوس طمع فى أن يستغل القوات الصليبية لصالحه الخاص ، وأنه رأى منذ اللحظة الأولى أن تشرع هذه السيوف المصلتة لردّ مافقدته بيزنطة من قبل ، فكان من أثر ذلك تلقيه بطرس لقاءً كريماً ووعده إياه بمساعدته فى سبيل الغاية التى خرج من أجلها من أوربة[١] .

والواقع الذى لامراء فيـه أن الكسيوس لم يكن ينتظر أن يرى بطرس على هـذه الصورة المزرية الكريهة ، رجلا تتقحمه العين فلا ترى فيه غير صفات « المجذوب » ، ولم يجد الإمبراطور فى الجيش الصليبى الذى بزعامة

(١) Brehier : L' Eglise et L' Orient, p. 69.

بطرس ما يوحى إليه بقدرته على التغلب على الجماعات الإسلامية التى كان من المنتظر أن يقاتلها ، ولعلّ الكسيوس شعر فى قرارة نفسه فى تلك اللحظة بالذات بالرثاء لهذه الجموع من الحجاج المقاتلين مما حمله على إمدادهم بالمئونة وبعض المال ، حتى ليشهد شاهد عيان[1] أنه قال لهم « لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لأنكم لستم بالكثرة التى تمكنكم من محاربة الترك » .

ومع أن بطرس قطع على نفسه العهد أن يسير جنده سيرة تليق بهم كفرسان وحجاج مسيحيين فى أرض مسيحية إلا أن رجاله لم يحترموا هذا العهد فسعوا فى الأرض فساداً ، وراحوا يهاجمون بيوت العاصمة وقصورها ومتنزهاتها بل وبعض كنائسها دون أن يكون لديهم احترام لما تمثله هذه وتلك من حضارة مادية وروحية ، وأنىّ لهم أن يدركوا ذلك وهم قوم يعيشون فى شظف من العيش فى أوربة ولا يستطيعون التطلع إلى مباهج الحياة فى ظل ساداتهم الإقطاعيين الذين كانوا يعاملونهم معاملة تنزلهم فى كثير من الأحيان من مكانتهم الآدمية .

ثم جاءت فى الوقت ذاته جماعات أخرى من الحجاج الإيطاليين وانضموا إلى قوات بطرس وجوتييه سانز أفوار ، وحينذاك لم يجد الإمبراطور بدًّا من أن يطلب من بطرس الانتقال بجماعته إلى آسيا الصغرى عبر البسفور ، وبعث إليهم بمراكب نقلتهم يوم ٧ أغسطس ١٠٩٦ .

على أن ماانطبعت عليه هذه الحملة منذ البداية من عدم التنظيم والتجانس

---

(١) أعمال الفرنجة (ترجمه حبشى) ، ص ١٩

وعدم وجود قيادة قوية محترمة يفسر ماحدث عقب ذلك الانتقال مباشرة من النزاع الذى شجب بين الصليبيين أنفسهم ، فانقسموا فريقين أحدهما من الألمان واللمبارديين والآخر من الفرنسيين ، فرأّس الأولون عليهم واحداً من اللمبارديين بدلا من بطرس اسمه ريجنالد .

على أن انقسام الحملة إلى فريقين لم يكن معناه اســتقلال كل فريق فى خطة سيره ، بل الواقع أنهما سارا كتلة واحـدة ظلت مصاقبة لساحل خليج نيقوميديا الجنوبى حتى بلغت مكانا حصينا اسمه هرسك Civetot فعسكرت عنده .

كان من الخير للصليبيين أن يستجيبوا لنصيحة الإمبراطور الكسيوس الذى أشار عليهم كما ذكرنا بوجوب عدم القيام بأية حركة حتى تفد إليهم بقية الحملة النظامية ، غير أن الاستجابة لرأى الكسيوس اختلفت بين جماعات الجيش ، فرأى بطرس وجوب الأخذ بها وراح يطالب بها بقية الصليبيين الذين لم يستمعوا إليه بل ازدهتهم قوتهم ، أو لعـــل طبيعتهم الفوضوية ورغبتهم فى الثأر من الأيام التى ألفوا فيها الذل لسادتهم الإقطاعيـين قد حملتهم على الخروج للقتال ، وراحو يتوغلون فى مناطق النفوذ السـلجوقى يسلبون وينهبون الأهالى الذين لم يكونوا مسلمين بل نصارى ، ولم يُبْـدِ هؤلاء الأهالى مقاومة بل استبدّ بهم الذعر فسكتوا مسـتضعفين فى الأرض ، وأطمع الصليبيين عدم وجود قوة تصدهم فانثالوا حتى بلغوا أبواب نيقية التى كان قليج أرسلان بن سليمان قد اتخذها قاعدة لملكه ، فنهضت لصدّهم قوة من سلاجقة الروم لكنها لم تستطع دفعهم ، وإن أدى هذا الاشتباك إلى تقهقر الصليبيين إلى قاعدتهم هرسك .

وكأنّ منظر الغنائم التى أصابتها هذه الجماعة حركت أطماع البقية الباقيه التى تخلفت عن الخروج معهم ، فنهض الألمان والإيطاليون تحت قيادة رينالد اللمباردى ؛ ولم يقف الحد عند المحاربين المدنيين بل تعداهم إلى من كان بينهم من القسس والأساقفة حتى بلغوا بلدة اسمها اجزيروجورجو Exerorogorgo[1] فحاربوها وانتصروا على أهلها ، ولم يكن من المعقول بطبيعة الحال أن تمر هذه المسألة دون أن تقلق بال قليج أرسلان الذى رأى وجوب المبادرة إلى تأديب هذه الفئة الباغية التى بلغت بها الجرأة حدّ الاستيلاء على الحصن وما فيه ، فأنفذ كتيبة من سلاجقة الروم بلغت الحصن فى نهاية سبتمبر سنة ١٠٩٦ ، وكان اليوم يوم عيد ميلاد القديس ميخائيل ، فكان أشرّ عيد صادفه المسيحيون إذ منع السلاجقة المياه عن الحصن فاشتد الظمأ بالصليبيين الذين فى داخله وأوقع فى يدهم ، ويصوّر صاحب الجستا مبلغ الظمأ[2] ؛ وطال أمد الحصار ثمانية أيام لم يجد بعدها رينالد بدأ من التسليم وإنقاذ حياته لقاء إنكاره المسيحية وتسليمهم رفاقه فى السلاح وفى الملة ، فكان ذلك الحدث كما يقول صاحب الجستا « الاستشهاد الكريم الذى لقيه الرجال الأوائل فى سبيل تمجيد السيد يسوع[3] » .

لم يبق خبر هذه النكبة خافيا على من فى هرسك من جماعة الفرنسيين الذين راحوا يتدبرون الأمر فيما بينهم ، ولاشك أنه تبين لهم خطل معارضتهم رأى الإمبراطور حين أشار عليهم بالتريّث حتى تفد بقية الصليبيين ، وكان

---

(١) Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 82, n. 2.

(٢) أعمال الفرنجة ، (ترجمة حبشى) ، ص ٢٠ .

(٣) شرحه ، ص ٢١ .

بطرس الناسك قد مضى إلى القسطنطينية ملتمسا المعونة من ألكسيوس ، ورأى بعض الصليبيين مهاجمة اجزيرجورجو للثأر لإخوانهم الذين طُلَّت دماؤهم على يد السلاجقة ، غير أن الرأى القائل بوجوب انتظار عودة بطرس تغلّب فى النهاية ، وظلّت لهذا الرأى الصدارة بالإجماع تقريباً حتى بعد ما ترامى إلى سمعهم نبأ تقدم القوات السلجوقية ، إلاّ أن أحد القادة واسمه جوفرى بوريل أثار حميتهم بوجوب النهوض لصد المغير ، فخرجوا عن بكرة أبيهم غير مخلفين فى المدينة سوى النساء والأطفال والمرضى والشيوخ .

لم يكادوا يبعدون كثيراً عن معسكراتهم حتى فاجأتهم سهام العدو تنوشهم من كل جانب ، فاضطربت صفوف الفرسان وجفلت الجياد وطرحت راكبيها أرضاً واختلط الحابل بالنابل ، وما كان للكثرة العددية الصليبية أن تصمد أمام فنّ السلاجقة الحربى ، فمالبث أن راح عدد جم من الأوربيين طعمة لسيوف المغير ومرمى لنباله وسهامه ، وفرّ من كتبت له الحياة لكن إلى حين ، فقد تعقبّهم السلاجقة وفتكوا بمن وجدوه : وكان من بين القتلى جوتييه سانز أفوار ذاته ؛ ولم يجد البعض وسيلة للنجاة إلا إشعال النار فى أكوام من الخشب عملت على وقف تقدم المغير .

على أنه كتبت الحياة لبيزنطى كان مع الصليبيين فاستقل قارباً بلغ به القسطنطينية ، وروى المأساة للإمبراطور الذى أنفذ جماعة من المقاتلين اليونان الذين أرغم وصولهم السلاجقة على الارتداد ، وحينذاك عاد البيزنطيون بالأحياء إلى القسطنطينية وأنزلوهم فى بعض أحياء المدينة ، غير أن معرفتهم بما انطبع عليه رجال هذه الحملة من الفوضى حملهم على تجريدهم

من السلاح حتى لا يرتكبوا جرما مع الأهالى[١]. وهكذا أسدل الستار على أول فصل دام من فصول هذه المأساة الصليبية التى هلك فيها آلاف من الحجاج الأوربيين ، وأثبتت — كما يقول أحد المؤرخين الحديثين[٢] — أن الإيمان وحده ليس بكافٍ لتعبيد الطريق إلى بيت القدس مالم تصحبه الحكمة والنظام .

* * *

المعروف أن الحملة الصليبية الأولى تألفت من جماعتين ، إحداهما فئة العامة التى استجابت دون تقدير الظروف لدعوة بطرس الناسك ، ولم تتسم هذه الفئة بالنظام ولا الإدراك الحقيق لما هى قادمة عليه ومن ثم فشلت ريحها وانتهت إلى مايشبه الانتحار الذى ساقه إليها عدم نظامها ؛ أما الجماعة الأخرى فكان قوامها الأمراء الإقطاعيون سواء أكانوا فرنسيين أم إيطاليين أم نرمنديين ، وطبيعى أن تكون هذه الجماعة أكثر تقديرا لخطة سيرها وإن اختلف هذا التقدير عند أمير عنه عند آخر ، لكنها على وجه العموم استعدّت بالسلاح والأموال والرجال والعتاد والاتصال مقدّما بأمراء وولاة النواحى التى ستمر بها بل وبالامبراطور الكسيوس كومنين أيضا حتى يمدّ لها من المساعدة والعون ماقد تحتاجه فى طريقها إلى بيت المقدس .

ولقد ذكر لنا صاحب الجستا [٣] أسماء زعماء هذه الحملة النظامية وإن أجمل تفصيل الأحداث .

---

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٢٢

(٢) Runciman, op. cit., vol. I, p. 133

(٣) أعمال الفرنجة ، ص ٢٢ ، ٢٣

لم تكن الحملة النظامية تحت قيادة أمير واحد ، بل تمثّل فيها الإقطاع أتم تمثيل ، فكان لكل أمير أتباعه ورجاله وجنده وأفصاله ، واختلفت أهواء هؤلاء الأمراء بعضهم عن بعض ، بل إن الإخوة الأمراء منهم كانوا على تباين كبير فى نظرتهم إلى القيم المعنوية للحرب الصليبية .

كان أول من هبّ لحمل الصليب — استجابة للبابا — كونت ڤيرماندوا هيج الكبير ، وكان له من بيته ما يؤهّله للقيادة فى مثل ذلك العصر الإقطاعى حيث تساق الوظائف الكبرى إلى فئة الكبار وأبنائهم ، فقد كان هيج أصغر أبناء هنرى الأول ملك فرنسا وأخا فيليب الأول ملكها ، ثم إنه كان ينحدر من ناحية أمه من أصل اسكندناوى ، غير أن صغر سنه دون إخوته ألقاه فى مؤخرة أصحاب القوة ، فقنع على كره منه بدوقيته الصغيرة وإن كان يراها أقل من مجال نشاطه الحيوى ، ولعله رأى فى الحرب الصليبية ما يشبع طمعه فى القيام بدور بارز يؤهله لامتلاك رقعة ضخمة على حساب القوى الإسلامية فى بلاد الشرق العربى ، وكان إلى جانب هذا شديد الاعتزاز بأصله وأسرته ومكانتها ، يهمه قبل كل شىء مظاهر التفخيم والاحتفاء .

وهناك شخصية أخرى هى شخصية جودفروى دى بويون Gaudefroi de Bouillon دوق اللورين الأدنى ، وأخواه أستاش وبلدوين ، وكان كل منهم يختلف عن الآخر تمام الاختلاف فى أهوائه واتجاهاته وأفكاره ، فكان جود فروى شديد الالتصاق بالفكرة المسيحية حتى ليبدو فى تاريخ العصور الوسطى عامة أول « فارس مسيحى » بكل ماتنطوى عليه هذه الصفة من معنى بمدلول تلك العصور ، ومن ثم برز فى تاريخ الحروب الصليبية على صورة تحمل المرء — مهما اختلف وإياه — على تقديره لإيمانه بما

نهض من أجله ، وقد جمع جودفروى بين النقيضين حين أخلص فى خدمة الإمبراطور هنرى الرابع وطاعته ، ولكنه كان فى الوقت ذاته شديد التعلق بالكنيسة مؤمنا أشدّ الإيمان بوجوب استرداد بيت المقدس وإطاعة أوامر البابا ، ولعل مرجع ذلك تأثره الكبير بالتعاليم الكلونية ، حتى إنه كان من أوائل المجيبين لدعوة إربان الثانى لاستخلاص القبر المقدس ، تلك الدعوة التى مسّت شغاف قلبه وآمن بها إيمانا حمله على ألاّ يلقى السلاح من يده حتى دخل بيت المقدس وأبى أن يتوّج ملكا فى البلد الذى توّج فيه السيد بالشوك ؛ وثم دليل آخر على تشيعه للفكرة الصليبية هو أنه باع مقاطعاته الواقعة على نهر الموز ، ورهن قلعة بويون عند أسقف ليون ليصرف من دخل ذلك كله على من معه من القوّات [١] .

أما أخوه أستاش Eustace الثالث المعروف بكونت بولونيا فلم يشبهه فى عاطفته الدينية ، بل يمكن أن يوصف ببرود هذه العاطفة ، وكان الذى يشغل باله هو أملاكه الخاصة التى يريد الانصراف إلى العناية بها ، وماذا يجديه قتال المسلمين إن أدّى ذلك إلى هلكه أوضياع ممتلكاته ؟ ثم ماالذى يعنيه من هذه الحرب مادامت الامور تسير هينة لينة فى مقاطعاته ؟

أما بلدوين فكان أصغر الإخوة الثلاثة ، نشأ نشأة دينية ووهبه أبوه للكنيسة ، لكن ذلك لم يقع موقع الرضاء من نفسه ، وكان كارها لهذا التعليم الدينى الذى فُرض عليه فرضاً إذ حرمه من أن يصيب شيئاً من المقاطعات كما نال أخواه ، ولذلك ماكاد يشب عن الطوق حتّى جبّ دراساته وحياته

---

(١) هـذا بالإضافة إلى مبلغ من المال دفعه له يهود بلاده على شكل ذهب حتى لاينزل بهم ضرراً وهو فى طريقه إلى بيت المقدس .

الدينية وانصرف للحياة المدنية فصّلاً تابعاً لأخيه جودفروى ، فلا عجب إذا كان قد قد نظر إلى الحملة الصليبية من زاوية خاصة هى أن تعوّضه عما لم يجده فى وطنه من السيادة والتملك ، وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع تفسير سيرته فى الحملة منذ وصوله مع المحاربين إلى آسيا الصغرى .

واشترك فى هذه الحملة أيضا غير هؤلاء جماعة الأمراء النرمنديين الذين كانوا شـــديدى الاهتمام بتثبيت قواهم على حساب القوى المجاورة لهم فى جنوب إيطاليا ، أضف إلى هذا أن بعض المنازعات العائلية بين أبناء روبرت جسكارد كادت أن تصرف النرمنديين عن كل شىء إلاّ إلى قتال بعضهم البعض الآخر ، بل إن الحرب شبّت ذات مرة بين بوهيمند وروجر بورسا ابنى روبرت جسكارد مما أزعج عمهما روجر صاحب صقلية فحاول إصلاح ذات البين بينهما ، لكنه لم يستطع انتزاع الإحن تماما من نفس بوهيمند الذى رحب بالدعوة الصليبية حينما أدرك ما قد تهيؤه له من فرصة إقامة مملكة باسمه فى الشرق ، ومن ثم أيدّ دعوة البابا إربان الثانى .

أما ريموند الرابع كونت تولوز المعروف فى المراجع العربية بالصنجيلى — نسبة إلى مقاطعة Saint Gilles بفرنسا — فكان رجلا حنكته التجارب وأوغل فى خبرة بالأيام أبلغته الستين من العمر ، وقد أسهم من قبل فى محاربة مسلمى الأندلس ، ولعل ذلك راجع بعض الشىء إلى زواجه من ألفيرا الأراجونية من البيت المالك بإسبانيا ، ولقد شرحنا موقف البابا اربان الثانى منه فى دراستنا عنه[1] ، ورأينا كيف أنهما أخذا يتشاوران فى مسألة محاربة

---

(١) راجع حبشى : الدبلوماسية البابوية .

المسلمين بالشرق واستخلاص بيت المقدس من أيديهم ، ومن ثم كان ينظر إليه على أنه القائد المدنى العام للحملة الصليبية .

وسام فى هذه الحملة من الأمراء روبرت كونت نورمنديا الواقعة فى شمال فرنسا ، وكان روبرت هذا أكبر أبناء وليم النرمندى فاتح انجلترا سنة ١٠٦٦ ، كما أنه كان دائم المحاربة لأخيه وليم روفوس ملك انجلترا منذ وفاة أبيهما ، ويمكن القول بأنه رحب بدعوة إربان لمحاربة مسلمى الشرق .

* * *

هؤلاء هم كبار الأمراء الذين استجابوا للدعوة إلى حملة صليبية وإن اختلفت نظرة كل منهم تجاهها عن الآخر .

ولقد وضح منذ البداية أن البابا كان يعتبر الحملة حملة بابوية لمبادرته إلى وضعها تحت قيادته الشخصية ، ثم إيكاله هذه القيادة إلى نائبه الكردينال أديمار دى مونتيل ، وربما قيل فى ذلك إن هذا العمل من البابا كان تعسفا ، ولكنه كان فى الحقيقة خير ما يكفل للحملة أكبر قسط من عدم التنازع بين هؤلاء الأمراء حول القيادة ، وما قد يؤدى إليه تنازعهم إلى فشل ريحها ، لاسيما وفيهم أصحاب الأطماع الذين كان يعرفهم إربان الثانى معرفة تامة ، كما أنه كان موفقا فى اختياره أديمار دى مونتيل نائبا عنه لما قام به من دور كبير فى تهدئة الأمور بين الأمراء الصليبيين[١] .

على أية حال كانت هذه الحملة النظامية ــ أو حملة الأمراء ــ تمثل الإقطاع الأوربى حتى فى تكوينها وسيرها ، فقد انقسمت إلى أربع فرق إحداها

---

(١) Grousset : L' Empire du Levant. p. 192.

بقيادة جودفروى ، والثانية بزعامة بوهيمند النرمندى ، والثالثة من أهالى وسط فرنسا بقيادة ريموند الصنجيلى كونت تولوز ، والرابعة مؤلفة من فرنسي الشمال بقيادة روبرت هيوز كونت نرمنديا[١] ، وأدرك قادة الحملة منذ اللحظة الأولى ضرورة ما سوف تمليه عليهم الظروف من الاتصال المباشر بألكسيس كومنين إمبراطور بيزنطة .

كان أول الناهضين للحرب جودفروى دى بويون وفى صحبته أخواه ، وانضم إليه عدد غير قليل من كبار الكونتات والسادة الإقطاعيين[٢] وذلك فى أواخر أغسطس ١٠٩٦ بعد أن اكتملت أسباب الحملة .

واقتفى جودفروى أثر حملة الدهماء التى كانت بقيادة بطرس الناسك ، ويقال إنه كان ناظراً فى ذلك إلى الأسطورة التى كانت تسود عصره إذ ذاك من أن شرلمان سلك هذا السبيل يوم خرج حاجا إلى بيت المقدس[٣] . وإن سيرة جودفروى لاتجعل مثل هذه الفكرة بعيدة عن ذهنه لاسيما وأن نسبه كان فى الوقت ذاته يرجع من ناحية الأم إلى هـذا الإمبراطور الذى أقام دولة الفرنجة .

سلك جودفروى — على أية حال — الطريق البرى ، حتى إذا شارف حدود بلاد المجر فى أكتوبر من تلك السنة أنفذ سفارة إلى ملكها كولومان ليأذن له فى عبور بلاده ، وكانت تجربة كولومان المريرة مع الصليبيين السابقين قد أزعجت خاطره ، لذلك اقترح مقابلة جودفروى للتشاور فى هذه المسألة ، وتمّ له ماأراد فى مدينة Odenburg الواقعة على الحدود ، وتم الاتفاق على

---

(١) Ibid., pp. 191 — 2.

(٢) Albert d' Aix, p. 229.

(٣) راجع تعليقنا على هذه الناحية فى « أعمال الفرنجة » ، ص ١٨ حاشية رقم ٤ .

السماح للصليبيين بالمرور على أن يبـــقى بولدوين — أخو جودفروى — وزوجته وأطفاله رهينة لدى الملك ضماناً لحسن سيرة المحاربين عبر بلاده ، كما تعهد كولومان من ناحيته بتموين الجيش الصليبي بالذخيرة بأثمان يستطيع الجيش دفعها ؛ وبذلك تمكنت الحملة من الوصول إلى بلغراد سالمة لم تؤذ أحداً ، وحينذاك أطلق كولومان رهائن الصليبيين .

حين أصبح جودفروى فى الأملاك البيزنطية ألفى ترحيبا من حكامها ، ولعـل ذلك مرجعه إلى تلك الفئة من الصليبيين الذين سـبقوه بقيادة هيج كونت ڤيرماندوا الذى كان يزدهيه الترحيب والتعظيم ، وكان هيج هذا قد نهض إلى الشرق عبر رومة حتى بلغ القسطنطينية بعـد رحلة شاقة ، فتلقاه الإمبراطور لقاء طيبا وبالغ فى إكرامه وإن كان أشبه لديه بالأسير حيث قيد حركاته وتنقلاته إلا فى حرس خاص ، وعلى كل حال فقد رأى هيج فى هذا الحرس تـكريما له ، فقطع يمين الولاء للإمبراطور ، وإن فسّرت بعض الـكتب التاريخية كالجستا[١] هذا تفسيرا يفصح عن كراهية بعض الصليبيين للإمبراطور .

بلغت حملة جودفروى القسطنطينية يوم ٢٣ ديسمبر[٢] ، فأقامت — امتثالا لأمر الإمبراطور — خارج المدينة حتى يأذن لها بالدخول ثم المرور إلى وجهتها .

هنا نقف لحظة عنـد رأى الجستا فنرى أنه يحـاول رسم صورة قاتمة لألـكسيس الذى كانت خطته هى إمداد الصليبيين بكل مايحتاجونه من ذخيرة

(١) راجع أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ص ٢٤ .

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ص ٢٤ ، س ١ ، Albert d' Aix, p. 304

ومئونة ، وكان صادق النية فى تنفيذ هـذه الخطة ، ولـكنه كان يهدف من وراء ذلك إلى حمل أولئك الأمراء على قطع اليمين له بإرجاع كل ما يتم لهم فتحه مما كان من قبل تابعا لبيزنطة ثم سلبه منها المسلمون ؛ أضف إلى هـذا أنه كان يدرك ما تنطوى عليه نفوس الأمراء الصليبيين من أطماع دنيوية فى تكوين إمارات لهم فى هذه البقعة ، وكان ذلك أمراً لا مفر منـه ، ومن ثم رأى مجاراة الأمور فى الاكتفاء بأن يقطعوا له يمين الإخلاص ، إلا أن هـذه اليمين كانت عبئا ثقيلا على نفس جودفروى الذى جاءه هيج دى فيرمندوا يسأله القدوم لزيارة الإمبراطور ، واشتم منـه جودفروى رائحة ما يدبر له من حمله على قطع اليمين المرجوّة ، وهو أمر تنكره نفسه ، ولذلك رفض القيام بهذه الزيارة مما أغضب ألـكسيوس بطبيعة الحال ؛ وعلى الرغم من تـكرار الإمبرطور لدعوته إياه لزيارته فى قصره إلا أن الفارس الصليبى ظل مقيما على تعنّته وإصراره .

يستفاد من هـذا أن ألـكسيوس كان مهتماً غاية الاهتمام بأن يأخذ من جودفروى يمين الولاء له وأن يقسم له بردّ ما يتم على يده من فتح بلادٍ كانت تابعة من قبل للإمبراطورية ثم سلبها منها المسلمون فى العصور المختلفة ؛ وبعث إليه برسولين[١] من قبله طلبا منـه أن يأمر جنده بكفّ أيديهم عن أعمال التخريب والسلب ويدعوانه أن يعسكر هو وجيشه أمام القسطنطينية ، فعسكر جودفروى حيث شاء الإمبرطور ، غير أن بقية ما طلبه الـكسيوس أثار مشكلة أمام الفارس الصليبى ، إذ كيف يقطع يمين الولاء لإمبراطور شرقى ؟

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. 16.

ألا يترتب على ذلك تبعيته الإقطاعية له ؟

ثم ألا تلزمه هذه اليمين بمحاربة الصليبيين إذا حدث من الأخيرين ما يغضب الإمبراطور البيزنطى على تابعهم ؟

وإلى جانب هذا وذاك فقد نظر جودفروى للمسألة من زاوية أخرى هى أنه كاثوليكى المذهب والإمبراطور أرثوذكسى، ولا طاعة الثانى على الأول.

لقد رأى فى هذه اليمين خيانة منه لهنرى الرابع وللبابا إربان الثانى ، لذلك عمد لتأجيل البت فى كل تلك المسائل حتى تفد بقية الجيوش . وحينذاك لا يستطيع الإمبراطور أن يفرض عليه هذا الطلب الجائر ، ولم يخف مقصده بطبيعة الحال على ألكسيس كومنين ، فكف يده عن تموينهم ، لكنه مالبث أن نسخ ما قرر حين أبصر بلدوين يعيث نهبا فى نواحى المدينة ، مما أثار الفوضى وفزع أهل تلك النواحى الآمنين[1] ، فسمح لهم بالعسكرة فى بيرا المطلة على القرن الذهبى .

بقى جودفروى حيث هو حتى شهر مارس سنة ١٠٩٧ دون أن يلتقى بالإمبراطور ، وتوترت العلاقات بينهما لا سيما حين سمع ألكسيس بقرب مقدم بوهيمند النرمندى أمير تارنت وابن عدوه روبرت جسكارد ، فقد خشى الكسيوس انضمام القوات الصليبية بعضها إلى بعض وحينذاك يسقط فى يده ، وقد تتجمع هذه القوات فيناله منها ما يكره ، لذلك فكر فى اتخاذ خطة حاسمة منذ اللحظة الأولى وهى المبادرة إلى تضييق الخناق على جيش جودفروى ، وبدأ بوقف إرسال العلف للخيول ، حتى إذا مضت الأيام كف يده عن

---

(١) Albert d' Aix, p. 300.

إرسال المؤونة والمرشدين والجنود من الجيش عقب انقضاء الأسبوع المقدس ، فاضطر الجيش الصليبى إلى التزود من المنطقة المحيطة به نهباً وسلباً .

على أنه من الإنصاف للإمبراطور أن نقول إنه لم يكن يفكر فى هذه اللحظة بالذات فى قتال الصليبيين ، بل كان كل ما يريده منهم هو الوصول إلى الاتفاق معه على الولاء له .

على أن الإمبراطور بالغ فى مضايقة جودفروى حين بعث إليه يأمره بالعبور إلى آسـيا الصغرى حتى ولو لم يقطع له اليمين المرجوّة ، فغضب جودفروى ومن معه وشرعوا فى محاربة القوات البيزنطية ، إلا أنها لقنتهم درساً منذ بدء القتال أدركوا منه أنهم دونها قوة ، وتجلىّ للصليبيين عدم جدواهم فى مقاومة الإمبراطور ، وإذ ذاك لم يجد جودفروى بداً من الرضوخ والاستسلام لمطلبى الكسيوس : أحدهما قديم وهو قطع يمين الولاء له وثانيهما جديد وهو الانتقال عبر البسفور إلى آسيا الصغرى[١] .

والواقع أن الكسيوس كان حريصاً كل الحرص على هذا الانتقال حتى لا تتهيأ الفرصة للصليبيين فى الانضمام إلى التجريدات الصليبية الجديدة التى كانت على وشك القدوم بقيادة بوهيمند .

وحدث فى هذا الوقت بالذات أن وفدت قوات صليبية جديدة من أنصال جودفروى ، ومثّلت مع الإمبراطور نفس الدور الذى مثله جودفروى منذ البداية حتى تلك اللحظة ، ثم ألحقها الكسيوس بمولاها فى آسيا الصغرى[٢]

(١) Ibid., pp. 307 — 8, 310.

(٢) Ibid., pp. 309 — 10.

كان معنى هذا القَسَم أن الحملة الصليبية ، أو قسما من الحملة على الأقل ، خرج من بلاده باذلا روحه فى سبيل استرداد الإمبراطورية البيزنطية ما سلبه السلاجقة منها ، وكأنّ الغرب الكاثوليكى لم يَعْدُ أن يكون كف قط لتحقيق مطامع بيزنطة السياسية وأحلامها .

* * *

وفى غداة هذه الأحداث قدمت القوات النرمندية بقيادة بوهيمند ، ويلاحظ أن الإمبراطور كان قد بعث إليه ـ وهو لا يزال أمام تسالونيكا ـ بسفارة ترحب به ، وكان لهذه السفارة أثرها فى تحوّل بوهيمند إلى رجل يسعى جهده لمسالمة الكسيوس وتصفية الجوّ من الشوائب التى كانت متوارثة بين البيزنطيين والنرمنديين ، وسعى بوهيمند وحده للذهاب إلى القسطنطينية ليلتقى الجالس على عرشها يوم ٩ أبريل[1] .

لقد عرفت بيزنطة بوهيمند من قبل خصما عنيداً لا يكل عن قتالها ، وكانت الإمبراطورية من جانبها تخشى كل الخشية من مقدم النرمان لأنها تدرك الدوافع التى تحركهم للمجىء إلى الشرق ، وهى دوافع أبعد ماتكون عن الدين أو التحمس لتخليص بيت المقدس ، لأن سياسة النرمان التقليدية تنزع نحو مناضلة الإمبراطورية البيزنطية ، وسلب مافى يدها من الأملاك فى الغرب ثم التحرك نحو القسطنطينية ذاتها .

على أن بوهيمند كان يطمع فى تأسيس إمارة شرقية نرمندية ، ورأى الحكمة فى اصطناع اللين والمودة مع الإمبراطورية البيزنطية ، فنبذ جانبا

(١) Cf. Hagenmeyer :.Chronologie de la premiére croisade, p. 64.

ما توقعه الجميع منه ، فلم نعد نرى من جانبه شيئا من العداء لبيزنطة أو إقامة العراقيل والمشكلات أمامها فى تلك الفترة ، وسبيله التودد إلى البلاط ، وهل أدلّ على إيثاره المودة والعافية من مبادرته إلى قطع يمين الولاء للإمبراطور الذى خلع على بوهيمند الخلع الثمينة ووصله بالهدايا الغالية[١] ؟.

ويذهب رنسيمان[٢] فى تفسير مسلك بوهيمند الفصلى إلى أنه كان يدرك تمام الإدراك أن بيزنطة لا تزال على جانب كبير من القوة التى لا يمكن بدونها تحقيق أحلام الحملة الصليبية ، وأن الخير كل الخير فى موادعتها ، وحينذاك يستطيع الاعتماد عليها فى تحقيق أهدافه الشخصية ، أضف إلى ذلك أنه كان يطمع أن تُعقد له قيادة المحاربين الصليبيين وهو الذى شبّ فى ميادين القتال فى إيطاليا وخارجها ، غير أن هذه القيادة كانت أبعد ما تكون عنه لاسيما وأن البابا لم يصرّح له بذلك ، بل كان يدرك أن هناك شخصاً آخر اصطفاه إربان الثانى ونعنى به ريموند كونت تولوز ، فلو أن بوهيمند نجح فى الحصول على تفويض من الإمبراطور فى أن يمثله شخصيا فى قتال المسلمين فإنه يكون بذلك فى موقف يجعله فى الواقع على رأس المحاربين الصليبيين ، ويكون المرجع الأعلى الذى يُسلمه المقاتلون الغربيون الأراضى التى يتم لهم فتحها لردها إلى بيزنطة .

خطرت كل هذه الخواطر فى نفس بوهيمند ، ومن ثم كانت مبادرته إلى قطع يمين الولاء لألكسيوس ، ولعل هذا هو الذى حمل ألبرت ديه[٣] على

(١) Grousset : op. cit., t. I, p. 79.

(٢) Runciman, Hist. of the Crusades, vol. I, p. 158.

(٣) Albert d' Aix, p. 313.

أن يقول إن بوهيمند قطع يمين الإخلاص على كره منه ، ولكن تحليل الموقف كما استعرضه رنسيمان يدعو إلى دحض فكرة الإرغام .

حينذاك ألحّ بوهيمند على الكسيوس أن يعينه قائدا عاما لقواته فى آسيا الصغرى ، وحينذاك أيضا أوقع فى يدى الإمبراطور لأنه كان لا يزال يوقن فى قرارة نفسه بأطماع بوهيمند ولا زال ينظر إليه على أنه مخاطر نرمندى ، غير أنه كان فى الوقت ذاته يخشى إغضابه ، فلم يجد وسيلة إلا إرجاء هذا الموضوع إلى فرصة أخرى ، وكان بوهيمند دبلوماسيا بارعاً فلم يصر على مطلبه ولم يتعنّت ، بل بادر إلى استقدام بقية جنده وبعث بهم إلى آسيا الصغرى .

على أن تنكريد — ابن أخيه — أبى قطع هذه اليمين ، ومن ثم دخل المدينة سرا تحت جنح الدجى ، خشية منه ومن ريتشارد أمير سالرنو أن يحملهما بوهيمند على الاقتداء به فيما فعل ، فرحلا سرا وعسكرا عند خليج نيقوميديا إلى جانب جيش جودفروى[1] ، وإن كانت رواية الچستا[2] تقول إنهما عبرا البسفور مستصحبين معهما جلة جند بوهيمند .

* * *

إلى هذه اللحظة لازم التوفيق الإمبراطور ألكسيوس ، فقد نجح فى إملاء شروطه على زعيمين من أكبر زعماء هذه الحملة هما جودفروى دى بويون وبوهيمند بن روبرت جسكارد ، وبقى أمامه كونت تولوز الذى كان قوى الصلة بالبابا ، والذى آلى على نفسه عهداً أن يقيم بالأرض المقدسة بعد

(١) Chalandon : Hist de la première croisade, p. 137.
(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٣٢ .

فتحها واستردادها ، أضف إلى هذا أن حملة ريموند صحبها أديمار أسقف بوى نائب البابا فى قيادته الروحية لحملات الصليبيين .

فعل الإمبراطور بريموند مافعله من قبل ببوهيمند حيث أنفذ إليه وفادة بالغت فى الترحيب بمقدمه وحملته على المجىء إلى القسطنطينية على حدة دون جيشه ، والغرض من ذلك أن يلتقى بجودفروى وبوهيمند وليقطع مثلهما يمين الولاء والتبعية للإمبراطور ؛ على أن ظروف ريموند كانت تختلف عن ظروف زميليه اللذين سبقاه ، ذلك أن علاقاته بإربان الثانى كانت تملى عليه ألاّ يتلقى التوجيه فى مثل هـذا الأمر من أحد غير المندوب البابوى الذى كان قد تخلّف إذ ذاك مع بقية الجيش فى بلاد اليونان لوعكة ألمّت به .

كذلك لم يغب عن بال ريموند أن قطعه اليمين للإمبراطور يجُبّ مابينه وبين إربان من صلات هو أشدّ ما يكون حرصاً عليها .

وكان خبر الحادثات التى جرت بين بوهيمند وبين الإمبراطور قد طرقت سمع ريموند الذى أدرك أنها تحمل معنى سيادة بوهيمند على بقية رجال الحملة .

أوقع حينذاك فى يد ريموند ، ولكنه حاول التخلص من هـذه اليمين بأنه جاء لخدمة الرب فى بلاد المشرق ، بيد أنه قال إنه مستعد للعمل تحت لواء الإمبراطور إن خرج الإمبراطور بنفسه على رأس الجيش إلى جانب الصليبيين فى قتالهم المسلمين وهى الغاية التى خلّف من أجلها وطنه وبنيه : الأمر الذى يمليه عليه واجبه كأكبر رأس فى بلاد المسيحية بالشرق[1] .

---

(١) "Et tamen fore , si imperator cum exercituiret Iherosolimam quod se suos et sua omnia illi committerat ,, , Cf. Raimond d' Aguilers. p . 238 .

فأراد ألكسيوس التملص من هذه القيادة والتخلص من هذه الورطة التي يضيّق ريموند بها الخناق عليه ، ومن ثم حاول تبرير تقاعده مؤقتا عن قيادة الصليبيين باضطراب الأمور في الأملاك البيزنطية اضطرابا يحمله قسراً على البقاء حيث هو[1] .

ولكن ريموند أصر على هذا المطلب جاعلا إياه شرطا لتحقيق رغبة الإمبراطور .

اجتمع مجلس الأقطاب مؤلفاً من ريموند الصنجيلي وبوهيمند النرمندي وجودفروى دى بويون والإمبراطور ألكسيوس ، وكان النقاش بطبيعة الحال بين الأول والأخير ، وأخذت الأمور تتعقـّد بعد أن أثار الصنجيلي ما أثار من مشكلة مصاحبة الإمبراطور للحملة ، وأدرك بوهيمند ما يهدف إليه ريموند من العمل على إضعاف موقفه الخاص ، وتفويت الفرصة عليه في الحصول على تلك المكانة الجديدة التي ساعدته الظروف واليمين للإمبراطور عليها ، وكان بوهيمند بطبيعة الحال حريصا كل الحرص على ألا تفلت من يده تلك الفرصة المرتقبة في أن يكون قائداً عاماً للقوات المسيحية ـ شرقية كانت أم غربية ـ في آسيا الصغرى وفي غيرها من النواحي التي تخترقها الحملة الصليبية ، مما يتيح له الحصول على نصيب الأسد حين توزيع الغنيمة .

حينذاك انقسم المجلس إلى فريقين أحدهما في جانب الإمبراطور وقوامه جودفروى وبوهيمند ، والآخر يتألف من ريموند كونت تولوز وحده ، ولم يفت ذلك بال الإمبراطور فلاذ بالصمت تاركا الدفاع عن فكرته وتسفيه

(1) Ibid . , loc . cit .

رأى خصمه إلى الأميرين الصليبيين اللذين راحا يحاولان حمل ريموند على التخلى عن موقفه وثنيه عن وجهة نظره ، وأخذ الجدل بينهما وبينه يحتد ويعنف ، وإن كان بوهيمند قد حاول فى البداية منعه من الاستسلام لفكرته ما دام هدفه نصر الصليب ، مبيّناً له مقدار الخطر الذى تتعرّض له القوات الصليبية من التفكك والانصراف عن متابعة الزحف على فلسطين ، لا سيما والسلاجقة قريبون منهم فى إزنيق[1] .

ثم تطور الجدل تطوّراً أنذر بالشر بين الأمراء الصليبيين أنفسهم حين اندفع بوهيمند — وهو فى سورة غضبه — للتهديد بالوقوف بسلاحه وجنده إلى جانب الإمبراطور البيزنطى إن فكرّ ريموند فى محاربته أو إذا تأزمت الأمور بين الاثنين تأزّماً أدى إلى القتال .

على أن الاجتماع ارفضّ دون أن يصل المجتمعون الأقطاب إلى قرار حاسم يفضّ المشكلة ويسوى ما بين طرفى النزاع .

فلما كان يوم ٢٦ أبريل - أى بعد خمسة أيام من وصول ريموند إلى القسطنطينية - بدت بوادر التقريب بين وجهىّ نظر المتنازعين حين وافق ريموند على أن يقسم يميناً يتعهّد فيها بالمحافظة على حياة الإمبراطور وشرفه وألاّ يقوم هو أو أحد أتباعه بعمل شىء ينطوى على الإضرار به .

فما قيمة هذه اليمين ؟

الواقع أن ألكسيس كومنين لم يُبْد أدنى معارضة فى قبول هذه اليمين الجديدة غير المتوقعة ، لأنه كان يدرك أن مثل هذا العهد من العهود الإقطاعية

---

(1) Ibid ., op . cit . loc . cit .

الفصلية المعترف بشرعيتها فى فرنسا منذ القرن التاسع للميلاد [١] .

غداة الوصول إلى هذا التراضى بين ألكسيس وريموند الصنجيلى ، رحل بوهيمند على رأس جيشه إلى آسيا الصغرى استعداداً للتوجه والانضمام إلى بقية الصليبيين فى الزحف على السلاجقة حتى ينتهى بهم المطاف ـ كما رسموه ـ للوصول إلى بيت المقدس .

غير أن رحيل بوهيمند ـ حليف ألكسيس ـ كان خير معوان لألكسيس على تصفية الجوّ فيما بينه وبين خصمه ريموند ، وقد يبدو هذا عجيبا إذ تعدّدت مرات اللقاء بين كونت صنجيل والإمبراطور ، وأخذت الأمور بينهما تسير من حسن إلى أحسن وتقاربت وجهات النظر ، ولا يستبعد أن يكون الإمبراطور قد أوضح لريموند كراهيته القديمة لبوهيمند كنرمندى ، وبذلك عرف الإمبراطور كيف يستغل أطراف القضايا المختلفة ليؤلف من بينها فكرة تخدمه عند ريموند ، هى عدم اطمئنانه إلى نوايا الزعيم النرمندى ، وطبيعى أن ألكسيس كان يخاطب إذ ذاك فى ريموند الكراهية التى تنطوى عليها نفسه لمنافسه الصليبى .

ونستدل مما تركته أنا كومنين المؤرخة ـ ابنة الإمبراطور [٢] ـ على أن ريموند وقد خلى بأبيها ـ راح يتكلم بما يقدح فى حق بوهيمند ، وعلى ضوء هذه الحقيقة التى تسوقها « أنا » يحق لنا أن نتساءل : هل كان فى استطاعة ريموند أن ينال

(١) Gensehof, Feudalism in Eunope . pp . 64 — 5, 66 — 71 .

(٢) Anna Comnéne , Alexiade , (in) Runciman , op . cit. p. 164 , n. 1 .

فى حضرة الإمبراطور من بوهيمند – تابعه الجديد – إلا إذا كان قد وجد من الإمبراطور أذنا صاغية وتشجيعاً له على النيل منه ؟.

وإذا كان ألكسيس قد نجح من قبل فى أن يوقع الفرقة بين الزعماء الصليبيين حين وقف بوهيمند موقف التحدى من زميله فى السلاح ريموند ، فقد نجح مرة أخرى فى دفع بوهيمند على قطعه العهد على نفسه بأن يقف بجنده إلى جانب البيزنطيين إن خرج على الإمبراطور خارج ، أيا كان هذا الخارج .

فهل هناك أفصح من هذا فى الدلالة على أن الهوة قد اتسعت فى الخلاف بين زعماء الحملة الصليبية ؟ وهل يعد هـــذا انتصار لسياسة ألكسيوس فى تشتيت وحدة الرأى والإجماع بين القادة الصليبيين مما قد يفيده فيما بعد ؟

* * *

بقى أمام الإمبراطور الاتفاق مع الفرقة الرابعة التى كانت بقيادة روبرت دوق نرمنديا وصهره ستيفن كونت بلوا وعمه روبرت الثانى كونت فلاندر ، وانضم إلى هـذه الحملة فئـة من الفرسان الإنجليز والأسكتلنديين ، وإن لم يشترك فيها من نبلاء انجلترا سوى واحد فقط ، ويهمنا ممن اشتركوا فى هذه الفئة أحد مؤرخى الحملة الصليبية فوشـيه دى شارتر الذى دوّن أحداثها فى مؤلف يعد من عيون المصادر[1] عنها ، وقد ترك لنا فوشيه صورة مشرقة الجوانب عن حسن استقبال البيزنطيين لهذه الجماعة من الصليبيين ، ودعوتهم

(١) هو صاحب كتاب : Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium الذى تـكثر الإشارة إليه فى حواشى هذا الـكتاب .

إياهم للصلاة فى كنائسهم ، كما أعجبه رخاء الدولة وغناها وتعدد مصادر الإنتاج فيها .

كذلك يهمنا منها أيضاً روبرت الثانى الفلاندرى الذى كان أبوه قد زار القدس حاجاً عام ١٠٨٦ ، ثم اشترك — فى أثناء رجوعه — مع الإمبراطور البيزنطى فى قتال المسلمين ، وهو الذى كان ألكسيس قد كتب إليه كتابا يستنجده فيه ، وهو الكتاب الذى اعتمد عليه إربان الثانى فى دعوته أوربة لنجدة بيزنطة[١] ، وعلى ضوء هذه الأحداث يمكن تفسير مبادرة الفلاندريين بقطع يمين الولاء والإخلاص لألكسيس[٢] .

على أية حال بلغت الفئة الرابعة من حملة الأمراء الصليبيين القسطنطينية فى أوائل مايو فى الوقت الذى كانت فيه جميع القوات الصليبية السابقة قد اجتازت البسفور وأصبحت فى القطاع الأسيوى ، وبادر الإمبراطور فى التو إلى إغداق الهدايا والمنح والأموال على تلك الفئة الجديدة ، على أنه لم يأذن لهم بالمسير جميعا مرة واحدة ، بل أمر أن يكون دخولهم المدينة فى شراذم ضئيلة لا تعدو الواحدة منها ستة حجاج ، وبين كل جماعة وأخرى فترة من الوقت حتى لا يكون تجمعهم مغريا إياهم على اصطناع العنف مع الأهلين وحتى لا يسيئوا السيرة معهم[٣] .

لم يجد الإمبراطور ثمة حاجة تدعوه لمناقشات ومجادلات مع روبرت دوق نرمنديا وجماعته فى قطع يمين الولاء له ، بل لعلهم كانوا أسبق منه

---

(١) فيما يتعلق بهذه الرسالة ، راجع ما سبق ص ٣٤

(٢) Raimond d' Aguilers , op. cit. p . 238

(٣) Chalandon, Essai sur le regne d' Alexis Comnéne .p. 157.

فى التقدم بذلك العرض الذى وافق هوًى فى نفسه ، فلما تم له ذلك ساعد على نقل هذه القوات إلى آسيا الصغرى فانضمت إلى مَن سبقها مِن الصليبيين الأوربيين الذى كانوا مقيمين إذ ذاك على حصار نيقية .

خلص ألكسيوس من عبء الصليبيين فى القسطنطينية ، وانزاح من على صدره هم كان يخشاه ، وهكذا يتضح لنا من كل ما سبق أن القوات الصليبية المختلفة التى وفدت إلى الشرق فى الحملة الأولى استجابة لدعوة البابا إربان الثانى اعترفت صراحة أو ضمنا بولائها للإمبراطور وفصليّتها له ، وتلى ذلك يمينها بإرجاع كل ما يقع فى يدها من أرض استولى عليها السلاجقة : الأمر الذى لم يَخْفَ على الكتاب المسلمين أيضا[1].

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥

الفصل الثالث

طلائع الصراع مع سلاجقة الروم

الإمبراطور وعين الأمراء الصليبيين . النجدة البيزنطية . نيقية . استسلام السلاجقة لبيزنطة . وقعة اسكى شهر . قونية . الأرمن والصليبيون . الجاسوسية الصليبية . بلدوين والرها . الرها إمارة صليبية .

بارحت القوات الصليبية النظامية القسطنطينية ميممة وجهها شطر آسيا الصغرى حيث كان لابد لها من أن تحتك احتكاكا حربياً بسلاجقة الروم في تلك النواحي التي تمر بها إلى وجهتها المنشودة ، ولم يكن الإمبراطور ليترك فرصة تمردون أن يغتنمها لتأكيد نفوذه ولضمان استخدام هذه القوات الأوربية لتحقيق آماله وأطماعه ، فنراه يعقد مع بوهيمند في مايو ١٠٩٧ م اتفاقية يتعهد فيها الصليبيون بطرد السلاجقة من نيقية بل ومن أنطاكية أيضاً[١] ، ويقول أحد المؤرخين[٢] المسلمين في هذا الصدد « إن الإفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بأن يسلموا إليه أول بلد يفتحونه ، ففتحوا نيقية وهي أول مكان فتحوه » .

لم يخف تأثير بوهيمند في نجاح ألكسيس في عقد اتفاقيات مشابهة لهذه في روحها مع كثير من زعماء الصليبيين الذين اتفق الإمبراطور معهم على أن يخرج هو معهم على رأس إحدى الحملات البيزنطية ، كما تعهد بحماية الحجاج أثناء مرورهم ببلاده في طريقهم إلى الأراضي المقدسة[٣]، وإن برهنت

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (طبعة أوربا) ، ج ١ ص ١٩١

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥

(٣) Chalandon, Essai Sur le régne d' Alexis Comnéne,p. 188;
Hist. de la premiére croisade, p. 161 .

الأحداث التالية على أنه لم يكن جاداً تماما فى هذا الاتفاق ، بل إن الأمر لم يكن يعدو مجرّد بسطة فى الآمال لهم ليدرأ شرهم وليتخذهم وسيلة طيعة فى تحقيق أهدافه .

كانت القوات الصليبية المتجمعة عبر الشاطىء الآخر من البسفور من الضخامة بمكان ، ولم تكن قاصرة على المشاة والفرسان ورماة النبال والسهام والعمال الذين تحتاجهم الحملة فى القتال والاستعداد له ، بل تعدّتهم إلى طائفة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة بل والنساء اللائى جىء بهنّ لدوافع لا تمتّ إلى القتال بسبب ما [١] ، فكانت أشبه ما تكون بهجرات شعوبية وطّنت نفسها على الاستقرار كجاليات مستعمرة فى بلاد الشرق الأدنى .

وقد أنفذ الإمبراطور مع القوات الصليبية كتيبة بيزنطية بكامل معداتها بقيادة تاتيكيوس Tatikios ، وليس من شك فى أن هدف الإمبراطورية كان طرد السلاجقة من آسيا الصغرى بعد أن ثبتت فيها أقدامهم ، وأصبحوا يهددون حدود الإمبراطورية بين آونة وأخرى ، وكان لا بد لذلك من عمل حاسم هو تحطيم قواهم فى عاصمتهم نيقية ، وكانت ضرورةُ أمْنِ الصليبين الحربى توحّد بين أهدافهم وأهداف بيزنطة فى هذه المسألة بالذات ، إذ لو ظلت نيقية بيد السلاجقة فستكون البقعة التى تهدّد مواصلاتهم وإمداداتهم الحربية ، وتبيّن قراءة الخريطة أنها خط الهجوم الأول على القوات المسيحية سواء فى القسطنطينية أم فى غيرها .

---

(١) Runciman , Hist . of the Crusades , vol . I , app . I , p. 336.

لم يكن قليج أرسلان موجوداً فى نيقية وقت تحرّك الصليبيين (أبريل ١٠٩٦) لانشغاله فى مناوشات مع الأمراء الدانشمنديين حول ملطية ، وليس من شك فى أن أنباء التجمّعات الصليبية قد بلغته ، غير أن خبرته بجماعة بطرس الناسك خدعته فى تقدير حقيقة قوة التجريدات الصليبية الجديدة التى قصدت أزميد (نيقو ميديا) ، حيث بقى الصليبيون بها ثلاثة أيام انضم إليها خلالها بطرس الناسك بمن نجى معه من كوارث الطريق ؛ وكان بوهيمند فى هذه الأثناء بالقسطنطينية يدبّر مع إمبراطورها مسألة التموين البرى والبحرى للقوات الصليبية .

على أن قوات بوهيمند التى كانت - أثناء تغيبه - تحت قيادة تنكريد ابن أخيه انضمت إلى قوات جودفروى وشرعت فى السير إلى نيقوميديا ثم تجاوزتها إلى هرسك حتى بلغت نيقية فى الأسبوع الأول من مايو وحاصرتها من جميع النواحى ما عدا المنطقة الجنوبية ، حيث توجد بحيرة هرسك التى كانت المنفذ الوحيد لقوات السلطان قليج أرسلان ، وجاءت للصليبيين النجدات والمؤن التى أمدّهم بها الإمبراطور الكسيوس عقب محادثاته مع بوهيمند ، فقويت سواعد الصليبيين وراح زعماؤهم يدبّرون خطة القتال ، وسادهم جوّ من الاتفاق لم يكن مألوفاً عند هؤلاء الأمراء المتنافسين على القيادة .

قصر قليج أرسلان فى مساعدة عسكره[1] مما كاد يحملها على الاستسلام

---

(1) Matthiew d' Edesse , Documents Armeniens , t . I , p . 28 وذلك كما يقرر لانشغاله بمحاربة ملطية التى كان يتولى أمرها فى ذلك الوقت بالذات الأمير خوريل الأرمنى ، على حين أن هناك من يدحض هذه الفكرة نظراً لبعد ملطية عن مجلى الصراع ، راجع Daulaurier : Doc. Armeniens , t . I, p . 28 , n . I

للبيزنطيين لولا ما ترامى إلى سمعها — وهى محاصرة ـ من اقتراب السلطان بنفسه على رأس قواته ، لكن قدومه جاء متأخراً ، واصطدم قليج أرسلان بقوات صليبية ضخمة قوية لم يكن يتوقعها لاسيما من جانب ريموند الصنجيلى، واستمر القتال بين الجانبين ، غير أن لواء النصر عقد للصليبيين بانسحاب السلطان ، وقد اصطنع الصليبيون منتهى القسوة إزاء جميع من وقع فى أيديهم من أسرى عدوّهم ، فعمدوا إلى قطع رءوسهم وإلقائها وسط المعسكرات الإسلامية ، وطال انتظار السلاجقة للقوات التى أمّلوا أن تصلهم ، وخشى البعض أن يدفعهم اليأس للاستسلام (١) .

لم يجد الصليبيون بدأ من الاستعانة بنجدة إمبراطورية ، ووافق ذلك هوىً فى نفس ألكسيوس لما تحمله من دليل مادى على حاجة الصليبيين إليه ، ولم يضن هو عليهم بحاجاتهم الإمدادات يترى بعضها فى إثر البعض الآخر ، ومع انه أمدّهم بما أرادوه إلا إنه كان كارها فى الوقت ذاته أن يصيب البلد كثير من التخريب والهدم بينا هو يريده سليما ؛ وكان السلاجقة يدركون ذلك فى الإمبراطور أيضاً .

وعلى ضوء هذه الفكرة يمكن تفسير ما ذكره الجستا (٢) من أنه « لما أيقن الترك فى النهاية أنهم لن يستطيعوا تلقّى أية نجدة من جيوشهم بعثوا إلى الإمبراطور سفارة تحمل إليه استعدادهم لتسليمه البلد إذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون » .

ولعله لم يعلم بخبر هذه الاتصالات بين الجانبين : السلجوقى والبيزنطى

(١) Albert d' Aix, pp. 314 — 315

(٢) أعمال الفرنجة : (ترجمة حبشى) ، ص ٢٧ ، س ٣ — ٥

أحد من الصليبيين الذين كانوا قد أعدوا العدة لمهاجمة المدينة يوم ١٩ يونيو ، إلا أنهم فوجئوا بالرايات البيزنطية تخفق فوق أسوارها وعلى حصنها[١] ، وشاهدوا جماعات المسلمين يحرسهم الجند البيزنطي الإمبراطوري هم وأمتعتهم ، ولم يستطع الصليبيون أن يمدّوا إليهم يد الأذى ، وليس من شك فى أن هذا المنظر قد أغاظ الصليبيين الذين كانوا يريدون الثأر من السلاجقة إلى جانب ما تتيحه لهم الفرصة من نهب المدينة وثروتها .

والواقع أن استسلام القوات السلجوقية للبيزنطيين يكشف عن حقيقة نظرة الإمبراطورية لحلفائها المفروضين عليها ، وهذا الاستسلام نتيجة اتصال سرّي بين الترك وبين مانويل بوتوميتس القائدالبيزنطي ، إذ شككهم فى كل أمان يقطعه لهم الصليبيون الذين كانوا يجهلون مايدور فى الخفاء .

على أن الإمبراطور جمع فى قصره كل الثروة التى كانت ملكا للسلاجقة ، وأخذ يوزّع منها مايشاء على زعماء الحملة الصليبية الذين لا نجد ثم غضبا من ناحيتهم على استسلام المدينة لألكسيس ، مما قد يحمل على الظن بأنهم كانوا على علم بالخطوات الأولية للاتفاق البيزنطي السلجوقي وأن الإمبراطور كان ينبئهم بها أولا بأول[٢] ، أما عامة المحاربين فلم تكن هناك حاجة تدعو لإخبارهم بما يجرى طيّ الخفاء على مستوى عال .

كان الإمبراطور يدرك أن معظم هؤلاء المحاربين من « فقراء المسيح Pauper Ghristi » ، فدأب على إرسال الهدايا إليهم والعناية بهم ؛ مما حملهم

(١) Guillaume de Tyre (R. H. G. Occ.) ,t .I ,pp .125 - 128; Stevensòn , Grusaders in the East , p. 12.

(٢) Runciman , op. cit. p. 181.

على الاطمئنان إلى جانبه والانخداع به ، حتى لقد أقسموا ألا يغادروا نيقية أو يستردوها ويردوها لألكسيس[1] فهل كانوا فى عملهم هذا أكثر من جند مرتزقة يبذلون دماءهم وأرواحهم فى سبيل استرجاع الإمبراطورية ما كان لها من قبل[2] ؟ لقد استطاع الإمبراطور البيزنطى بسياسته العجيبة أن يصيب من التوفيقات مالم يكن يدور قط بخلد أحد ما ، ولعله لم يدر بخلده هو الآخر أيضا ، فقد تهيأ له من النصر القريب ما يتمثل فى قطع الأمراء الصليبيين يمين الولاء له ، زد على ذلك تغلبه بدهائه على بوهيمند النرمانى — عدو الدولة التقليدى — ، ثم ختم ذلك — فى بداية المرحلة — باستمالته « شعب الفرنجة » — على حد قول المؤرخين الصليبيين — إلى جانبه ، واستمالتهم فى الدفاع عن مصالحه الخاصة ، ولم يفت ذلك الأمر جماعة من المقاتلين ، فنرى مؤرخنا المجهول صاحب الجستا قل أن يذكر اسمه إلا مقرونا بنعوت تفصح عن مبلغ إدراكه لحقيقة الواقع .

على أية حال استسلمت المدينة للإمبرطور لا للصليبيين ، وإذ ذاك رأى ألكسيوس أن يقسم له اليمين مَن لم يقسمه من قبل ، وكان يعنى بذلك تنكريد ابن أخى بوهيمند ، وقد اضطُر تنكريد كارها للقسم بعد أن وصله الإمبراطور بكثير من الغنائم والأسلاب التى وقعت فى يده .

كذلك أحسن الإمبراطور معاملة الأسرى ، وقد فسّر صاحب الجستا[3]

---

(١) Raimond d' Aguilers , p . 240 .

(٢) Chalandon , Essai sur le régne d' Alexis Comnène , pp ,191 - 2.

(٣) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ص ٣٧ .

هذه المعاملة بسوء طوية ألكسيوس نحو الصليبيين وأنه لم يفعل ذلك مع السلاجقة إلا لمضايقة المحاربين الفرنجة .

* * *

ومهما كانت أحاسيس الصليبيين إلا أنه ما كان لهم أن ينكروا الحقيقة الواقعة وهى سقوط نيقية وإزالة القوة السلجوقية الإسلامية منها ، فلما هدأت فورتهم أخذوا ينظرون إلى المسألة من زاوية أخرى حاولوا بها إرضاء كبريائهم فعدّوها براعة استهلال للحملة الصليبية التى دعا إليها مجمع كليرمونت ، وراحوا يهنئون أنفسهم بهذا النصر لاسيما وأنهم كانوا ملزمين بعهدهم بأن يردوا لألكسيوس نيقية باعتبارها أول بلد يفتحونه : أضف إلى هذا أن الانتصار الصليبى فى نيقية أبان للصليبيين عدم استطاعة القوات الإسلامية الوقوف الجدّى أمامهم ممّا أنعش فى أنفسهم الأمل بيسر احتلال بيت المقدس ومافى الطريق إليه من البلاد الإسلامية .

وإذن فقد آن الأوان لهم لمتابعة حجهم المسلح .

* * *

تولى بوتوميتس القائد البيزنطى القلعة ، وحينذاك عاد بعض القواد إلى الإمبراطور للاتفاق معه على تحديد وجهة الحملة ، فتم الرأى على قصد أنطاكية التى كانت من قبل فى يد بيزنطة ثم سلبها منها السلاجقة ، كما اتفقوا على مساهمة الإمبراطور نفسه فى الحملة ، إلا أنه أناب عنه مرة أخرى قائده تاتيكيوس وجعله ضابط الاتصال بينه وبين الصليبيين .

قسّم الصليبيون قواتهم شطرين : أحدهما بقيادة بوهيمند وقوامه نرمان

جنوب إيطاليا وشمال فرنسا وقوات كونت فلاندر والكتائب البيزنطية التي كان وجودها ضروريا لمعرفتها التامة بالطريق ، وأما ثانيهما فبقيادة ريموند الصنجيلي ، ويتالف من جماعات الفرنسيين وأهالي اللورين وقوات كونت فيرمندوا ، أي أنه الفريق الذي فيه جودفروي دي بويون ، واتفق على أن يسبق الفريقُ الأولُ الثاني في الخروج بمدّة يوم حتى يسهل تموين هذه القوات .

اتجه قليج أرسلان بعد ضياع نيقية إلى الشرق حيث أصلح ما بينه وبين الأمراء الدانشمنديين للوقوف ضد الخطر الفرنجي ، حتى إذا فرغ من ذلك كله انكفأ راجعا حيث تواردت إليه الأخبار بزحف الصليبيين ، وكان لابد لهم من السير في وادي اسكي شهر ، لذلك رأى أن يتربّص لهم على قارعة الطريق فوقف ينتظرهم في وادي اسكي شهر (دوريليم) ليفجاهم في أثناء زحفهم .

كان انتظاره إياهم يوم ٣٠ يونيو ، فلما أمسى المساء عسكر العسكر الصليبي على مقربة من اسكي شهر ذاتها وأخذوا يرتبون صفوفهم ، غير أن الصليبيين لم يكونوا قد اجتمعوا كلهم بل كانوا في انتظار فريق ريموند وجودفروي ، فلما سمع قليج أرسلان بزحف الجيوش الصليبية وتقدمها عند اسكي شهر خرج على رأس قوات كبيرة ضمّت أشتاتا مختلفة من السلاجقة والعرب والتركمان[١] ، وكان أقرب إلى الصليبيين داراً ، فوافاه من التركمان – مع عسكر

(١) فيما يتعلق بالمدلول التاريخي لهذه الكلمات راجع Gibb, Damascus Chronicle of the Crusades, p. 41, n 2.

أخيه - العدد الكثير ، وقويت بذلك نفسه واشتدت شوكته ، فزحف إلى معابرهم ومسالكهم وسلبهم وأوقع بكل من ظفر به منهم بحيث قتل خلقاً كثيراً ، واصطدم الجيش الإسلامى يوم ٤ يوليو ١٠٩٧[١] بقوات بوهيمند منفردة ، وأوشك الجيش الصليبى على الهزيمة لولا أن أنجــدته قوات جودفروى حين وصلها الخبر[٢] ، ثم تلتها قوات أديمار ، وأدّى مقدم هذه القوات إلى تغيير دفة القتال فتنفس بوهيمند الصعداء ، ورتّب الصليبيون أنفسهم على شكل مروحة فى يمينها ريموند وأديمار وجودفروى وكونت فلاندر ودوق ﭬيرمندوا ، وفى ميسرتها قوات روبرت بن وليم الفاتح وتنكريد ؛ فلما رآهم المسلمون تفرّقوا وتواصلت الأخبار — كما يقول ابن القلانسى[٣] — « بهذه النوبة المستبشعة فى حق الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق ، واشترى ملك الرّوم من السبى خلقاً كثيراً وحملهم إلى القسطنطينية » .

ليس من شك فى أن وقع الهزيمة كان عظيماً لا على السلاجقة وحدهم بل على المسلمين قاطبة ، وكان المتوقع أن تتوحّد الجهود وتتكاتف الأيدى لصدّ الخطر الصليبى الزاحف على بقية بلدان الشرق الإسلامى ، ولكن قضت الإحن والمنازعات الشخصية بين الأمراء المسلمين أن تلقنهم درساً دميت منه القلوب .

---

(١) تحديد التاريخ الميلادى وارد فى Gibb, op. cit., p. 42 أما ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ فيورده يوم ٢٠ رجب سنة ٤٩٠ هـ .

(٢) Guillaume de Tyre, t. I. p. 138.

(٣) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٣٤ ، وراجع أيضاً Matthiew d'Edesse, Doc. Armeniens, t. I, p. 29 et note I.

أما الصليبيون فلا مشاحة فى أنهم فقـدوا الكثيرين من رجالاتهم فى هـذه الوقعة[١] ، ولكنها كشفت لهم القناع عن حقيقة ثابتة هى قوة بأس السلاجقة وأنهم ليسوا من التفاهة بالصورة التى فى خيالهم ، وليس أدلّ على تقدير الفرنجة لبأس السلاجقة مما يقوله صاحب الجستا فى شأنهم من الثناء عليهم وأنهم لاضريب لهم فى « القوة والشجاعة وفن القتال لو اعتنقوا المسيحية[٢] » ، وهـذا الثناء العظيم على السلاجقة من المؤرخ الصليبي المجهول يتضمنّ عدم احترام الصليبيين لقوة البيزنطيين ، فسلنا نصادف فى كتاباته أو فى كتابات غيره من المعاصرين الفرنجة مايشير إلى دور هام قام به البيزنطيون فى معاونة الصليبيين مما يبرر الكراهية التى تنصح بها كتابات الجستا ضـد البيزنطيين وضد الإمبراطور ألكسيس كومنين على وجه الخصوص .

فرغ الصليبيون من وقعة دوريليم التى هيأت لهم النصر على قوات قيلج أرسلان السلجوقية ، فاستراحوا مدة يومين راحوا يدبّرون خلالهما خطة زحفهم التالى ، ولم تكن لهم خبرة بطرق هذه الناحية وشعابها الحربية ، وليس فيهم من الأوربيين من سبقت له الرحلة فى هذه المفاوز والمسالك ، لذلك كان لابد لهم من الاستعانة بمعلومات البيزنطيين الذين اكتسبوا من خبراتهم الطويلة بهذه النواحى معرفة تامة بدروبها ومسالكها وشعابها وآبارها ورياحها ومناطق أمنها وخوفها ، وليس من شك فى أن البيزنطيين كانوا صادقين فى إرشادهم إياهم على الطريق الآمنة رغم ما نراه من روح الكراهية والتنديد بهم عند المؤرخين الصليبيين ، فقد كان الأخيرون يتوقعون أن يجدوا كل

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ص ٤٠ — ٤١
(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ص ٤١ — ٤٢

ما يسعفهم فى رحلتهم الحربية هذه ، ونسوا الأمد الطويل الذى تعرضت له هذه النواحى من الحروب بين المسلمين والروم ، وما أدّت إليه تلك الحروب من تخريب كثير من المناطق ، فلما عبر الصليبيون هذه النواحى حسبوا أن البيزنطيين قد غرّروا بهم حين مضوا يتوغلون فى مناطق انعدم فيها الماء ، فهلك عدد كبير من جيادهم ، ولقوا من الشدائد والأهوال ماانطبعت صورتها فى أذهانهم انطباعاً عميقاً مؤلماً .

تابع الصليبيون زحفهم حتى بلغوا قونية المعروفة فى المراجع الغربية باسم Iconeum ، وكان قليج أرسلان قد اتخذها مركزاً لتجمعاته بعد هزيمته فى نيقية أمام الصليبيين الذين كان مقدمهم إلى هذه الناحية مثيرا للرعب فى نفوس سلاجقتها ففروا إلى الجبال وذلك فى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ ، فوجدوها خالية ليس فيها من يدافع عنها[1] ، وإذ ذاك وجد الصليبيون الفرصة مواتية لهم للاستجمام لاسيما أنها كما وصفتها الجستا[2] «منطقة خصيبة تفيض بالمأكولات والأطايب وتزخر بشتى أنواع الحياة» ، وأشار عليهم مَن بها من الأرمن أن يحملوا معهم كميات وفيرة من الماء[3] ، ثم واصلوا الزحف حتى بلغوا ناحية تسمى بهرقلية التى قام السلاجقة عندها بآخر محاولة فى صدّ الصليبيين ، إلا أنهم لم يحققوا ما أرادوه بل سرعان ما فروا أمام الفرنجة الذين بقوا فى المدينة .

بقى أمام الصليبيين التفكير فى المرحلة التالية من رحلتهم الحربية .

---

(١) Guillaume de Tyre, op. cit. loc. cit.

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ص ٤٢ — ٤٣

(٣) أعمال الفرنجة : ص ٤٤ ، Foucher des Chartres, p. 200

انقسم الصليبيون بعدئذ فرقتين إحداهما بقيادة بلدوين وتنكريد ووجهتها النواحى الشرقية من آسيا الصغرى حيث كيليكيا وذلك يوم ١٤ سبتمبر ١٠٩٧ للاستيلاء على طوروس ، والأخرى إلى أنطاكية وتتألف من الغالبية العظمى من الجيش الصليبى .

كانت كيليكيا مركزاً لتجمعات أرمنية ، وتعرف بأرمينيا الصغرى . وقد تأثر تاريخ الأرمن بالهجوم السلجوقى على هذه النواحى منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، فقد أدّى إلى فرار كثير من الأرمن إلى ناحية الرها ، على أن الأرمن استطاعوا فى مستهل الربع الأخير من ذلك القرن نفسه أن يقيموا لأنفسهم أول دولة فيما وراء جبال طوروس هى المعروفة فى التاريخ الشرقى باسم إمارة فلارتوس نسبة إلى ملك لهم بهذا الإسم .

أدرك هذا القائد الأرمنى ما وراء هزيمة منزيكرت من ضياع النفوذ البيزنطى فى تلك النواحى ، ومكنته مكانته فى القيادة العليا بالجيش من أن يدرك أن الوقت قد حان لأصحاب المطامع فى تحقيق أهدافهم وأطماعهم ، لذلك رفض طاعة الإمبراطور البيزنطى الجديد ميخائيل دوكاس السابع ، وضمّ إلى قواته جماعة من مرتزقة الفرنجة قدّرهم المؤرخون بثمانية آلاف مقاتل ، واستطاع بهذه القوات كلها التى تحت سلطانه والتى يدفع أجرها من جيبه الخاص أن يقيم لنفسه إمارة صغيرة حول منطقة مرعش الجبلية ، وكانت له معرفة سابقة بها وبدروبها ومسالكها ، كما أن الإمبراطور ديوجين كان قد عهد إليه من قبل بحراستها ، وعمد فيلارتوس لتدعيم مركزه إلى إعلان تبعيته لحاكم أرمنىّ آخر إسمه ثورنيك فى منطقة ساسون الواقعة

إلى الشمال الشرقى من ميافارقين ، إلا أن ثورنيك لم يطمئن نفسا إلى فيلارتوس فأبى أن يمدّ إليه يد الاتفاق ومن ثم تحاربا ، فكان النصر حليف ثورنيك الذى أنزل الهزيمة بقوات خصمه فى ناحية تعرف بهانزيت وتقع بين ملطية وخرتبرت .

لم يكن فيلارتوس بالرجل الذى يسمح لضميره أن يعلو على أطماعه ، فالمعروف عنه أنه جبّ عقيدته واعتنق المسيحية على المذهب البيزنطى مما كان يثير الكراهية ضده فى نفوس أبناء جلدته .

كانت بيزنطة قدعهدت زمن رومانوس ديوجين إلى فيلارتوس الإشراف على ملطية ومرعش ، وأخذت منطقة نفوذه تتسع حتى امتدت من الفرات إلى المصيصة وعين زربة وتارس فى كيليكيا [١] ، ثم امتدت أطماعه عام عام ١٠٧٧م إلى شرقى كيليكيا ، فأنفذ فى تلك السنة قائداًمن لدنه اسمه باسيل ابن أبو خاب لاحتلال الرها ، وكان له قديم معرفة وسابق خبرة بها ، وكانت الرها فى تلك السنة بالذات تحت حكم نائب عن بيزنطة اسمه ليون الذى قاوم المغير ماوسعه الجهد ، إلا أن غالبية سكانها — وكانوا من الأرمن — ثاروا ضدّه وفتكوا به وانضموا إلى جانب باسيل وأسلموه الرها [٢] .

استمرت الأحوال على هذا الوضع حتى موت فيلارتوس الأرمنى سنة ١٠٩٠ وإن كانت الإمارة قد أخذت فى التدهور فى أخريات أيامه ، ثم تولى بعـــده توروس Thoros الذى حاول جهده القضاء على القوة

(١) Laurent , Byzance et les Seldjoucides , p. 84 .

(٢) Matthiew d' Edesse , pp. 180 Seq .

السلجوقية كما بذل مثل هذا الجهد أيضا حموه جبريل فى ملطية[1] ، وكان هذان الأخيران من قواد فيلارتوس نفسه ، كما أنهما بدءا حياتهما بالعمل فى خدمة الإمبراطورية البيزنطية .

كذلك كانت تعيش فى منطقة طوروس جاليات أرمنية استطاعت أن تظل بمأمن من الاضطرابات التى تعرّض لها أخواتها فى النواحى الأخرى ، كما أن طبيعة إقليمها الجغرافية جعلتها بمنجاة من هجمات السلاجقة الروم ، وتهيأ لهذه الجالية أمير من جنسها اسمه أوشن Oshin بن هيثوم ، تمكّن من أن يحظى بتأييد بيزنطة وهو فى معقله المنيع المشرف على جبال طرسوس وسهول كيليكيا ، واستغل أوشين اضطراب أحوال السلاجقة عام ١٠٩٧ بمناسبة مقدم الجيوش الصليبية وتمكّن فى غير عسر من احتلال قسم من مدينة أدنة .

تلك كانت أوضاع الجاليات والإمارات الأرمنية غامة وقت مقدم الصليبيين إلى آسيا الصغرى عام ١٠٩٧ .

* * *

لقد رأينا أن إحدى القوات الصليبية التى اتجهت إلى تلك النواحى الأرمنية كانت بزعامة بوهيمند النرمندى وبلدوين دى بويون ، والواقع أن الأخير كان شديد الاهتمام بالزحف على تلك النواحى ، فلقد تجمّع لديه من المعلومات — وهو لا يزال فى نيقية — الشىء الكثير الذى حرّك أطماعه لتحقيق تكوين إمارة مستقلة لنفسه ، ومكنته الفرصة وهو فى نيقية كذلك أن يتصل برجل واقف على مجريات الأمور فى تلك النواحى وأحوال

(١) راجع مقالة « ملطية » فى الدائرة .

الجاليات الأرمنية ذلك هو بغراث Bagrat الأرمنى[١] الذى توثقت الصداقة بينه وبين بلدوين الذى راح يستفسر منه عن أحوال الأرمن وأوضاعهم وميولهم نحو حكامهم ، وليس من شك فى أنه قد استلفت نظره كثرة الإمارات الأرمنية واستقلال كل منها عن الأخرى ، ناهيك إلى ما كان الكثير منها إذ ذاك يمر به من دور الضعف .

ألمَّ بلدوين سماعا بأحوال الأرمن وكان خير نهاز للفرص ، ولم تكن فكرة ذهابه إلى أرمينيا والانشعاب عن الهدف الرئيسى للحملة بالأمر الطارىء عليه ، ونخطىء التقدير إذا أرجعنا ذلك إلى المصادفة وحدها بل ونظلمها فليس للمصادفة دخل مافى هذا التوجيه . لذلك ما كاد تنكريد يصرّح وهو فى هرقلية بعزمه على الانفصال عن الجيش والذهاب إلى كيليكيا حتى وقف بلدوين إلى جانبه وإن لم يعلن ذلك جهراً ، وانفصل تنكريد عن الجيش الرئيسى فى ثلة من المحاربين قوامها مائة فارس وضعفهم من المشاة فى ١٥ سبتمبر ، ومن ثم نهض بلدوين وبصحبته ابن عمه بلدوين ذى بورج ولكنه خرج فى جيش ضخم نسبيا إذ اشتمل على خمسمائة فارس وألفين من المشاة ، وخلّف وراءه زوجته وطفليه ولم يستصحب إلا كل قادر على حمل السلاح ، لكنه لم يستطع اللحاق بتنكريد فقد كانت المسافة الزمنية الفاصلة بينهما تقدر بثلاثة أيام .

كان تنكريد فى هذه الأثناء قد زحف على طرسوس بكيليكيا التى كانت بها حامية سلجوقية وإن كان سكانها من الأرمن واليونان الذين اتصلوا سراً بتنكريد يستنصرونه على السلاجقة ويمهّدون له السبيل فى الاستيلاء

(١) Albert d' Aix , p . 350 seq .

على المدينة ، ولكن قوات تنكريد لم تكن كفؤاً لمنازلة الخصم ، وسرعان مابعثت تتعجل قوات بلدوين لتقدم إليها ، فما بدت طلائعها حتى فرّ السلاجقة تحت جنح الظلام ، فلما أشرق الصباح وعرف خلوّ القلعة ممن يدافع عنها فتح أرمن طرسوس أبواب مدينتهم لتنكريد — وكانوا أميل إليه من غيره كما يقرر أحد مؤرخى الصليبيين[1] — وسألوه أن يدخل هو وعسكره البلد وأن يرفع أعلامه على أسواره ، وكان تنكريد هو الآخر على اتصال سرى بأهل البلد . وهكذا كان كل من القائدين الصليبيين يعمل لحسابه الخاص ، ونسى كلاهما تخليص بيت المقدس والضريح وكنيسة القيامة وكل الأغراض الدينية التى خرج « فقراء المسيح » من أجلها من أوربة .

لم يكن من اليسير على تنكريد تحقيق هذه الرغبة لا لعدم حرصه عليها ، بل لأن ما انطبع عليه بلدوين من طمع فى توليه الأمور واعتماده على قوة جنده لابد وأن يفسد عليه ما يتمناه ، فأنكر الأمر على تنكريد واضطره لمغادرة طرسوس قاصداً أدنة ، وما كان لتنكريد إلا أن يركب هذا المركب الكريه إلى نفسه نظراً لضآلة جيشه إذا قيس بجيش منافسه بلدوين .

خلصت طرسوس لبولدوين ، وما كاد يدخلها حتى طرقت أبوابها فئة من النرمنديين قدمت أصلا نجدة لتنكريد فلم تجده بطبيعة الحال ، ووقف بلدوين منها موقفا شاذًّا حين رفض الإذن لها بدخول المدينة خوفاً من أن تحدثها نفسها باحتلال القلعة ومدافعة جنده عنها ، ومن ثم رابطت خارجها فوثب عليها فريق من الترك السلاجقة وقتلوا رجالها عن بكرة أبيهم ،

(١) Ibid ., p. 344 ; Guillaume de Tyre , p. 140 .

فكان ليل وكان صباح تنفّس عن جثث لا حراك بها علقت دماؤها فى عنق بلدوين .

غير أن نجدة أوربية جاءت لبلدوين على غير انتظار ، وكانت هذه النجدة فى الواقع بحرية بقيادة أحد أبناء جلدته ممن يحترفون القرصنة فى البحار الشمالية واسمه جينمار البولونى[1] الذى جمع فئة من البحارة الدانيمركيين والفلاندريين قدم بهم إلى تلك الناحية بعد رحلة طويلة شاقة . فما كاد يصل إلى طرسوس حتى أعلن ولاءه لبلدوين الذى قوى به عضده

* * *

لم يكن بلدوين يتوقع هذه النجدة التى أسعفته بها العناية فى وقت كان أحوج ما يكون فيه إلى مثلها ، وزاد من أهميتها أن رئيسها أعلن تبعيته له باعتباره أخاً لمولاه جودفروى دى بويون ، فاطمأن بلدوين إليهم .

رتب بلدوين خطته بعدئذ على احتلال المناطق التى يسكنها الأرمن وتوحيدها جميعها تحت سلطانه ، وكره بطبيعة الحال أن يظهر له منافس مافى تلك المنطقة لاسيما ومنافسه أوربى مثله ، لذلك قصد أدنة .

وكان تنكريد — كما رأينا — قد رحل إلى أدنة بعد انفصاله عن بلدوين فى طرسوس ، ثم تابع زحفه حتى بلغ المصيصة فى أكتوبر ١٠٩٧ حيث رحب به سكانها الأرمن ورأو فيه مخلصا لهم من الترك السلاجقة ، فدخلها ، غير أن بلدوين مالبث أن ظهر أمام أبوابها فتعقدت الأمور بين الزعيمين الصليبيين ، ورفض تنكريد أن يأذن لبلدوين بدخول المصيصة مما حمل

(١) Riant , Les Scandenivians en Terre Sainte , p . 134 .

بلدوين على أن يعسكر خارجها ، وكأنما أراد تنسكريد ورجاله أن ينتقموا لجماعة النرمنديين الذين كان بلدوين سببا فى هلاكهم عن آخرهم أمام أبواب طرسوس على يد السلاجقة ، فكروا على جند بلدوين كرة لم يكتب لهم فيها النجاح لكثرة حشود بلدوين .

وقف الأرمن عن كثب يشاهدون النضال العنيف بين زعماء الحملة الصليبية وأدركوا أن المطامع الشخصية عند هؤلاء الزعماء هى التى تحركهم ، ولم يخف ذلك بطبيعة الحال على تنسكريد وبلدوين اللذين أدركا أن خيرهما فى أن يتوطد السلم بينهما ويحل محل القتال ، وتطلعا بعين المستقبل فوجدا أن الشرق أوسع من أن يضيق بأطماعهما وطموحهما لاسيما وهما فى بداية الطريق ، فنبذا الخصومة جانباً ومد كل منهما يده للآخر ، ورحل بلدوين لينضم إلى الجيش الصليبى الرئيسى فى مرعش والذى كان فى طريقه إلى أنطاكية .

لم يكن ذهاب بلدوين إلى الجيش الصليبى يحمل معنى الانضمام الحربى ، بل الواقع أن هناك ظروفاً معينة أملت عليه هذا الرحيل ، منها ما ترامى إلى سمعه من مرض زوجته وأطفاله ، وما أصيب به أخوه جودفروى من جرح ناله فى أثناء صيده فى الأحراش ، لذلك لم يطل مقامه مع الصليبيين بعد موت زوجته ، وانكفأ راجعاً إلى الشرق يتابعه إلحاح صديقه بغراث الأرمنى وطمعه الذاتى فى تكوين إمارة لنفسه بين جماعات الأرمن فى مناطق الفرات الأعلى ، وهاجم تل باشر واستطاع استخلاصها من يد السلاجقة ، وصحبه فى هذه الحملة المؤرخ فوشيه دى شارتر[١] .

---

(١) Foucher des Chartres , p . 210 .

وليس يعنينا هنا تتبع أخبار تنكريد[١] ولكن يهمنا موقف بلدوين باعتباره خاصا بالكلام عن أرمينيا عامة والرها خاصة .

لقد برهن موقف تنكريد وبلدوين إزاء بعضهما على حقيقة دامية من وجهة النظر الصليبية هي استحالة إقامة إمارة لأحدهما فى كيليكيا بعد أن شاهد أرمنها ما كان بينهما من نزاع ، أضف إلى هذا أن تلك الناحية قريبة من موطنى الخطر عليهما وأعنى بهما القوة البيزنطية والقوة السلجوقية .

وعلى ذلك فكّر بلدوين فى البحث عن ناحية أخرى تمكنه من أن يكون بها سيدا إقطاعيا وصاحب إمارة بعد أن حرم من ذلك كله فى وطنه ، وتلفّت حوله فوجد بجانبه بغراث الأرمنى الذى كان يزكى فيه أطماعه ، ولا يستبعد أن يكون لبغراث هذا يد فى توجيه بلدوين شطر الرها ، لذلك ما كاد يصل إلى عينتاب حتى اتجه ناحية الشرق وتخلّى عن الاتجاه إلى الجنوب الغربى ، ويقال إن توروس أمير الرها أنفذ إليه رسالة يطلب منه فيها الوقوف إلى جانبه[٢] .

والواقع أن الاتصال بين الأرمن وبين الغرب الأوربى أقدم من تاريخ مقدم بلدوين ، إذ كانوا يطمعون فى أن تأتى إليهم نجدة من المسيحية الغربية تعينهم على الاستقلال حيث هم حتى يكونوا بمنجاة من البيزنطيين والسلاجقة على السواء[٣] .

---

(١) الواقع أنه غادر المصيصة بعد رحيل بلدوين عنها وإن ترك بها حامية صغيرة وقصد الأسكندرونة بعد أن استقدم إليه جينار واقتحماها ثم رحل للانضمام للجيش الصليبى فى زحفه على أنطاكية راجع .Guillaume de Tyre , p . 149

(٢) Stevenson , Grusaders in the East , p . 22 .

(٣) Runciman , Hist . of the Crusades , vol . I, p . 203 .

وقعت هذه الدعوة على أية حال من نفس بلدوين الفارس الصليبي موقع الرضاء والغبطة ، وتلقاها بنفس مستبشرة ، وأذكت فيه مطامع الفتح والإمارة ، ورأى بعين الغيب نفسه أميراً مستقلا ، ولعله سأل بغراث الأرمنى فأنبأه أن ليس لتوروس ولد يخلفه على العرش[١] .

تابع بلدوين زحفه يقاتل بقايا السلاجقة واحتل قلعتى راوندان وتل باشر ، فأقام فى الأولى صديقه بغراث الأرمنى ، إذ كانت هذه القلعة تشرف على الطريق المؤدّى إلى أنطاكيـة ، وعهد بتل باشر إلى أرمنى آخر اسمه فير Fer [٢] ، وبهذا أخذت سياسة بلدوين تصطبغ بالصبغة الأرمنية وكانت تلك براعة استهلال منه ، فقد تمـكن بهذه الوسيلة من أن يوقر فى الأذهان أنه الصديق الصدوق للأرمن حين آثرهم بمفاتيح المسالك والدروب على زملائه فى السلاح والدم من الصليبيين .

ساعدت الظروف بلدوين فقد سمع توروس إذ ذاك بأن قوام الدولة كربوغا صاحب الموصل[٣] يعد جيشا ضخما لنجدة أنطاكية ومحاربة الصليبيين ، وأنه لابد قاضٍ فى طريقه على إمارة الرها ، وخشى مغبّـة هــذه الحركة العراقية من القضاء على إمارته ، ولم يكن توروس بالقوىّ الذى يستطيع مقاومة قوات الموصل ، كما كان يخشى فى الوقت ذاته تحرّك الفئات الأرمنية الـكارهه له[٤] ، فأنفذ إلى بلدوين سفارة من لدنه تستحثه على القدوم لنجدة

(١) Documents Armeniens, pp. 25 & 35 ; Foucher des Chartres, t. IV, p. 338 ; Guillaume de Tyre, p. 156.

(٢) Albert d' Aix, p. 350.

(٣) راجع عنه الـكامل لابن الأثير (طبعة مصر) ج ٨ ص ١٨٠

(٤) Matthiew d' Edesse, pp. 218 - 220.

الرها ، ولما كانت هذه السفارة تدرك مطامع بلدوين فقد تقدمت إليه بعروض تحلّب لها شدقاه إذ أخبرته أن توروس يسعده أن يتبنّاه ويجعل منه وريثا لعرشه ، لاسيما وهو غير منجب وقد تقدم به السن ؛ وكان معنى هذه العروض أنه قد آن للفارس الشريد أن تساق إليه الإمارة فى بلد نصرانى فلا يلقى من المكايد وانشغال البال واضطراب الأمور ما قد يجده هو أو سواه لو كان فى غير هذا البلد .

طبيعى أن يرحب بلدوين بهذه العروض ومن ثم رحل من تل باشر فى فبراير سنة ١٠٩٨ ميمما شطر الرها الأرمنية التى دخلها فى ثمانية من فرسانه ، فتلقاه أرمنها صغيرهم وكبيرهم بالترحاب ، وخف لاستقباله توروس الذى لم يكن يدرى أنه قد حفر قبره بيده ، فأقام حفلا أعلن فيه تبنيه بلدوين الذى تجرد من ثيابه حتى زناره ، ثم ألبسه توروس قميصا كان عليه ، وتدانيا بعضهما من بعض وحكّ كل منهما صدره بالآخر ، وفعل بلدوين مثل ذلك مع زوجة توروس إظهاراً للبنوة [١] .

فرغ بلدوين من الترحيب بالفارس الصليبى المخاطر الذى انصرف لتكريس جهوده الحربية لخدمة الرها ، أو بوجه أدق لخدمة مصالحه الذاتية وتثبيت مركزه الجديد بها وتأمين أهلها وحدودها ، وذلك بالزحف على سميسطاء التى كانت شوكة فى جانب الجماعات الأرمنية ، وكان توروس هذا هو الذى أشار عليه بهذا الهجوم لكثرة تعدى أهلها المسلمين على أهل بلده ، غير أنه نجدة جاءت لسميسطاء أدت إلى ملاقاة الكثيرين من الجيش الأرمنى مصرعهم

(١) Foucher des Chartres , pp . 11 - 12 .

فى هذا الزحف ، على أن المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يلقى تبعة هذه النكبة على الفرنجة (١) .

قبل توروس مشاركة بلدوين إياه ، على أن هـذه المشاركة لم تلبث أن أنضجت مطامع الفارس الصليبى فى الاستقلال بشئون الولاية دون أن يكون إلى جانبه أحد ما حتى ولو لم يكن له من السلطان شىء ، وإلا فكيف نفسّر قيام جماعة من الأرمن بالثورة والتمرد على أميرهم توروس يوم ٧ مارس ١٠٩٨ ؟

وإذا قيل إن علة ذلك ترجع إلى استعانته ببلدوين فكيف نعلّل مطالبة الثوار أنفسهم بأن يتولى بلدوين الأورفى حكمهم ؟ . . . إن مجرى الحوادث يدل على أن بلدوين هو المدبر للفتنة ، إذ أى حق يخول له أن يقف وسط الثوار فى الكنيسة وأن يقسم لتوروس وزوجته بالمحافظة عليهما وهما فى طريقهما إلى ملطية التى اختاراها منفى لهما ؟

ألم يكن الواجب يقتضيه — وقد أنزله توروس منه منزلة الإبن — أن يرد عنه عادية المتمردين ؟ أو لا أقل من أن يبذل جهده فى المحافظة على حياته وفاء باليمين المقطوعة ؟ . . . هذه الأسئلة وأمثالها ترد على الخاطر حين نساير الحوادث الجافة فنقول إن توروس اغتيل على يد الثوار بعد يومين فقط من الفتنة ، وانفرد بلدوين وحده بالأمر فى الرها ، على أنه أراد أن يكسب هذه التولية الصفة الشرعية فسار فى تمثيل الرواية تمثيلا عجيبا ، إن وجد من مؤرخى عصره — أمثال ألبرت ديكس — من رواها كحقيقة مفروغ منها ، إلا أنها

(١) Matthiew d' Edesss , pp . 36 - 7 ; Albert d' Aix , p . 353; Guillaume de Tyre , pp . 157 - 8 .

لاتستقيم مع النقد ، وما تأثر القارىء بها فى مظانها الأولى إلا بمقدار تأثر المشاهد لتمثيلية عنيفة يندمج مع أبطالها وهم يغدون ويروحون أمامه على المسرح ، ثم لايلبث أن يعود إلى نفسه عقب الفراغ منها . ويعلل بعض المؤرخين أن أهل الرها كرهوا استبداد توروس ؛ ولم يقدم لنا هذا البعض دليلا على طغيانه ، ومن ثم فكروا في التخلص منه وسوق الحكم لبلدوين ليدفع عنهم الخطر السلجوقى ، ويشير المؤرخ الصليبى إلى موقف النبل — وما أعجبه — من جانب بلدوين حيث رفض أن يذهب معهم لقتل توروس ، الأمر الذى ينهض دليلا — وإن فات مؤرخه — على أن لبلدوين علما سابقا بما دبر(١) .

إن الذين يبرءون ساحة بلدوين من الإسهام فى تدبير المؤامرة منذ البداية ومن مقتل توروس يقولون إن الذين اشتركوا فى هذا الاغتيال كانوا كلهم من الأرمن وليس فيهم أحد من الفرنجة .

ومهما يكن الأمر فقد تمكن بلدوين من تثبيت قدمه فى الرها ، وأقسم أهلها يمين الولاء له ، وإذ ذاك أراد أن يبرهن لهم على حسن اختيارهم إياه ، فاشترى سميسطاء من أميرها التركى بعشرة آلاف دينار ، وأطلق أسرى الرها الذين كانوا فى قلعتها .

---

(١) Albert d ' Aix , p. 354 seq. وإنه ليجعل عنوان فصله الثانى والعشرين كالآتي: "Conspirate plebis consilium in ducem suum Baldewinus reprimere volens, nil proficit". ويلاحظ أن هـذا المؤرخ يحاول تبرير موقف بلدوين ، فيقدم من الأحداث مالا يصعب معه على الناقد أن يرى بين السطور يد بلدوين تحرك شخصيات الفتنة ، ويخرج منها ملوث اليدين بدماء تورس ، وإن أخفاها فى قفاز ينم عما تحته ، وهذه الحوادث واردة بالتفصيل فى Math. d' Edesse, op. cit.p, 37 - 38.

كانت سياسة بلدوين تهدف إلى توثيق العلاقات بين جماعات الأرمن والصليبيين على ألا ترقى إلى وضع مقاليد الأمور فى البلد بأيدى أصحابه الشرعيين ، وكان فى الوقت ذاته يخشى أن تتحرك عوامل الوطنية فى نفوسهم فيتمردون عليه ، ورأى أن خير وسيلة لذلك إنما هى موازنة العنصر الأرمنى بجماعات أوربية يصطنعها فى فروع الإدارة المحلية المختلفة ، وترامت أخباره إلى أسماع الصليبيين فى أنطاكية فجاءه بعض ساداتهم ليكونوا فى خدمته[١] ، ولم يضن هو عليهم بالمال أو السلاح أو الهدايا ، وعمل على تقوية هذا العنصر الصليبى كى يشد أزره ، فأشار عليهم بالزواج من أرمنيات لتقوى العلاقات الودية بين عنصرى الدولة الجديدة ، وضرب لهم من نفسه مثلا يحتذى فاقترن بابنة أحد كبار رجالات الأرمن[٢] يختلف المؤرخون حول اسمه ومكانته وإن رجح البعض أنه يدعى ثانول[٣] .

إن الناظر لهذه السياسة الجديدة التى اتبعها بلدوين - وقد استقل بالإمارة دون منافس أو شريك - ليلحظ فيها محاولته العمل على تعاون الأرمن والصليبيين فى تسيير دفة أمور البلد ، ولكن الواقع كما يبدو لنا أنه أراد موازنة العنصر الوطنى بالعنصر الأوربى ، وهذا هو الشق الخطير من تلك السياسة ، فأحاط نفسه بالمقدمين الصليبيين ، ولم يفت الأرمن ما تنطوى عليه تلك السياسة من شل أيديهم ، فلم يرحبوا بها بل نظروا إليها نظرة الكراهية لاسيما وقد أفصح الكونت الصليبى عن نواياه حين اتخذ من هؤلاء الصليبيين مشاورين

(١) Albert d' Aix , pp. 441 - 2.

(٢) Ibid., p. 361.

(٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة « مرعش »

له وأقصى الأرمن عن الحكومة ، وأغدق على أولئك الوافدين الأموال الجمة وأقطعهم الأراضى الواسعة ، فكوّنوا طبقة أرستقراطية دخيلة على البلاد ، فلاعجب إذا تخشنت صدور الأرمن على الصليبيين واحتكت الغيرة فى نفوسهم منهم[١] .

كره الأرمن من بلدوين نزعته فى إيثار الفرنجة عليهم فى معظم الإدارات والوظائف المدنية والحربية ، وترجموا عن كراهيتهم لسياسته بتدبير مؤامرة لاغتياله ، وليس أدلّ على هذه الكراهية من أن ثاتول — أبا زوجته التى كان قد اقترن بها منذ بضعة أشهر — كان ضالعاً من المتآمرين ، ونمى خبر هذه المؤامرة إلى بلدوين فأخذ مدبريها أخذ جبار منتقم ، فألقى القبض على المتآمرين ومثل بهم غداة عيد ميلاد ١٠٩٨م وسمل أعين البعض وجدع أنوف آخرين ، وصادر كثيراً من أملاكهم وأموالهم ، وفرض على بعضهم غرامات كبيرة ، فهدأت الأحوال واستقرت الأمور ؛ أما ثاتول فقد أدرك أن خيره فى البعد عن الرها[٢] .

* * *

(١) على أن مسألة عارضة جدت ولم تكن فى الحسبان تلك هى أن الأمير نور الدولة بلك ابن بهرام بن أرتق طلب من بلدوين أن يؤجر له رجاله لاسترجاع سروج إلى طاعته ، فرحب بلدوين بهذا الاستنجاد ، غير أن أحداثاً جرت أدت ببلدوين إلى احتلال سروج فى يناير ١١٠١ ووضع بها حامية صليبية بقيادة المؤرخ فوشيه دى شاتر Matthiew d' Edesse p. 53 et note I. ولكنه اتبع مع مسلميها سياسة التسامح الدينى مما أنكره عليه البعض ، راجع Albert d' Aix, p. 357 على أننا لانجد لهذه الوقعة ذكراً فى كتابات مؤرخى المسلمين ، غير أن هذا الصمت لا يقف حائلا دون الاعتراف بما جرى .

(٢) Albert d' Aix, pp. 442 - 3.

، هكذا أسدل الستار على أول فصل من فصول الحملة الصليبية التى كشفت القناع عن أن الفكرة الدينية لم تكن هى التى تحرك هذه الجماعات الأوربية التى زعمت أن تخليص بيت المقدس هو هدفها .

وإن تاريخ الرها ليدل على أن أهلها المسيحيين والأرمن لم يصادفوا من الاضطهاد والقتل مثل ماصادفوه خلال العام الذى تولى شئونهم فيه بلدوين الفارس الصليبي والمسيحى الأوربى .

الفصل الرابع

الصليبيون فى أنطاكية

مناعة أنطاكية . المسلمون وأنطاكية . المجاعة فى صفوف الصليبيين . موقف تاتيكيوس البيزنطى . السفارة الفاطمية إلى الصليبيين . نجدة كربوغا الموصلية . خيانة فيروز . الحربة المقدسة . دخول الصليبيين إلى المدينة .

كان الجانب الأكبر من الجيش الصليبى يزحف ناحية الجنوب من آسيا الصغرى ، ويتألف — كما عرفنا — من جميع كبار أمراء الحملة ومعهم أديمار دى مونتل نائب البابا الذى قام بدور فعال فى القتال كما سنرى .

كانت أنطاكية أكثر المدن تحصينا ، عنى بها البيزنطيون عناية فائقة طول مدة بقائها تحت سلطانهم (٩٦٩ — ١٠٨٥ م) ، ففيها ما يقرب من أربعمائة حصن وبرج ، هذا إلى قيام المرتفعات التى تحتضنها وتجعل اقتحام المغير عسيراً كما يتبين الناظر إلى الخريطة ، وقد وصفها ابن بطلان فى رسالة أنفذها سنة ٤٤٣ هـ إلى أبى الحسين هلال بن محسن الصابىء بقوله : « لها سور وفسيل ، ولسوره ثلثمائة وستون برجا يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس . . . وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم دائرة ، وفى رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من الجبل صغيرة ، وهناك من الكنائس ما لا يحدّ ، كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملوّن والبلاط المجزّع[1] » ، ناهيك إلى أنها كانت عزيزة

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥

على نفوس المسيحيين فقد أقام فيها القديس بطرس أول أسقفية له .

تعاور حكم أنطاكية كثير من الشعوب والأجناس فى مدى تاريخها الطويل ، لكنها كانت فى أكثر أحيانها مركزا من مراكز التجارة بين بلاد الشام والخارج ، وعلى أرضها التقى العرب واليونان فى القرن الحادى عشر حيث ظلت حتى سنة ١٠٨٥ فى يد الدولة البيزنطية ، ثم انتزعها المسلمون بقيادة سليمان بن قتلمش الذى « شرع فى سنة ٤٧٧ هـ فى العمل على مدينة أنطاكية والتدبير لأمرها والاجتهاد فى أخذها والتملك لها ، ولم يزل على هذه القضية إلى أن تمّ له ما أراده فيها وملكها سرقة ، ورتب أمرها بمن اعتمد عليه فى حفظها من ثقات ولاته[1] » وإن كان ابن الأثير[2] يذكر أن شحنتها كاتَبَ ابن قتلمش فى الاستيلاء عليها ؛ وليس من شك فى أن المسلمين كانوا يدركون أهمية أنطاكية الحربية وسيطرتها على الطرق الحربية والتجارية بين الداخل والخارج ، وكان لفتحها صدى ضخم فى بلاد الإسلام، فكتب الأبيوردى قصيدة مطلعها :

لمعت كناصية الحصان الأشقر ... نار بمعتلج الكثيب الأعفر
وفتحت أنطاكية الروم التى ... نشرت معاقلها على الاسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانثنت ... تلقى أجنتها بنات الأصفر[3]

فلما مات سليمان بن قتلمش ولى حكومتها الأمير ياغى سيان التركمانى نيابة عن ملكشاه الذى ظلت له السيادة على أنطاكية حتى انتقلت بموته إلى رضوان

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٣٦
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٣٦

صاحب حلب فى الوقت الذى أخذ فيه الصليبيون يستعدون للقدوم إلى الشرق ، وكان أخوه دقاق صاحب دمشق ، ولكن كانت بين الأخوين منازعات ظلت تطل برأسها حتى فى الوقت الذى كانت فيه الظروف تتطلب توحيد الجهود .

لم يكد ياغى سيان يشعر بالخطر الصليبى حتى أرسل مستنجداً بأمراء الشام والموصل ، فتلكأ رضوان صاحب حلب فى إرسال النجدة إنتقاماً من ياغى سيان لوقوفه إلى جانب أخيه دقاق ضدّه فى السنة المنصرمة(١) .

كما بعث ياغى سيان ابنه شمس الدولة إلى حليفه دقاق أمير دمشق الذى أخذ يعدّ العدّة فى جمع النجدة إسعافاً لأنطاكية . على أن الذى أدرك خطورة التقدّم الحربى الصليبى فى هذه المنطقة هو قوام الدولة أبو سعيد كربوغا صاحب الموصل ، إذْ رأى بثاقب نظره أنّ تمكن الأوربيين الغربيين من أنطاكية أوغيرها من بلادالشام لابد وأن يحملهم على مد نفوذهم وسيطرتهم الحربية على كثير من نواحى العالم الإسلامى وعلى العراق ذاته ، أضف إلى هذا أنه رأى فى نجدة أنطاكية بقوّاته حصراً لقوات رضوان صاحب حلب ؛ ولم يقصر ياغى سيان من ناحيته فأخذ فى تحصين المدينة وجمع الأقوات والذخيرة داخل قلعتها وترميم أسوارها(٢) .

جاء الصليبيون إلى ضواحى أنطاكية وخرجت كتيبة منهم بقيادة روبرت كونت فلاندر ومضت إلى أرتاح التى وثب مسيحيوها على حاميتها وفتكوا(٣)

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣١ — ١٣٢

(٢) ابن العدم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٧٨ — ٥٨٩

(٣) شرحه ، ص ٥٧٨ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤

بها ، وبذلك أدرك المغيرون أنهم واجدون جماعات تؤيدهم من الداخل ولم يفتهم ذلك منذ البداية فعوّلوا على الاستعانة بهم .

كانت بأنطاكية عناصر مسيحية هي السريان واليونان الأرثوذكس والأرمن اليعاقبة ، وكان السريان لا يضمرون شيئا من الود للعنصرين الآخرين من الناحية المذهبية ، ولم يكن ياغي سيان ينظر إلى هذه الجماعات كلها نظرة الاطمئنان والثقة فى الوقت الذى كان الصليبيون فيه على وشك الهجوم على أنطاكية .

أما المهاجمون فقد اجتمع زعماؤهم فى مجلس للتشاور فى أخذ أنطاكية ، وانقسموا إلى فريقين أحدهما برياسة كونت صنجيل والآخر على رأسه بوهيمند ، ولم يكن أحد هذين الزعيمين يطمئن إلى الآخر ، بل لقد رأينا اختلاف وجهة نظر كل منهما عن الآخر منذ أن كانا بالقسطنطينية فى حضرة الإمبراطور ، وكاد اختلافهما إذ ذاك يؤدى إلى محاربة بعضهما البعض .

كان من رأى كونت صنجيل أن يبادر الصليبيون إلى دك أسوار المدينة ، وبذلك يضيّقون الخناق على حاميتها ، ومع ما فى هذا الرأى من وجاهة إلاّ أنه عورض معارضة شديدة بفضل نفوذ خصمه بوهيمند الذى سفّهه ، فقد رأى التريّث حتى تنضم قوات تنكريد النرمندى القادمة من إسكندرونة ، ولعلّ الظروف تواتيهم بمقدم الأسطول الجنوى وما ترامى إلى الأسماع إذ ذاك من اعتزام ألكسيس كومنين المجىء بنفسه على رأس قواته للوقوف إلى جانب المغيرين ، ولم تكن معارضة بوهيمند لرأى ريموند صادرة عن إخلاص للصالح الصليبى العام بقدر ما تبعث عليها أطماعه الشخصية ، ذلك

أنه كان يطمع أن تكون أنطاكية خالصة له دون سواه ، وكان يدرك أن اتباع خطة ريموند ينطوى على خطرين من وجهة نظره الخاصة ، أولهما أن الفتح بهذه الصورة فتح جماعى يكون قد اشترك فيه القادة الصليبيون كافة ، وحينذاك لا يتأتى له أن يطالب بامتلاكها لنفسه ، وثانيهما أنها إذا صارت له فإنه لا يحب أن يراها خربة منهوبة ، ولذلك رأى أن يعيق حركة الفتح الجماعية ويستقل هو بذلك حتى تكون له تكئة شرعية فى الاستحواذ عليها لنفسه ولو نائبا عن الإمبراطور البيزنطى .

كانت خطة بوهيمند إذن ترمى إلى تأجيل الفتح وبذلك تتاح له فرصة طويلة من الوقت يعمل خلالها على الاتصال بالحامية — إن أمكن — والمسئولين فى المدينة ، وهذا ما فعله فى الواقع .

كانت هناك جماعة من السريان المسيحيين تتمع بحرية الدخول والخروج من أنطاكية وتتردد بين المعسكرين المتقاتلين ، ويشير صاحب الجستا [١] إلى هؤلاء السريان بل والأرمن ، فيقول إنهم — وقد كانوا داخل المدينة — « دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار والمجىء إلينا بينما بقيت نساؤهم فى المدينة ، وكانت عادتهم أن يتقصّوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شىء إلى أولئك المحصورين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها » ، ويذهب صاحب الجستا أكثر من ذلك فيزعم أن هؤلاء البلديين الوافدين على معسكرات إخوانه كانوا يهدفون لتقصى أحوالهم ثم يحملونها إلى ياغى سيان ، وهكذا حامت الشبهات من الجانبين حول موقف الأرمن والمسيحيين عامة ،

---

(١) أعمال الفرنجة ، ترجمة حبشى ، ص ٥٠ س ١٠ — ١٤

وقد يكون من الطبيعي أن يتسرّب الخوف إلى نفس ياغي سيان من هؤلاء الأرمن ، وحينذاك يصحّ مايقال عنه من إخراجه إياهم من البلد ، وتفصيل ذلك أن ياغي سيان كان يخشى تمرّد المسيحيين داخل أنطاكية فعمد إلى حيلة عجيبة ، ذلك أنه أخرج جميع الذكور منها حتى لا يثبوا عليه من الخلف إذا جدّ الجدّ (١) .

ويزيد ابن الأثير (٢) على ذلك أن ياغي سيان أخرج « النصارى لعمل الخندق ليس معهم مسلم فعملوا فيه إلى العصر ، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم أنطاكية لكم ، فهبوها لى حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج ، فقالوا له ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا ؟ فقال أنا أخلفكم فيه . فأمسكوا وأقاموا فى عسكر الفرنج » ، ولم يكن ابن الأثير دقيقا فى تحديده أى الجماعات المسيحية هذه هى التى يشير إليها .

انقاد الصليبيون لرأى بوهيمند فى تأجيل الهجوم وطال وقوفهم خارج أنطاكية حتى انقضى الخريف وحلّ الشتاء ، فقلت المئونة والأقوات واشتد عليهم البرد ، وبذل ياغي سيان كل مايستطيع من جهد فى تقوية المدينة من الداخل ، ولكن الإمدادات الإسلامية لم توافه على حين أنها كانت على مقربة منه ، وكان فى إمكان أمراء حلب ودمشق الإسراع فى الزحف على الصليبيين وحصرهم بين جبهتيهم وجبهة ياغي سيان ، وهكذا كان تلكؤ النجدات الإسلامية معينا لأوربة الغربية فى احتلال بعض بقاع هذا الشرق .

---

(١) ابن الأثير : الكامل (طبعة أوربة) ج ١ ص ١٩٢ ، Chalandon, Histoire de la premiére croisade, p. 193.

(٢) ابن الأثير : الكامل (طبعة مصر) ج ٨ ص ١٨٦ .

أخذ الصليبيون يحسّون ماارتكبوه من خطأ فى الانتظار، فبادر بوهيمند — لكى يشغل قواته — بالهجوم على حامية حارم وحصنها الموصل بين حلب وأنطاكية ، وفاجأه على حين غفلة من المسلمين ، وأسر جماعة منهم قادهم إلى أنطاكية وقتلهم ، وليست أهمية هذه الإغارة فى أن الصليبيين قتلوا بعض المسلمين ، ولكنها تدل على ماهو أبعد من ذلك ، إذ تشير صراحة إلى تقوية عزائمهم وخروجهم من عزلتهم وأمنهم على ما بيدهم وتطلعهم لمضايقة المسلمين فى النواحى المجاورة ، كما أنهم لم يجدوا مقاومة تحد من غلوائهم ، وساعدته الظروف حين جاء فى اليوم ذاته (أى ١٥ نوفمبر) قوة جنوية بلغت ميناء السويداء أو سنت سيمون كما تسميه المراجع الغربيـــة[1] ، قوامها ثلاث عشرة سفينة حربية ، شحنت بالعتاد والذخيرة والسلاح والمقاتلة ، وكان معنى ذلك أن أصبح الصليبيون على اتصال بأوربة عبر البحر .

برهن طول الانتظار أمام أنطاكية على خطأ رأى بوهيمند ، فقد قلت الأقوات رغم ماجاءت به السفن الجنوية مما تشير إليه الجستا فى قولها ، إنه حدث قبل عيد الميلاد أن شح القمح وجميع المواد ، وأصبح الصليبيون لايجرءون على مغادرة المعسكر ، وفقدوا فى المنطقة المسيحية كل مايمكنهم أن يمسكوا به رمقهم[2] ، وأهمية هذا النص قائمة على أنه وصف شاهد عيان كان فى نفس المعسكر ، وكان واحداً ممن ألمت بهم المجاعة التى حملتهم على إعفاء فريق منهم من مهمة الحصار للقيام بنهب النواحى المجـاورة . ولقد عملت حامية أنطاكية الإسلامية على مساعدة العدو — عن غير قصد — فى تمكنه من

(١) Dussaud, Topographie Historique, p. 341.

(٢) أعمال الفرنجة ، ص ٥١

البلد ، إذ ظلت امداً طويلا بلا عمل جدى ، قانعة ببقائها فى الحصون والقلعة ، فأدرك الصليبيون من ذلك الموقف السلبي تخوف الحامية ، وشجعهم ذلك على مضاعفة الجهد ، ولعل قوتهم المعنوية زادت أضعافاً ، ومظهر ذلك انصرافهم بكل قواهم لبناء جسر من القوارب على نهر العاصى ، ولعل ياغى سيان كان يخشى فى الوقت ذاته تمرد الأهلين نظراً لما يعرفه فيهم من كراهيتهم له ، الأمر الذى لم يكن يخفى عليه ، وذلك لما جُبِل عليه من العنف الشديد إزاءهم ،[1] ثم اتسع مدى هذه الغارات التى كان سمتها السلب والنهب ، وانطوى هذا الاتساع على زيادة فرص تعرّضها لهجمات السلاجقة الذين كانوا ينزلون من قمم الجبال التى يعتصمون بها فيفتكون بالجماعات الصليبية ، وأراد بوهيمند تدارك هذا الخطر ودفْعه فأقام برجاً حصيناً فى الناحية التى يقيم بها وهى جبل مرقب عرف بحصن مالرجارد[2] .

كانت قلة الموارد الغذائية مشكلة المشكلات أمام الزعماء الصليبيين ، ورأوا أن النواحى المجاورة لمكان إقامتهم لم تعد تزرع أو تنتج ، ومن ثم اجتمع هؤلاء القادة فى مجلس خاص بهم وأخذوا يدبرون وسيلة لمعالجة هذا النقص الخطير فى عواقبه على الحملة بأجمعها ، فاتفقوا فيما بينهم على أن ينهض فريق من الجيش للزحف فى وادى العاصى شطر حماة على رأسه بوهيمند وروبرت كونت فلاندر ، وأن يسند هذا الفريق جماعة من العمال بغية الاستحواذ على كل مايصادفونه من الأقوات اللازمة لحفظ معنوية الجيش .

أما بقية زعماء الجيش فيبقون حيث هم أمام أنطاكية ، وقد أسقطوا

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٣ ص ٥٧٨

(٢) أعمال الفرنجة ، ص ٥١ ، Raimond d' Aguilers, pp. 242, 247

جودفروى من حسابهم فقد كان يعانى إذ ذاك مرضاً خطيراً أشرف معه على الموت ، ومن ثم لم يبق من القادة ذوى الخطورة سوى ريموند الرابع كونت تولوز ومعه أديمار أسقف بوى مندوب البابا .

كانت جماعات السريان الأنطاكية تتردد بين المعسكر الصليبى وداخل المدينة ، ومن ثم استطاعت أن تحمل نبأ انفصال فريق من المغيرين لجلب الأقوات ، ولم يكن ذلك الفريق بالقليل بل كان يقدر بعشرين ألف رجل فى المراجع الأوربية وبثلاثين ألف حسب الرواية الإسلامية[1] ، وهنا رأى ياغى سيان أن الفرصة مواتية له لمباغتة المحاصرين أو كما تقول الجستا[2] « خرج الترك أعداء الرب والمسيحية المقدسة الموجودون داخل أنطاكية لحراستها حين تراءى إليهم الخبر بأن السيد بوهيمند وكونت فلاندر متغيبان عن الحصار ، وقدموا واشتبكوا معنا فى قتال عنيف ، وكانوا يؤثرون مهاجمة النواحى الضعيفة ، ولما كانوا يعرفون تمام المعرفة أن هذين الفارسين الفطنين بعيدان عنا فقد صمموا على مهاجمتنا والقضاء علينا » ، لذلك تلبث ياغى سيان حيث هو ، حتى إذا اطمأن إلى خروج هذه القوات وأنها أصبحت بعيدة عن المدينة مسافة تقدر برحلة يوم كامل نهض فى جماعته وباغت الفرنجة ليلة ٢٩ ديسمبر تحت جنح الظلام ، وكان شد وجذب بين الطرفين أسفر عن قتلى كثيرين ، ومع أن هذه المعركة انتهت بارتداد ياغى سيان وجنده إلا أنها كبدت الصليبيين خسائر ليست بالقليلة .

فى هذه الأثناء كانت النجدة الإسلامية بقيادة دقاق أمير دمشق وأتابكه

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ص ٥٢ ، س ٦ ، ابن القلانسى : الذيل ص ١٣٤ .

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ص ٥٣ .

طغتكين قد بلغت حماة ، وانضافت إليها جماعات المجاهدين ثم تابعت الزحف إلى شيزر ، وهنا علمت أن جماعة الصليبيين (التى بقيادة بوهيمند وروبرت كونت فلاندر) على مقربة منها فرأت مواجهتها حيث هى فى قرية « ألبارة » التى كان الصليبيون قد بلغوها وفتكوا فيها تقدير خمسين رجلا[1] .

باغت المسلمون يوم ٣٠ ديسمبر مقدمة الفرنجة التى كانت تحت قيادة روبرت كونت فلاندر والتى كانت قد سبقت فرقة بوهيمند التى تدخلت فى الوقت المناسب وأنزلت خسائر ضخمة فى الأرواح بجيش دقاق مما حمله على الارتداد إلى حماة ، وهكذا أدت عجلة الجيش الإسلامى إلى منع النجدة عن أنطاكية[2] .

عادت جماعة بوهيمند وروبرت ولكنها لم تحصل على القوت والعلف الكافيين لإشباع هذا الجيش الضخم ومامعه من الخيول ، والتمس الصليبيون فى صيام ثلاثة أيام نجاةً لهم من تلك المجاعة الشاملة التى بلغت من الشدة حداً كان عدة من مات من جرائها سُبع رجال الحملة ، كما نفقت الجياد حتى لم يبق منها سوى سبعمائة حصان .

لقد كانت تلك المصيبة التى ألمَّت بالجيش الصليبى خيراً للأرمن والسريان ، إذ يحدثنا أحد مشاهدى العيان[3] من أنهم تجمعوا للتجول فى الجبال وفى الإقليم الذى تكلمنا عنه يفتشونها تفتيشا دقيقا ويشترون الحنطة والأطعمة ويرسلونها إلى المعسكر الذى كانت المجاعة العظمى قد ضربت أجرانها

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤

(٢) ابن العدم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٠

(٣) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٥٤ — ٥٥

عليه ، فكانوا يبيعون حمولة الحمار بما يعادل مئة وعشرين دنية ، فمات الكثيرون من رجالنا الذين عجزوا عن دفع هذا الثمن الفاحش الارتفاع » . ولم يكن ذلك الثمن ميسوراً إلا لقلة نادرة من كبار رجالات الجيش ، على أن هذا الموقف من الأرمن يمتدحه مؤرخهم متى الرهاوى[1] ويرى فيه عونا لولاه لكانت نكبة الصليبيين أشد وأدهى ، وحاول البعض التماس علة هذه المجاعة فأرجعها إلى ما ارتكبه الصليبيون من الخطايا والآثام[2] .

ليس من شك فى أن هذه المجاعة كانت داهية طخياء على الجيش ، ولم تقف عند حد موت البعض بل تعدتها إلى أعمال أدت إلى إضعاف الروح المعنوية ، وليس أدل على ذلك من أن بطرساً الناسك — زعيم حملة الرعاع — آثر الهروب هو وجماعة ممن طارت قلوبهم شعاعاً لولا أن تعقبهم تنكريد وأرجعهم إلى المعسكر الصليبي وهم فى أشد حالات الخزى والعار ، وعاد الصليبيون مرة أخرى يفسرون هذه الأحداث تفسيرا دينيا بغضب السماء عليهم من جرَّاء مباذلهم وعدم رعايتهم الطريق المستقيم ، فهم لم يعبّدوا طريق الرب كما ينبغى ، ورأوا أنهم تنكبوا سبيل المسيحية ، ألم يقل المسيح « أمى وإخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها » ؟ وتذكروا قوله إن الأرض والسماء تزولان ولكن كلامه لايزول » ، وعلى هذا الأساس أدركوا أنهم ارتكبوا من الخطايا ماجعلهم يشعرون معه بالخزى والعار ، حتى إننا لنرى انعكاس هذه الفكرة فى الحلم الذى رآه أحدهم قبيل عثوره على الحربة المقدسة كما سيأتى بعد .

---

(١) Matthiew d' Edessè, p. 217.

(٢) Foucher des Chartres, pp. 227 - 8 .

رأى الصليبيون مدى الخطر الذى يهددهم بعد أن لم يبق معهم أكثر من ألف فارس من أصحاب الجياد السليمة على حدّ رواية الجستا[١] ، وهنا بدت حنكة أديمار دى مونتل فى الاستنجاد بالغرب « لإرسال المؤونة لجند المسيح » .

ورأى الإمبراطور ألكسيوس أن تساهم قواته فى الفتح حتى يثبت حق الإمبراطورية فى الإمارة ، ومظهر هـــذه المساهمة هو إنفاذه قائده « تاتيكيوس » على رأس كتيبة بيزنطية ، وأشار تاتيكيوس على الصليبيين بخطة حكيمة هى المبادرة إلى احتلال المدن والحصون المجاورة ، ونصحهم بعدم التجمع فى بقعة واحدة حتى لاتجابههم مشكلة الأقوات ، لكنهم لم يستجيبوا لهذه النصيحة ، محولين على ذلك بعاملين : أولهما الشك فى نوايا تاتيكيوس ، ثم عدم قدرتهم على ذلك العمل .

* * *

كان الشك فى نوايا البيزنطيين : إمبراطورا وجندا وشعبا ، يسيطر على نفوس المحاربين الصليبيين ، وتجلى هذا حين انصرف تاتيكيوس القائد البيزنطى عن القتال ، مما قد يفهم منه عـــدم اهتمام البيزنطيين باسترجاع أنطاكية ، وبقى سر هذه العودة الفجائية خافيا عن التفسير .

لم يعد خافيا على أحد مبلغ التدهور المعنوى الذى نزلت إليه معنويات الجيش الصليبى من جراء المحن والغارات ونقص الأقوات ، وكان معنى ذلك عدم استطاعتهم الاستيلاء على قلعة أنطاكية وبالتالى عدم فتحهم إياها .

اختلفت التفاسير فى انصراف تاتيكيوس عن الوقوف إلى جانب

---

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٥٦ ، س ١ — ٢

الصليبيين ، فيذهب ريموند داجيل[1] المؤرخ إلى غضب تاتيكيوس على حلفائه لعدم أخذهم بوجهة نظره التى كانت تقضى بتشديد الحصار ، ولا يستبعد أن يكون القائد البيزنطى قد تقدم بمثل هذا الاقتراح ، غير أن حالة الجيش الصليبى إذ ذاك كانت تحول بينه وبين القيام بمثل هذا العمل الذى يتطلب مضاعفة الجهد ، وإذا كان هذا هو رأى ريموند داجيل فإن الجستا[2] يفسر موقف تاتيكيوس بخوفه مما ترامى إلى سمعه من أن جيوشا من السلاجقة كانت فى طريقها لمحاربة الصليبيين ومن ثم تلمّس الانفصال عن الجيش الفرنجى بحجة الذهاب والعودة إليهم بكل ما يحتاجونه من الذخيرة والأقوات ، ويتفق ألبرت ديه[3] مع الجستا فى أن تاتيكيوس وعد بالعودة ، كما يتفق مع الكثيرين فى أنه كان يدبر منذ البداية خيانة الفرنجة ، ومن ثم أقام معسكره فى طرف المعسكر الصليبى ليسهل عليه الفرار متى أراد وواتته الفرصة .

على أنه يقال إن تاتيكيوس ذهب فى معرض تبريره لرجوعه — وذلك فى دفاعه عن نفسه حين عاد إلى القسطنطينية — بأن بوهيمند أخبره ذات يوم بأن للإمبراطور دخلا فى معاودة السلاجقة الغارة على الصليبيين ومحاولتهم تخليص أنطاكية مما أثار حنق الفرنجة وحملهم على تدبير مؤامرة اغتيال الإمبراطور ، ومن ثم فإن تاتيكيوس تذرّع بالذهاب إلى قبرص لإحضار المؤنة وانفصل عن الجيش الصليبى ، وقد لا يستبعد صدور مثل

(١) Raimond d' Aguilers, pp, 254 - 6

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٥٦

(٣) Albert d' Aix, p. 416

هذا الرأى إذا فسرناه على أنه محاولة من بوهيمند للتقرب إلى الإمبراطور البيزنطى على حساب إخوانه فى السلاح .

على أن هناك رأيا آخر يعارض هذا كل المعارضة حيث يبين كراهية بوهيمند لوجود القائد البيزنطى بين القوات الصليبية ، إذ رأى فى وجوده ماقد يحول بينه وبين ما اتفق عليه الزعماء الصليبيون من تسليمه أنطاكية ، وأنه اتصل سرا بالقائد البيزنطى ، وأفهمه أن مولاه الإمبراطورقد اتفق مع سلاجقة الروم على إنفاذ جيش إسلامى دون أن يعنى بإخبار قائده ، ومن ثم فبوهيمند يرى نفسه مضطرا لمحاربته ، فخاف تاتيكيوس وتسلل بمن معه مدعيا أنه ماض لتزويد الجيش بما يحتاجه من المؤنة[١] ؛ غير أن الأخذ بهذه الفكرة يدعو إلى جعل مطالبة بوهيمند بعودته إلى أوربة سابقا لحادث انفصال تاتيكيوس عن الجيش الصليبى .

أراد بوهيمند استغلال رجوع تاتيكيوس لمصلحته الشخصية ، ويقال إنه أدرك أن الإمبراطورية غيرجادة فيما وعدته إياه من استعماله على أنطاكية ، ولم يفته تقدير الحقيقة الراهنة التى ينطوى عليها إرسال هذه الكتيبة البيزنطية ، وأدرك فى غير عسر أن هدف الإمبراطور من وراء ذلك إنما هو إبعاد القوات الصليبية عن أنطاكية أو بمعنى أدق إبعاد بوهيمند ذاته عن الإمارة وردها إلى بيزنطة ، ومن ثم أجمع أمره على الخروج عليها والنكث بعده لها،

---

(١) Raimond d' Aguilers, p. 245 seq. ، أما فيما يتعلق بمناقشة الآراء المختلفة حول هذه المسألة فراجع Chalandon, Hist. de la 1ére Croisade, pp. 192-4 ; Essai sur le regne d' Alexis Comnéne, pp. 200 - 203.

واصطنع المكر فى سبيل تحقيق بغيته فظاهر بعزمه على الرحيل إلى أوربة بمن معه .

كان بوهيمند يعرف أن الصليبيين يدركون الدور الكبير الذى قام به فى هذه الحملة منذ خروجها من أوربة حتى هذه اللحظة ، وأراد أن يوقر فى أذهانهم أن أحوال بلده الداخلية تتطلب منـــه أن يكون على مقربة منها ليدبرها كما ينبغى ، فإذا أفهمهم بوهيمند كل هـذه الأمور وأنه لا أقل من أن يولوه أنطاكية حين يتم فتحها كان ذلك ترضية له فى الرجوع عن فكرته فى العودة إلى أوربة ، لذلك انعقد إجماع الصليبيين المحاربين — باستثناء كونت تولوزطبعا — على أن تكون أنطاكية تحت إدارة بوهيمند بعد إتمام فتحها[1] على أن تحتل قوات الزعماء المختلفين جميع حصون الإمارة وأبراجها وقلعتها ، فلا ينفرد بها نرمان بوهيمند وحـــدهم[2] ، وبذلك لاح فى الأفق أمل داعب خيال بوهيمند .

* * *

لم يعد سراً على الصليبيين مقدار الفرقة السائدة بين القوى الإسلامية فى العالم الإسلامى سياسياً ودينياً ، حتى ليقال إن الإمبراطور ألكسيوس كان قد أشار على الصليبيين — وقت بلوغهم القسطنطينية — بضرورة الاتصال الودى بالفاطميين فى مصر ، لكنهم أجّلوا العمل بهذه النصيحة حتى بدت لهم ضرورتها وهم أمام أنطاكية .

---

(١) Raimond d' Aguilers, loc. cit.

(٢) Chalandon, Hist. de la premiére croisade, p. 227.

على أية حال بات واضحاً أنهم يريدون العمل على زيادة الهوة بين الجماعات الإسلامية ، وتنبه لهذه المسألة — ولكن بعد فوات الوقت — رضوان أمير حلب الذى أدرك عاقبة تقصيره منذ البداية فى النهوض لنجدة أنطاكية ، فأراد التكفير عما مضى وأن يتناسى أحقاده الشخصية وأن يمدّ يده لشمس الدولة بن ياغى سيان الذى وفد عليه ملتمساً منه المعونة الحربية بعد أن بلغت الدماء الثنن ، وبعد أن يئس من تحرك الدماشقة غبّ هزيمتهم فى ألبارة قرب حلب ، لذلك نهض فى فبراير ١٠٩٨ إلى أنطاكية ، وانضم إليه سكمان بن أرتق وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وكذلك قوات من شيزر وحماة وحمص ، وعسكروا عند مرج دابق شرقى أنطاكية . إلا أن رضواناً لم يتخذ الحيطة ، ولم يفكر فى أن جماعة من الأرمن فى حلب قد يتصلون سراً بالفرنجة فى أنطاكية ، ويفضون إليهم بخروج القوات الإسلامية ومحاولتها مباغتة المدينة على حين غفلة منهم . لذلك استعد الصليبيون للقتال وقسّموا أنفسهم أقساماً ، فأقاموا بعضهم لحماية المدينة ، وجعلوا البعض الآخر لاعتراض المهاجمين إذا فكروا فى اقتحامها ، وخرجوا متخفين بقطع من الليل تقيهم أعين الرقباء ، وضربوا خيامهم فيما بين نهر العاصى وبحيرة العمق ، وهو مكان حصين يصعب على الحلفاء المسلمين مهاجمتهم فيه لما يتطلبه من وجوب اقتحام نواح يشرف عليها الصليبيون أو جماعات ممن هواها معهم كالأرمن . على أن الجيش المسلم تقدم يوم ٩ فبراير محاولا شق طريق له إلى المدينة من ناحية جسر الحديد ؛ فوقف لهم العدو بالمرصاد ، ولم يمكنهم من تحقيق إربتهم . وعلى الرغم من استبسال جماعة رضوان وسكمان وبراعتهم التى شهد بها أعداؤهم إلا أنهم اضطروا للارتداد نحو

حارم ، والصليبيون فى أعقابهم يقصونهم أسراً وقتلا ، ونهبا لما يتركونه وراءهم تخففاً ، حتى إذا شاهدتهم حامية البلد السلجوقية مغبرين قد لوّحهم الجهد وأضناهم مشقة الحرب وعار الهزيمة أخلت القلعة ، محاولة جعلها طعمة للنيران كى لا يجد فيها المغير المنتصر ما قد ينتفع به لا سيما بعد أن غلب عليهم أرمن حارم[١] .

على أن نشوة النصر دفعت الصليبيين — كما رأينا — لتعقب جيش رضوان ، ودفعتها الغنيمة إلى الابتعاد عن أنطاكية ، فحاولت حامية المدينة الانقضاض على المشاة الذين خلّفهم الصليبيون على معسكراتهم ، ونشب القتال بين الجماعتين . بيد أن جماعة ياغى سيان ما لبثت أن ارتدت إلى الحصن حين شاهدت بقية الصليبيين عائدة ، وبذلك توالت انتصارات الفرنجة وهزائم عدوهم ، ودلت هذه الوقعة على أن القوى الإسلامية لا تستطيع الصمود — وهى مبعثرة — أمام الصليبيين ، لا سيما وبقية نواحى العالم الإسلامى تشهد الصراع عن كثب دون أن تحاول — جدياً — مد يد المعونة للدماشقة أولا وللحلبيين ثانياً ، بل كان بعضهم لا يعنيه إلا الانكباب على ملذاته[٢] ، وهل أدل على تفكك العالم الإسلامى من تلك السفارة الفاطمية الأفضلية للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقة حتى لقد سرّها أن ترى رءوس القتلى المسلمين حين بعثها إليها الفرنجة ؟ فنسمع وليم الصورى[٣] يشير إلى فرحة سفراء الأفضل بما شاهدوا ، ويصف حسن استقبال الصليبيين إياهم وترحيبهم بهم .

---

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٧٩

(٢) Wiet, Précis de L' Hist. d' Egypte, t. II, p. 189.

(٣) Guillaume de Tyre, p, 205

فماذا كان موقف الخلافة الفاطمية بالتحديد ؟

المشاهد أن الدولة الفاطمية فى مصر نظرت إلى انتصار الصليبيين فى أنطاكية وقرب حلب والمعرة وألبارة كمانع للسلاجقة من محاولتهم التوسع جنوباً[١] مما يزيد اقترابهم من حدود مصر والأملاك المصرية ؛ وكان الأفضل ذاته — فى رأى أحد المؤرخين المحدثين[٢] — يرى أن مهمة الصليبيين تنتهى عند بيت المقدس نظراً لأنهم يريدون تحقيق مشروع حنا الشميشيق ومن قبله نقفور فوكاس . غير أن الواقع يدل على أن الصليبيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن ليس ثمت عقبة فى سبيلهم للاتجاه نحو مصر بعد فتح القدس ، لأنهم يعلمون ما بين الخلافتين العباسية والفاطمية من الشقاق والكراهية[٣] .

أرادت مصر اغتنام الفرصة بموادعة الصليبيين وبذلك تأمن شرهم وشر اقتحامهم بيت المقدس بحد السيف ، وفى الوقت ذاته تقضى على الجماعات المخالفة لها مذهبياً فى بلاد الشام . فأنفذ الأفضل[٤] شاهنشاه بن بدر الجمالى فى يناير ١٠٩٨ (صفر ٤٩٢) سفارة إلى الصليبيين وهم أمام أنطاكية بقيت

---

(١) لم تكن محاولة أتسز فى الخروج من دمشق عام ٤٦٩ ونهوضه فى الجمع العظيم إلى ناحية مصر — طمعا فى امتلاكها — بالبعيدة عن الأذهان لولا قيام أمير الجيوش بدر الجمالى بدفعه ؛ راجع ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٠٩ ، كما أن أتسز استولى على بيت المقدس وأخذها من مصر قبل سنة ١٠٧١ ، راجع ابن الأثير : الكامل (طبعة أوربة) ، ج ١ ص ١٩٧ وكذلك Guillaume de Tyre, p. 191.

(٢) Grousset, Hist. des Croisades, t. I, p. 83

(٣) Guillaume de Tyre, p. 191

(٤) راجع الدائرة ، مادة « الأفضل » .

شهرين ، تحمل مشروع اتفاقية تعقد بين مصر وبينهم ، تستقل فيها الأولى ببيت المقدس ، وينفرد الآخرون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين ، وتكون لهم الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم الدينية ، على ألا تزيد إقامتهم بها أكثر من شهر واحد ، وألا يدخلوها بسيوفهم[١] . ومهما يكن من أمر هذه الوفادة فقد لقيت من الناحية النظرية ترحيباً كبيراً من جانب الصليبيين الذين أدركوا ما تنطوى عليه من معنى الانحلال العنيف والفرقة السائدة فى المجتمع الإسلامى ، رغم أن الأحداث الملبة ببعض نواحيه كانت تستدعى تناسى الأحقاد والخلافات المذهبية والسياسية[٢] ، وتتطلب تضافر الجهود لدرء الخطر المشترك .

* * *

على أن الخلافة العباسية تحركت بعد طول سكون فقامت قوة حربية ضخمة بقيادة قوام الدولة كربوغا صاحب الموصل ، ولم يحاول أن يجعل نهوضها طىّ الكتمان كما ينبغى ، بل سرى الخبر فى جميع النواحى بقرب وصول النجدة العراقية السلجوقية إلى أنطاكية دفعاً للخطر الصليبى الذى رأته بغداد يوشك أن يغرز مخالبه فى غرب العراق بعد أن أنشبها فى شماله ، حيث أسس بلدوين إمارة الرها اللاتينية واستقل فيها ، وما كان لهذا الخاطر

(١) Guillaume de Tyre, t. I, p. 162 et seq

(٢) يرى Wiet : Précis de L'histoire de l'Egypte, t. II, p. 186 أن الانقسام المذهبي كان أكبر معوان للصليبيين فى الاستقرار ببلاد الشام ، ويشير فى مكان آخر (Ibid., p. 189.) إلى مبلغ ماوصل إليه الجيش المصرى فى الشام من الضعف ، على حين أن أبا المحاسن فى النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ ، يعيب على الأفضل تقاعده ويقول « ما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه [عساكر مصر] مع قدرته على المال والرجال » .

الذى طرأ ببال سلاجقة العراق أن يفوت الصليبيين ، وأدركوا أن تحرك العراق معناه محاولته بسط سلطانه على تلك النواحى أولا ، ولا بد له من الاستبسال فى القتال لكى يضرب الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، فلا عجب إذاً إنْ بذل الصليبيون غاية الجهد لصد النجدة الموصلية . لذلك عقدوا مجمعاً ضم كبار القادة منهم للتداول فيما ينبغى اتخاذه للحيلولة دون وصول النجدة إلى أنطاكية ، حتى لا تقوى معنوية المحاصرين وتشتد عزائمهم ويقع الصليبيون بين جماعة ياغى سيان فى الداخل وقوات كربوغا من الخارج ، وسبيل تلك الحيلولة هو إقامة حصن على الشاطىء الأيمن للنهر عرف بحصن « المحمرة » أو حصن ريموند ، واستعانوا بعمال من أهل السفن الإنجليزية والجنوية المرابطة عنـــد ميناء السويدية[١] حيث ذهب بوهيمند وكونت تولوز لاستقدامهم .

على أن الصليبيين وجدوا أكبر عون لهم فى شخصية علج ، أرمنى الأصل فى بعض المراجع وتركيه فى مراجع أخرى ، وكما اختلفوا حول أصله كذلك اختلفوا فى اسمه وإن رجح أنه يدعى بفيروز[٢]، وثق به ياغى سيان وعهد إليه بحراسة برج يعرف ببرج الأختين ، إلا أنه كان غاضبا على مولاه لمصادرته بعض أمواله وأخـذه غلته[٣] ، وإن ذهبت الرواية الصليبية[٤] للقول بأن

(١) Riant : Inventaire, p. 224.

(٢) راجع ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٣٥ ؛ وابن الأثير : الكامل ص ١٩٢ ؛ وابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٠ — ٥٨١ ؛ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ؛ Guill. de Tyre, p. 212; Raimond d' Aguiler, p. 250.

(٣) ابن القلانسى ، شرحه ، ص ١٣٥ — ١٣٦ ؛ منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١

(٤) Guill. de Tyre, (R. Hist. Occ. Cr.), t. I, p. 221.

محافظته على شرفه دعته إلى تسليم البلد لبوهيمند ، إذ اكتشف فيروز أن زوجته لم تَرْعَ حق الزوجية فى خيانتها إياه مع أحد القادة الأتراك ، ومع أن المراجع لم تنص على اسم هذا القائد أو الزعيم التركى إلا أنه — لو أخذنا بالرواية المسيحية — لكان لنا أن نتوقع أن يكون المقصود هو ياغى سيان أو أحد ولديه ، لذلك آلى فيروز أن يكون انتقامه شديداً ، وأى انتقام أشدّ وقعا من أن ييسّر للصليبيين دخول البلد ؟

* * *

على أن كربوغا سهّل — عن غير قصد — مهمة الصليبيين فى الاستيلاء على أنطاكية ، وتفصيل ذلك أنه عرّج على الرها محاولا استنزال بلدوين منها حتىّ يأمن شرّ وثبة تأتيه من الخلف ، غير أن الأسابيع الثلاثة التى أقامها أفهمته عدم جدوى هذا الحصار [1] ، وأن الخير فى زحفه لنجدة ياغى سيان .

غير أن تأخر كربوغا أتاح الفرصة لبوهيمند للعمل على الاتصال بمن فى داخل أنطاكية ، وقد اتصل به سرا فيروز لما أدركه فيه من الحرص الشديد على أن يؤول إليه أمر حكمها ، وكتم بوهيمند الخبر عن بقية الصليبيين ، لكنه لوّح لهم بضرورة إلقاء القيادة إليه واصطناع كل وسيلة فى سبيل دخول البلد واحتلاله ، مهما كانت هذه الوسيلة ، وما لبث الصليبيون أن استجابوا لهذا التلويح حين عاد بوهيمند مرة أخرى يبين لهم الخطر المحدق بهم من جراء اقتراب النجدة الموصلية ، ولم يشذ عنهم فى قبول تولّيه أمرها سوى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ص ١٩٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ؛ Raimond d' Aguilers, p. 252 ; Matthiew d' Edesse, t. I, pp. 40 - 41 ; Guillaume de Tyre, p. 231.

منافسه ريموند الصنجيلى ، إلا أن الشعور العام فى المعسكر الصليبى باقتراب الخطر الموصلى — ممثلا فى حملة كربوغا — حمل الجميع على النزول على طلب بوهيمند وإيكال القيادة العامة إليه ، وتم ذلك يوم ٢٩ مايو ١٠٩٨ .

والواقع أن الظروف الطيبة كانت تسير فى ركاب بوهيمند وفى سبيل اقترابه من أمله فى الاستحواذ على أنطاكية دون زملائه جميعاً ، فقد أخذ اليأس يتسرّب إلى نفوس الكثيرين من الصليبيين من طول مكثهم دون أن يحققوا هدفاً ما ، أضف إلى هـذا قلة ما لديهم من الأقوات مما كان ينذرهم بمجاعة تضعف من مقاومتهم للنجدة العراقيـة ففر الكثيرون منهم ، حتى إنه ستيفن دى بلوا كان من الجماعات التى خلّفت المعسكر الصليبى ويمم وجهه شطر الإسكندرونة ، ولذلك نرى صاحب الجستا يسلقه بألسنة حـداد فيشير إلى أنه تعلـّل بالمرض كى يهرب من ملاقاة كربوغا ودفـْعـه عن أنطاكية ، ويقاربه فى لهجته العـدائية المؤرخ الصليبى ريموند داجيل ويتهمه بالجبن ، ومهما تـكن حقيقة الدافع له على الفرار فإن الحقيقة الثابتـة هى أنه أضاع على نفسه شرف مشاركة الصليبيين فى دخولهم أنطاكيـة ، إذ وقع ذلك الدخول بعد هروبه بيوم ، وما كان له أن يعلم بذلك لاسيما وأن بوهيمند قد أحاط اتصالاته بفيروز بستار من الكتمان عن جميع زملائه فى السلاح حتى لايشاركه مشارك فى استسلامها له .

لم يكن بوهيمند حريصا على أن يبقى ستيفن دى بلوا أوغيره من الأمراء إلى جانبه ، فقد دبّر مع فيروز خطة الاستيلاء على أنطاكية ، وكانت تتمثل

فى أن يتظاهر بوهيمند بالخروج برجاله بعد ظهر يوم ٢ يونيو لصد كربوغا ، حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأ إلى السور الغربى للمدينة ونصب السلالم الموصلة بينه وبين « برج الأختين » الذى كان فيروز يقوم بحمايته .

لم يكن فى استطاعة بوهيمند أن يبقى المسألة بعد ذلك سراً مكتوماً عن زملائه الأمراء وأسقف بوى مندوب البابا ، وأنبأهم بأنّ أنطاكية واقعة فى أيديهم تلك الليلة ، وما كان لهم إلا أن يباركوا الفتح ، وأدرك ريموند كونت تولوز على وجه الخصوص أن لامفر له من الرضوخ لخصمه وأخيه فى السلاح .

نجحت خطة بوهيمند فى إيهام أهل أنطاكية بأنه مزمع الخروج لصد كربوغا ، حتى إذا زحف الجيش بعيدا عن المدينة بعض الشيء وانتصف الليل أمره بوهيمند بالعودة من حيث جاء ، فقام الجيش بحركة التفاف بلغ بها مع الفجر أسوار أنطاكية قبالة حصن الأختين ، فنصبت السلالم وتسلقها ثلة من الفرسان وانثالوا من نافذة خاصة إلى حجرة أقام بها فيروز فى انتظارهم ، ثم جاء بوهيمند فى جمعه وانطلق رجاله فى المدينة يقودهم أرمنها الذين فتحوا لهم أبوابها ، وما لبثت أنطاكية[1] أن استسلمت يوم ٣ يونيو وإن بقيت قلعتها فى يد شمس الدولة بن ياغى سيان ، وجرت دماء أهلها مطلولة على شعاف الوادى وفى سراديب الحصون وعلى سفوح تلال حبيب النجار تسطّر خديعة فيروز وخيانته ، وبطش المحتلّ وقسوته ، وطمع بوهيمند فى الرياسة

(١) أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ فيخطىء إذ يزعم أن الاتصال كان بين فيروز وكونت صنجيل ، وهو ينسب كل دور فى هذه الحرب إلى كونت تولوز .

دون نظر إلى ما تنطوى عليه الوسائل التى يعمد إليها من روح لا تتفق والشرف والفروسية .

وأطل ياغى سيان — وقد أتلع الفجر — فأبصر راية بوهيمند تخفق من علٍ ، فعرف جلية الأمر ، وما كانت به حاجة إلى من يفضى إليه بالنبأ الأليم : نبأ ضياع أنطاكية من يده وخروجها إلى أيدى الصليبيين ، وحينذاك أدرك ألاّ أمل له فى البقاء بها أو الدفاع عنها ، وانطلق مع جماعة قليلة من غلمانه مؤثرين الهرب وقد نال منه الجهد كل منال ، فلقيهم بعض الأرمن فى الطريق قرب « أرمناز » ، فوثبوا على ياغى سيان وقتلوه وحملوا رأسه إلى معسكر خصمه [١] .

وبذلك انطوت صفحة من جهاد ياغى سيان لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ أنطاكية .

* * *

هكذا سقطت أنطاكية فى يد الصليبيين ، وقد سهّل سقوطَها خيانةُ فيروز وتراخى أمراء الشام المسلمين فى نجدتها ، وتأخُّرُ كربوغا فى زحفه إليها ، وكان سقوطها باعثا الأمل فى نفوس الصليبيين . ومع أن أنطاكية سلمت من الهدم والتدمير إلا أن بقاء قلعتها فى يد شمس الدولة كان مبعث أرق لهم ، إذْ كان أشدّ ما يخشونه أن يتمكن ابن ياغى سيان من الاتصال بقوات كربوغا وبذلك يصبح الصليبيون بين شقّ الرحى .

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ؛ ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

بادر الصليبيون إلى الانصراف لدفن جثث القتلى المتراكمة التى امتلأت بها جميع شعاب المدينة حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها للرائحة المنتنة المتصاعدة منها على حد قول مشاهد عيان[١] .

لم تنقض ثلاثة أيام على سقوط أنطاكية حتى لاحت طلائع قوات كربوغا يوم ٥ يونيو عند جسر الحديد على نهر العاصى ، فقويت نفوس المسلمين الذين بالقلعة وراسلوا كربوغا يستعجلونه الحرب ويبينون له ماهو فى غنى عن معرفته ، وما تفصح الأحوال حينذاك عنه ، فاشترط كربوغا أن يسلمه شمس الدولة القلعة قبل أن يزج برجاله فى القتال ؛ أفلا يدل هذا على انعــــدام الثقة بين الطرفين ؟ وإذا كانت النجدة لاترمى إلا إلى مساعدة ياغى سيان فما الداعى لإصرارها على امتلاك القلعة ؟ ليس هناك سوى مبرر واحد هو رغبتها فى أن تكون آمنة على نفسها إذا اضطُرت القوات الإسلامية المحلية للاستسلام للصليبيين تحت أى ظرف من الظروف ؛ وقد أنكر شمس الدولة هذا الطلب ، ثم حاول أن يؤجل التسليم إلى ما بعد المعركة ، ولم يكن الوقت ليسمح بمثل هذا الجدل والعدو على مقربة منهم ، فأخذ كربوغا قائداً من قبله هو أحمد بن مروان فاحتلها[٢] ، وبذلك أصبح فى قدرة النجدة الموصلية أن تعيث فى نواحى أنطاكية كما تشاء .

شنّ ابن مروان هجوما على الناحية التى يقيم بها الفرنجة ، فكان جذب وشدّ بين المصافّين انتهى بارتداد الفرنجة إلى أسوارهم وأبراجهم[٣] ،

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ٧٠

(٢) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ ــ ٥٨٣ .

(٣) ابن العديم : شرحه .

وضاقت الأمور بالصليبيين وقلّت الأقوات لديهم قلة أنذرتهم بالمجاعة القاسية ، وتسرّب اليأس إلى قلوب الكثيرين منهم ، ثم راح بوهيمند يذرع المدينة ومعسكراتها ليلا مفتشا عن الخونة المسيحيين الصليبيين الذين يتسلون فى غبش الظلام إلى الخارج يلتمسون الفرار من هذه المحنة القاسية والتجربة المريرة التى أنزلها بهم كربوغا بتجويعه إياهم « حتى أكلوا الميتات والدواب[1] » ، فلا عجب إن وهنت نفوس الكثيرين منهم والتمس بعضهم النجاة فى الهرب موكلين بشعاف الأرض يشرفونها من شدة الخوف . وكان ممن هرب روبرت وأوبرى جراندميل ولامبرت كونت كليرمونت وتروسّو « الذين تسربلوا بالظلام وانسلوا تحت جنح الدجى » ها بين مصاقبين للسور الموازى لسيف البحر ، حتى لقد عرّقت أيديهم وأقدامهم فلم يبق منها ســوى العظام ، وصاحبهم فى فرارهم كثيرون ، فلما بلغوا السفن الراسية فى ميناء سمعان أخبروا مَن بها بأن قوات كربوغا قتلت جميع الصليبيين الذين بأنطاكية ، فما لبث الفزع أن استبد بهؤلاء فانطلقوا إلى سفنهم وأنزلوها فى البحر ، فهب الترك فى آثارهم وقتلوا كل من عثروا عليه منهم ، ثم أضرموا النار فى المراكب الراسية فى مجرى النهر واستولوا على أسلابهم[2] .

على أن هؤلاء الهاربين تمكنوا من الوصول إلى طرسوس حيث انضموا إلى جماعة ستيفن دى بلوا وكان لهم شأن كاد أن يودى بمصالح الصليبيين إلى الهلاك .

هكذا توالت الضربات على الصليبيين ومرت بمن بقى منهم فى أنطاكية

(١) ابن العديم : شرحه ، ص ٥٨٢ .

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٨٠ .

ساعات رأوا فيها بعين الغيب ما ينتظرهم من مصير قاتم وهزيمة نكراء ، ولم يعد أمامهم مجال سوى القتال أو الاستسلام ، إذ كيف تتأتّى لهم النجاة والعدو فى داخل قلعة أنطاكية وخارج المدينة ؟

* * *

كانت الشائعات إذ ذاك قـــد بلغت سمع الصليبيين بأنطاكية بخروج الإمبراطور ألكسيوس كومنين من القسطنطينية على رأس جنده لنجدة الفرنجة ، وطابق الخبر الخبر ، فقد تحرك ألكسيوس رغم معارضة الكثيرين من رجاله الذين خافوا من وثوب بقايا القوات السلجوقية غير النظامية عليه فى أثناء زحفه فى آسيا الصغرى ، إلا أنه آلى على نفسه أن ينهض لنجدة الصليبيين ؛ ومن الإنصاف لهذا الرجل أن نقول إن هذا العمل منه كان دليلا يقضى على تهجمات كُتاب الفرنجة الذين يريشون إليه سهام النقد المرير ، متهمين إياه بمحاولة القضاء على القوات الأوروبية بالاتفاق آونة مع السلاجقة ضدهم وآونة بتركهم يلاقون مصرعهم دون نجدة منه ، وليس من شك فى أن إصراره على الخروج هذه المرة يدرأ عنه ذلك الاتهام .

بلغ الإمبراطور مدينة تدعى آق شهر Philomelum بآسيا الصغرى ، حين وفد عليه اثنان من كبار الصليبيين هما ستيفن دى بلوا ووليم جراندميل زوج أخت بوهيمند ، فأنبآه باقتحام كربوغا لأنطاكية وتطويقه القوات الصليبية بها ، وذهبا أكثر من ذلك حين تقدم إليه ستيفن دى بلوا فرجّح للإمبراطور أن لابد أن يكون الصليبيون قد هلكوا عن آخرهم[1] ، ولم

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٨٧ .

يحسب الإمبراطور مقدم هؤلاء هروباً لا سيما وفيهم ستيفن دى بلوا[1] .
وهل كان حدّ الجبن إلا الضنّ بالحياة والحرص على النجاة ؟ ورأوا تبرير
مجيئهم بأن زعموا للإمبراطور أن المدينة سقطت فى يد عدوهم ، فصدّقهم
الإمبراطور ، وهل كان له إلا أن يصدّق هذا الخبر لاسيما وأن أحد حامليه
روج أخت بوهيمند ؟

وصدّق مخاوفَ أنصار الإمبراطور النبأ الذى جاء به بطرس الأبوسى
من أن الجيش السلجوقى قـــد تجمعت شراذمه معتزمة ضرب مؤخرة
الإمبراطور وجناحه الأيسر فى أثناء زحفه على أنطاكية ، ومن ثم عقد
ألـكسيوس مجلساً من كبار رجالاته حضره ستيفن دى بلوا وآخر اسمه
« جى » هو أخو بوهيمند وكان فى خدمة ألـكسيوس منذ بضعة أعوام ،
فأجمع الـكل على وجوب العودة إلى العـاصمة ، غـير « جى » الذى دعى
لوجوب الاستمرار فى الزحف لنجدة الصليبيين وتأديب المسلمين ، إلا أن
دعوته لم تجد سميعا أو معضدا ، ومن ثم انـكفأ ألـكسيوس إلى عاصمة ملكه
تاركا الفرنجة بانطاكية يدبرون أمر نجاتهم بأنفسهم .

* * *

فى هذه الأثناء كانت قوات كربوغا تضيق الحصار على أنطاكية ،
واستطاعت هذه القوات أن تستولى على أحد الأبراج ممـا كان يؤذن
بانتصار النجدة الإسلامية ، الأمر الذى أدرك بوهيمند معه أن لابد له من
القيام بعمل حاسم يفسد على المغيرين خطتهم ويحفظ له أنطاكية ، وحزّ فى

---

(١) Riant, Inventaire des lettres historiques des Croisades, pp. 171-8.

نفسه أيضا أن يرى كثرة ضخمة من الصليبيين قد غادرت أماكن الدفاع التي نيطت بها واعتصمت بمساكنها داخل المدينة من شدة المجاعة وخوفا من الترك ، فلم يكن منه إلا أن عمد إلى إشعال النيران من الناحية التي يقع بها قصر باغى سيان ، مما حمل أولئك الصليبيين المتقاعدين على الخروج والانضمام إلى جماعاتهم المختلفة[1] ، حتى لقد أتت النار على ألف بيت وكنيسة ، وخيف أن تمتد إلى كنيسة بطرس والعذراء[2] ، وبلغت روح الصليبيين المعنوية من الانهيار حدا بدى معه أنهم موشكون على التسليم .

توالت الضربات على الصليبيين فى أنطاكية ولكنها لم تكن بالضربات المهلكة ، وما كان لهم إلا أن يتحملوها — أبوا أم قبلوا — وإلا أن يعدوها تجربة دخلوا فيها ، وأدركوا أنه إذا هانت عزائمهم وتلاشت قواهم أدّى ذلك إلى هلكهم وإلى ماهو أشر من الهلاك ؛ غير أن لكل نفس طاقة لاتستطيع أن تجاوزها ، ورأى الزعماء الصليبيون أن معنوية الجيش فى انهيار مستمر لاتجدى إزاءه صلابة بوهيمند واستعماله العنف والشدة مع الهاربين ، وأدركوا أن لابد من حدوث معجزة .

فكانت المعجزة هى الحربة المقدسة .

ذلك أن أحد صغار الصليبيين واسمه بطرس بارتلميو زعم أن القديس أندراوس تبدّى له فى نومه فى الأشهر الخمسة الأخيرة خمس مرات ، أمره فى الاولى منها أن يذهب إلى أديمار ليعنفه على تركه واجباته الدينية كواعظ للجيش ، وأن يمضى إلى ريموند كونت صنجيل ليخبره بأن الحربة التى طعن

---

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ٨٤

(٢) شرحه ، ص ٨٥

بها المسيح مدفونة فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، ويزعم بارتلميو أكثر من ذلك أن القديس أخذه إلى حيث الحربة مطمورة وأخرجها له ليقطع الشك عنده باليقين ثم أعادها إلى مكانها ، غير أن بارتلميو لم يصدع بأمر القديس أندراوس الذى ظهر له مرة أخرى بعد شهرين أثناء وجوده فى الرها مؤنبا إياه ، وضربه بمرض فى عينيه وإن شفى منه بعد قليل ، وأمره أن يمضى إلى المعسكر لينبىء المسئولين أن جميع القديسين سوف يحاربون إلى جانبهم ، فوعده بارتلميو بالطوع لأمره وعاد إلى أنطاكية ، إلا أن تذكره مكانته من مكانة البارونات والكونتات منعه من الافضاء إليهم بما رآى ، وحدث أن رحل بعد شهر (فى مارس ١٠٩٨) إلى قبرص فى جماعة لشراء القمح والذخيرة والأقوات للجيش ، فتبدى له القديس أندراوس مرة ثالثة ، وكان يشاطره الخيمة سيده الذى سمع حواراً وإن لم يتبين الثانى ، وتكررت القصة مرة رابعة حيث جاءه القديس وهو فى المصيصة آمراً إياه بالنهوض إلى أنطاكية ، ثم جاءه مرة خامسة وهو فى قتال المسلمين بأنطاكية ؛ وإذ ذاك أفضى بها إلى رفاقه فى السلاح ، وتناقلت الألسن خبر الرؤيا حتى بلغت سمع الكونت والمندوب البابوى وغيرهما من كبار الزعماء ، فماذا كان موقفهم حيالها وماذا كان موقف الشعب الصليبى منها ؟

الواقع أن المسألة كانت تمس ثلاثة رجال هم أديمار دى مونتل ، وريموند كونت تولوز ، وبوهيمند .

أما أديمار فقد أنكر بادىء ذى بدء هذا الحلم ، كما أنكر أن تظهر مثل هذه الآية على يد رجل لم يؤثر عنه شىء من التقوى بل كان أقرب ما يكون

إلى الميل للأخذ بشهوات الدنيا والإقبال على متاعها دون رعاية لنواهى الدين والعرف والأخلاق ، وأراد أديمار أن يدحض أقوال بطرس بارتلميو فذكر أن بالقسطنطينية حربة ثبت أنها الحربة المقدسة ، فكيف تجوز التثنية والمسيح لم يطعن بغير واحدة ؟ ثم إن أديمار كان رجلا لا يؤمن إيماناً قويا بمزاعم أمثال بطرس بارتلميو الذى لم يكن له من الركائز الروحية مايؤهله لأن يتلقى مثل هذه الرؤيا الضخمة ، وإذا جاز لمثل هذا الزعم أن يجد تصديقا بل وإيمانا من جمهور العامة فما كان لأديمار — وهو الذى خبر الآلاف من أفراد هذا الجمهور — أن يصدق مايزعمون ، فإن لم يكن زعمهم كذبا ومينا فهو وهم وخيال ، ثم إنه ما كان لأديمار إلا أن يكذب أقوال بطرس بارتلميو الذى هاجمه حين زعم أن القديس أندراوس أوحى اليه أن يطلب منه الرجوع الى واجباته الدينية ، وكيف يرقى شخص كبار تلميو أن يقف موقف الإرشاد والإصلاح والتوجيه من أديمار أسقف دى پوى ونائب البابا وقائد الحملة الروحى الذى له وحده دون غيره أن يصدر قرار الحرمان وأن يغفر وأن يجب الخطايا ؟

وأما بوهيمند فكان لا يميِّل الى الأخذ بشقٍّ من هذه الرؤيا التى تبوّىء خصمه ريموند الصنجيلى مكانة القيادة فى الجيش وتعطيه من القوة الشعبية والنفوذ مايدنيه من نفوس المحاربين فتتزعزع إذ ذاك مكانة بوهيمند وقد تضعف مطالبته بحكم أنطاكية لنفسه .

وأما ريموند الصنجيلى فربما كان أميل لتصديقها لأنها تجعل منه زعيما للحملة الصليبية ، ولأنه كان فى الوقت ذاته رجلا أكثر ميلا للأخذ بالرؤى والأحلام .

وأما الشعب فكان أحوج ما يكون إلى مثل هذه الرؤيا تشد من عزمه وتقوّى من أمله ، ولعل إشارة الچستا[١] إلى أن القوم أنكروا رأى بارتلميو إشارة إلى الأمراء لا سيما بوهيمند فقد كان صاحبها من جيشه .

على أن جماعةً من الصليبيين فيهم ريموند كونت صنجيل والمؤرخ ريموند داجيل الذى يظهر من كتاباته شدة إيمانه بصدق رؤيا بارتلميو[٢] صحبوا بارتلميو واتجهوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وظلوا يحفرون طول يومهم على مشهد من الحجاج المتجمّعين حتى عثروا على الحربة فى النهاية ، فهلل الشعب لمرآها ، وكان عثورهم عليها يوم ١٤ يونيو[٣] .

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن المسلمين ضيّقوا الخناق على الصليبيين حتى أكلوا ورق الشجر ، « وكان صنجيل عنده دهاء ومكر ، فرتب مع راهب حيلة ، وقال : اذهب فادفن هذه الحربة فى مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك رأيت المسيح فى منامى وهو يقول : « فى المكان الفلانى حربة مدفونة فاطلبوها ، فإن وجدتموها فالظفر لكم فهى حربتى[٤] » ؛ فذاع الخبر فى أنحاء المعسكر ، ووُجدت الحربة وقويت نفوس الصليبيين بعض الشىء ، ولاحظ ذلك الكتاب المسلمون فيقول أحدهم « والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا فى غاية الضعف من الجوع وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام فى غاية القوة والكثرة[٥] » .

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ٨٣

(٢) Cf. Raimond d' Aguilers, pp. 253 - 57.

(٣) Chalandon, Hist. de la 1ére croisade, pp. 210 - 18.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ — ١٤٨

(٥) أبو المحاسن : شرحه .

وراحت الرؤى وظهور القديسين بل والسيد المسيح تتعدد ويترى بعضها فى إثر البعض بتعدد الأشخاص من الحجاج المحاربين ، وإن اتسمت بسمة واحدة هى بشرى النصر القريب على القوات الإسلامية .

على أن مجرى الأحداث منذ هذه اللحظة وموقف بوهيمند وأخذه بهذه الرؤى بعد إنكارها فى البداية على بارتلميو لما يدعو إلى الظن بأن له يداً فى تعدد هذه الأحلام ، فقد رتب الصليبيين للقيام بكرة على كربوغا الذى أخذت قوى جيشه المعنوية فى الضعف ، وتخاذل كثير من أمراء المسلمين فدبت الفرقة بينهم ، وانصرف أكثرهم تحت ظروف شتى ، منها محاولة رضوان فى تفريق الجماعة ، إذ ترادفت رسله إلى كربوغا ، فتوهم دقاق الشر من ذلك ، كما خاف جناح الدولة ، وجرت بين الأتراك والعرب منافرة ، أدت إلى انقسام فى الصفوف ، كما أن كربوغا أساء السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم «ظناً منه أنهم مقيمون معه على هذه الحال ، فأغضبهم ذلك ، وأضمروا فى أنفسهم الغدر إذا كان قتال ، وعزموا على إسلامه عند المصدر[1] » مما لم يخف على الصليبيين ، فرتبوا صفوفهم للقتال .

على أن الصليبيين أوفدوا إلى كربوغا سفارة من لدنهم يوم ٢٧ يونيو ، ويختلف المؤرخون حول حقيقة هذه السفارة ، فيزعم البعض أن الرسولين الفرنجيين بطرس الناسك وهولان المترجم عرضا على القائد المسلم أن يكون القتال على شكل مبارزة ، يختار فيها كل من الجانبين خير من عنده ؛ ويزعم

(١) راجع الكامل لابن الأثير ، ص ١٩٤ ؛ ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ — ٥٨٣ ؛ وأبو الفداء : المختصر ، ص ٤ .

البعض الآخر من المؤرخين أنهما أمراه برفع الحصار عن المدينة وخروجه منها سالماً فى نفسه ورجاله وسلاحه ومتاعه ، وربما كان الرأى الثانى أصح الرأيين لأنه بطبيعة الحال جاء عقب العثور على الحربة المقدسة وما أدّت إليه من تقوية العزائم(١) .

وقد حفظ لنا الجستا خلاصة ما دار فى هذا الاجتماع الصليبي الإسلامى ، وما بدى من تعسّت كربوغا(٢) .

بدى للصليبيين حينذاك الآ مفر من قتالهم المسلمين بعد أن وضح لديهم مقدار الفرقة السائدة بين صفوفهم ، لذلك ما كاد فجر ٢٨ يونيو ١٠٩٨ يتنفس وتتبين العين ما أمامها حتى كان الصليبيون بقيادة بوهيمند أمام باب المحمرة ، وأعدوا كل مااستطاعوه من قوة ومن رباط الخيل ، ووقفوا صفوفاً فى مقدمتها الفرنسيون والفلمنكيون بقيادة هيج دى فرماندوا وروبرت كونت فلاندر ، يليهم اللوثارنجيون بقيادة جودفروى ، ثم نرمان نرمنديا بقيادة روبرت كونت هيوز ، فأهل بروفنسال بقيادة أديمار دى مونتل أسقف بوى ، ثم كتيبة من نرمان إيطاليا بقيادة بوهيمند وتنكريد ، وكان فى هذه الكتيبة الأخيرة مؤرخنا المجهول صاحب الجستا بلا شك(٣) .

(١) Raimond d' Aguilers, p. 270 ; Foucher des Chartres, pp. 347 — 8 .

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشى) ، ص ٩٠ — ٩١

(٣) Grousset, Hist. des Croisades, t. I, p. 105 ; Chalandon, Hist. de la 1ére croisade, p. 221 على اختلاف فيما بينهما حول ترتيب الجماعات وقادتها ، ولكننى أوثر الترتيب الذى ذكره الأستاذ جروسيه والذى تابعه فيه : Runciman : Hist. of the Crusades, vol. I, p. 247 وهما فى ذلك يأخذان بترتيب الجستا ، ص ٩٢ .

أما ريموند الصنجيلي فقد بقي في المدينة لمرض ألمّ به ولكي لا يدع الترك يخرجون ويطعنون القوات الصليبية من الخلف ؛ على أن القول مختلف هنا حول حامل الحربة المقدسة أكان هو أديمار أم ريموند داجيل المؤرخ[١] .

على أن كربوغا لم يحرك ساكناً بل إنه حال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين خروجهم فرادى ، مؤثرا أن يلقاهم جمعاً رتيباً كأنما هو في حفل فروسية ، وكان بعض الأمراء ممن حوله أشاروا عليه ألاّ يمكّن الإفرنج من الخروج بأجمعهم وان يقتلهم أولا فأولا فلم يلق إليهم سمعاً[٢] ، وبذلك أكثر الحزّ وأخطأ المفصل ، وهو الفارس المعلم ، لكن قد يعثر الجواد .

كرت القوات الصليبية على جيش كربوغا وتمكنت بهذا الترتيب المشار إليه أن تحدق به وأن تنضحه بنبالها وسدّت المنافذ عليه من جميع النواحي ، فلما أطبق على المسلمين وبُهِم عليهم الأمر وباتوا لا يدرون كيف الخلاص من هذه الهجمات التي تنوشهم من كل جانب ، وانصرف دقاق بجماعته لم يجد المسلمون — بقيادة كربوغا — بدأ من إضرام النار في الحقول لصدّ العدوّ وتعويق زحفه ، فلم يجْدهم ذلك نفعاً ، فلما رأوا أنفسهم عاجزين حياله لاذ كبارهم بالهروب وفعل كربوغا نفسه مثل فعلهم وانقلب عائداً إلى الموصل ؛[٣] وأبدى الصليبيون وحشية عنيفة بشهادة مؤرخهم فوشيه[٤] ، فلم يرحموا

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حبشي) ، ص ٩٢ ، س ١٠ — ١١ ؛ وراجع أيضا في ذلك Raimond d' Aguilers, p. 259 ; Foucher des Chartres, p. 248

(٢) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٥

(٣) ابن الأثير : شرحه .

(٤) Foucher des Chartres, p. 349.

ضعف النساء بل قتلوا من عثروا عليهن . فلما رأى أحمد بن مروان — وكان بالقلعة — ماحلّ بأصحابه ، لم يجد مناصا من أن يبعث إلى من بقي من الصليبيين في المدينة رسولا يعلنهم استسلامه ويطلب منهم الأمان ، فأجيب إلى ماطلب ، وقبل عرضه ريموند كونت صنجيل وأبقى على حياته وحياة من معه وأعطاه رايته إيذاناً منه بذلك ، مما كاد أن يؤدى إلى فتنة طخياء بين صفوف الصليبيين ، ذلك لأن كلا منه هو وبوهيمند كان يرى لنفسه التقدمة في امتلاك البلد ، ويقال إن ابن مروان رفض في البداية راية ريموند مؤثرا عليها بيرق بوهيمند الذى رأى مايهدف إليه منافسه من إعطائه رايته لابن مروان من معنى الحماية والجوار ، ولايكون « الجوار » إلا للقوى يبذله للضعيف ، ثم إن في هذا الجوار معنى آخر يوحى به إلى الصليبيين — كما رأى بوهيمند — هو اطمئنان ابن مروان والمسلمين لبأس الكونت ، مما يتضمن الاعتراف الصريح بعلو شأنه وسيطرته على بقية القوات الصليبية ، ولا مشاحة في أن ذلك العمل منه يغضب منافسه في الزعامة بوهيمند الذى حمله غضبه منه على أن يتقدم وينزع علم ريموند وينصب علمه هو ، وإن احتل القلعة رجال ريموند وبوهيمند وجودفروى وروبرت كونت فلاندر[١]، ورضى أحمد بن مروان بما قرره الزعيم النرمانى ، ويقول مؤرخنا المجهول إن ابن مروان تنصَّر وتعمَّد ، على حين أن الحوليات الإسلامية لا تشير إلى تنصره بل تذكر أنهم انزلوه داراً بأنطاكية وأطلقوا أصحابه ، وسيّروا معهم من يوصلهم إلى حلب[٢] .

---

(١) Raim. d' Aguilers, p. 261 — 262.

(٢) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢

ولقد عزا الصليبيون — أو جماعة منهم — هذا النصر إلى قدرة فوق طاقة البشر ، ولج بهم الزعم إلى حد القول بأن القديسَين جورج وديمترى ساهما بنفسيهما فى القتال ، حيث أبصر البعض كتيبة تنزل من السماء عليها هالات قدسية من النور تقدمت الصفوف وتسلقت السلالم والأسوار ورمت فأصمت ، وهــــذا تعليل يدل على مدى العقلية التى كانت تسيطر على القوم حينذاك ، أما المؤرخون المسلمون فكانوا أدق وأحكم من أمثالهم الغربيين ، فهم ينسبون هزيمة كربوغا إلى سوء معاملته لجماعته .

* * *

خلص الصليبيون من الخطر الإسلامى وتأتت لهم هزيمة جميع القوات التى قدمت لضربهم ومضايقتهم ، وعدّوا هــــذا النصر براهة استهلال فى الاستبشار بتيسير الأمور فى البداية ، وأدركوا إلى جانب هذا أن العساكر الإسلامية لن تستطيع لهم دفعاً أو عليهم تغلباً .

على أن فتح أنطاكية يعتبر بداية عهد جديد من النزاع بين القادة ، أسقط القناع عن حقيقة الدوافع المحركة لهم ، كما أنه أذكى عوامل الحقــد فى نفوس بعضهم على البعض الآخر والتنافس فيما بينهم ، وسيظهر هذا التنازع فى تاريخ الصليبيين عقب إتمامهم فتح كل بلد ، ويتخذ هذا الانقسام مظهراً عملياً حربياً يحدث عما تحته من رغبة كل قائد فى الانفراد بالبلد المفتوح أو انضمامه — إن كان ضعيفا — لتزكية أحد المتنافسين ، فقد كان المفروض من الناحية النظرية أن يرد الصليبيون أنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية بناء على اتفاقية معظم زعمائهم مع ألكسيس سنة ١٠٩٧ م ، لاسيما وقد كانت أنطاكية من

ممتلكاته حتى سنة ١٠٨٥ حين استولى عليها السلاجقة ، والواقع أن فتحها على يد الصليبيين كان أكبر محك للوقوف على مدى محافظتهم على العهد الذى قطعوه على أنفسهم كفرسان مسيحيين ، « غير أن الوفاء بعهد كان أكثر مما يتطلب من رجال يرون أن الرجوع عما تعهدوا به يسوق لهم التاج[1] »

كان بوهيمند يرى أن أنطاكية يجب أن تكون ملكاً خالصاً له ، يزكيه فى ذلك المطلب أنه هو الذى دبّر سراً أمر دخول الصليبيين إليها ، ولولا ذلك لظلوا واقفين أمامها وجاءت بجدة كربوغا فهزمتهم ، ثم إنه هو الذى رسم خطة القتال وأدار دفّته فى محاربته كربوغا ، وما معنى تسليمها للإمبراطور الذى لم يكلّف نفسه أبدا عناء المشاركة فى أهوال القتال إلى جانب الصليبيين فى قتالهم المسلمين ، بل إن أحد قواده تخلّى عنهم من قبل ؟

تجلت الفرقة فى الرأى بين زعيمى الحملة الحربيين ، وأوشكت المسألة أن تتطور إلى ما هو أسوأ من الاختلاف فى الرأى ؛ غير أن روحاً من الهدوء الظاهرى سادت المعسكر بفضل شخصية أديمار دى مونتل الذى كان يميل إلى مصانعة الإمبراطور والبيزنطيين عامة ليكونوا جبهة واحدة فى مواجهة الخطر الإسلامى ، وكان لأديمار من شخصيته ومكانته وسياسته إزاء التيارات المتضاربة فى المعسكر الصليبى ما لا يدع فرصة لمجترىء عليه بالقول أو الإشارة أو الكتابة .

ويقال إن هيج كونت فيرمندوا عرّج بإيحاء من إديمار فى أوائل يوليو سنة ١٠٩٨ م — فى طريق عودته إلى وطنه — على ألكسيوس ليشرح له

(1) Chalandon, Hist. de la premiére croisade, p. 227.

موقف الصليبيين فى أنطاكية بعد فتحهم إياها ، لعل ذلك يستحثه على القدوم إليها فيحل الإشكال وتتحد الكتلة ، وهكذا وجدت فكرة إرجاع الإمارة إلى صاحبها الشرعى تأييدا من بعض القواد وعلى رأسهم ريموند رغم عدم قطعه اليمين لألكسيوس ، كما رأى مؤيدو هذه الفكرة أن مثل هذا العمل ـ من جانبهم ـ لابد وأن يحمل الإمبراطور على مساعدتهم فى هدفهم الأكبر وتزويدهم بالإمدادات والذخائر والنجدات[١] ، ورأى البعض — حسما للنزاع — دعوة الإمبراطور شخصيا للمجىء لاستلامها والاشتراط عليه للنهوض معهم إلى بيت المقدس .

ومع أن بوهيمند وافق فى البداية على الوفادة والدعوة المشروطة إلا أنه ما لبث أن صرّح برغبته فى أن يتولى بنفسه أمور أنطاكية ، وكان قد دبّر الأمر لنفسه من قبل عند جودفروى وروبرت كونت فلاندر ، كما أنه أحكم التدبير حين اتصل بجالية جنوية قدمت بعد دخول الصليبيين أنطاكية ، فمنحها عهداً بإقامة سوق تجارية لها فى المدينة وكنيسة وثلاثين بيتاً ، فلا عجب إذا أيّد الجنوية مطلب بوهيمند فى امتلاك المدينة وقطعوا على أنفسهم عهداً بالوقوف إلى جانبه ضدّ من يحاربه ، على أن يلتزموا الحياد إن شب القتال بينه وبين ريموند الصنجيلى ، وكان بوهيمند إلى جانب ذلك قد امتلك بعسكره معظم أبراج أنطاكية وأكثرها ارتفاعاً وشحنها برجاله ، كما استعمل الشدة فى تجريده القلعة من رجال ريموند وكونت فلاندر ورفع علمه الخاص[٢] .

---

(١) Albert d' Aix, p. 434.

(٢) Ibid., op. cit. loc. cit. : Raimond d' Aguilers, pp. 261 — 2 ; Guillaume de Tyre, t. I, p. 274.

على كل حال لم تعد الفرقة فى الرأى بين الزعماء الصليبيين بخافية على أحد ما من الحجاج المحاربين ، وانصرفوا — مؤقتاً — عن فكرة الزحف على بيت المقدس ، واتخذ هذا الانصراف مظهر تأجيل الرحيل إليها بضعة أشهر حتى تخف حرارة الصيف ولا يتعرض « جند المسيح » للظمأ الشديد . لكن الواقع هو أن الصليبيين — أو بمعنى أدق زعماءهم — عزّ عليهم أن يرحلوا عن أنطاكية ويتركوها غنيمة لبوهيمند ، كما أن جودفروى طمع فى أن يتولى باسم أخيه بلدوين ـ أمير الرها ـ بعض المدن التى تم لبلدوين فتحها مثل تل باشر[1] وراوندان ؛ وأما غيره فقد طمع فى أن تتيسر له الأمور بفتح إحدى المدن أو القلاع الإسلامية الكثيرة الموجودة فى المنطقة الشمالية من سورية ، فينعم هذا الغير — بعد ذلك الجهد المرير — بخيرات الشرق ، وإذن فليس عجيباً أن يتأخر قيام الحملة تسعة أشهر ، ولكن العجيب هو قيامها وتغلبها على تلك العوامل الفردية والمطامع الشخصية . على أن الصليبيين لم يبقوا طوال هذه المدة ساكنين ، بل أخذوا فى الإغارة على المناطق الشمالية من سورية وإحلال النفوذ الصليبى محل النفوذ الإسلامى دون الاحتكاك بالبيزنطيين ، وانطوت هذه الخطة على براعة فائقة فى تثبيت القوة الصليبية بتلك النواحى وإقامة سد منها فى وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فكرت فى مهاجمة أنطاكية أو غيرها من الإمارات التى قد يفتحها الصليبيون فى المستقبل القريب أو البعيد ، كما أنها جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية ميسراً ، تستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة إذا جد الجد وتعقدت الأمور ، كما أنها أوجدت مجالا حياً لنشاط

---

(١) راجع معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٠٢

الفرسان والأدواق والكونتات الصليبيين ، فخرج فى يوليو ١٠٩٨ قائد من أتباع ريموند الصنجيلى فى جماعة من الفرسان قاصداً تل مَنَّس[١] ، وتمكَّن بمعاونة أرمنها وسريانها من التغلُّب عليها ، وأسكرته نشوة النصر وحملته على متابعة الفتح ، متشجعاً بضعف الجماعات الإسلامية فى تلك النواحى وعدم قيامها بأية حركة معارضة له ، لذلك قصد معرَّة النعمان[٢] فصدَّته عنها قوات رضوان صاحب حلب[٣] .

كذلك تلقَّى جودفروى فى أغسطس ١٠٩٨م دعوة[٤] من أخيه الكونت بلدوين يوليه فيها أمر تل باشر وراوندان . فرحب بهذه الدعوة لعاملين أولهما الرغبة فى تولى أمر بعض النواحى ، وثانيهما هرباً من الطاعون الذى اجتاح إذ ذاك أنطاكية وهلك به الكثيرون .

* * *

فى وسط هذا الاضطراب الداخلى ألمَّت بالصليبيين نكبة كبرى هى موت أديمار دى مونتل فى أول أغسطس ، وحينذاك كتب الصليبيون رسالة إلى البابا إربان الثانى ينبئونه فيها بما تم لهم من الفتح فى الشام[٥] ، وينعون إليه نائبه أديمار[٦] ويدعونه للقدوم لتولى الحملة فى ذهابها إلى بيت

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٢) شرحه ، ج ٨ ص ٩٦ .

(٣) ابن العديم : منتخبت من تاريخ حلب ، ص ٥٨٤ : والدائرة مادة « معرة النعمان » .

(٤) Raimond d' Aguilers. p. 262.

(٥) Leib, Rome, Kiev et Byzance, p. 221.

(٦) Ibid., pp. 263 — 9.

المقدس[١] ، وقد جاء فيها قولهم : « والآن فإننا — نحن أبناءك الذين يتّمنا موت هذا الأب وحرمنا من الأب الذى وكلته بنا — نلوذ بك يا أبانا الروحى أنت الذى افتتحت الحملة . . . . ولقد استجبنا لكلمتك ، فغادرنا بلادنا وخلفنا وراءنا جميع ما نملك فى سبيل حمل الصليب واتباع المسيح والعمل على تمجيد كلمة النصرانية ، كما أننا أنجزنا كل ما عينته لنا . فانهض الآن للانضمام إلينا بكل النجدات التى تستطيع جمعها » .

---

(١) Ibid., p. 269.

الفصل الخامس

فى الطريق إلى بيت المقدس

موقف الصليبيين • تمرد أمير عزار على رضوان . الاستيلاء على ألبارة ومعرة النعمان • النزاع بين بوهمند وريموند • شائعة تحرك الخليفة . رؤيا [illegible] بطرس وموته . متابعة الزحف على القدس

سقطت أنطاكية فى يد الصليبيين وأزالوا عنها الحكم الإسلامى بعد أن زالت عنها من قبل السيادة البيزنطية ، وتم لهم إخراج حاميتها الإسلامية منها والقضاء على قوة المقاومة الداخلية وإنزال الهزيمة بنجدة كربوغا ؛ على أن الاستيلاء على أنطاكية لم يكن خاتمة المتاعب الصليبية ، بل نجمت أخرى كانت نابعة من أفكارهم الخاصة وميولهم الذاتية ، فقد فتح الاستيلاء عليها الباب للمنازعات الشخصية بين الأمراء الإقطاعيين الذين كان كل منهم يكره أن يذهب سواه بالمجد والحكم ، وبدت آثار هذا النزاع بين قطبى الرحى وهما بوهيمند وريموند كونت تولوز ، أعنى بين نرمان إيطاليا والفرنسيين البروفنساليين. والواقع أن كتاب الأمراء إلى البابا إربان الثانى يشير من طرف خفى إلى هذا الصراع ، فقد طلبوا إليه فى كتابهم هذا حضوره لزيارة بيت المقدس صحبة الحملة الصليبية ، وكان هؤلاء الأمراء يعلمون قبل غيرهم وأكثر من سواهم استحالة إجابة هذا المطلب من جانب إربان ؛ ولكن غرضهم فى الواقع منه هو إتاحة الفرصة لتقرير أمر المشكلة الأنطاكية فيما بينهم ، فكان

بوهيمند وحزبه يؤملون أن يمكنهم الوقت من أن يتقرر مصير أنطاكية على الصورة التى فى ذهنهم من أن يؤول حكمها إلى بوهيمند نفسه ؛ على حين أن ريموند الصنجيلى كان يحقد على بوهيمند ويطمع أن تضيع أنطاكية من يده وترجع إلى الإمبراطور البيزنطى وبذلك يفسد على الزعيم النرمندى خططه ويفقده أمله الإقطاعى .

لم يكن ثم أمل فى إصلاح ذات البين الخفى بين الأميرين وتقريب هوة الخلاف بينهما لاسيما بعد موت أديمار دى مونتل كما ذكرنا ؛ غير أن هناك ظروفاً ساعدت على تهدئة الخواطر إلى حد ما ، منها النقص البين فى الأقوات والذخيرة ، ثم تأفف صغار الحجاج والمحاربين من طول الانتظار الذى لم يكن ثم مبرر له إلا النزاع بين الأميرين .

أما ما ابتلوا به من نقص فى الأقوات فكان مهدداً للجيش كله بمجاعة تذهب معها ريحه ، سواء فى ذلك قوات بوهيمند وأنصاره أو قوات الصنجيلى وأتباعه ، وأدرك الفريقان ضرورة التماس الوسائل المؤدية إلى الحصول على المئونة حتى لا تزداد معنوية الجيش ضعفا وما قد ينجم عن ذلك من الثورة على الأمراء ، وأبسط مظاهرها فرار الكثيرين من المحاربين .

وشاءت الظروف خدمة الصليبيين على غير انتظار أو توقع منهم ، فقد ثار أمير عزاز[١] — واسمه عمر — ضد مولاه رضوان صاحب حلب ، وإذا كانت هذه الثورة من جانب عمر قد جاءت فى غير الوقت الملائم للصالح الإسلامى فإن استعراض تاريخ رضوان — من ناحية أخرى —

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٦ ص ١٦٨ .

يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن بالرجل الفطن الذى يكيّف سياسته حسب الظروف المحيطة به ، فلم يكن يعنيه إلا مصلحته الخاصة وإرضاء عواطفه دون أن يدخل فى حسابه ماقد يعمد إليه خصمه من الاستعانة بالدخيل الأوربى ؛ ولو كان رضوان رجلا بعيد النظر لاتخذ من أحداث الماضى القريب عبرة ولكتم غضبه حتى يفرغ من الخطر الصليبى وحينذاك يستطيع تأديب العصاة دون أن يخشى أية قوة تنجدهم ، والواقع أن مصيبة العالم الإسلامى لم تكن فى ضعف قواته أو تخاذل أبنائه ولكنها كانت فى أولئك الأمراء الذين ولوا حكم نواحيه المختلفة وفى مطامعهم الخاصة ، دون أن تظهر بينهم الشخصية القوية التى تستطيع جمعهم تحت لواء واحد وتسير بهم إلى هدف مشترك .

على أية حال كانت هذه الجفوة بين رضوان وعمر أمير عزاز مؤدية إلى خروج الأول لتأديب تابعه الذى راح يلتمس المعونة ضده من جودفروى دى بويون . وتفسر المراجع وشهود العيان[1] علة هذا الالتماس من جودفروى على وجه الخصوص بسبب تدخل النساء ، فقد حدث أن وقع أحد قواد عمر فى غرام أرملة من اللورين ، فلما رأت أنه أصبح أسير هواها دفعته على أن يحمل سيده على التماس المعونة الحربية من أميرها اللورينى جودفروى ، فتم الأمر كما رسمت ، مقدماً إزاء ذلك اعترافه بالتبعية الفصلية له وتأديته الجزية للصليبيين إن نصروه على رضوان . وطبيعى أن يرحب الدوق بهذه الدعوة وأن يستجيب لتلك الاستغاثة لما تنطوى عليه من الاعتراف الصريح بخطورة شأن الصليبيين فى بلاد الشام ، وما ترمز إليه من تفكك القوى الإسلامية

---

(١) راجع ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٦ ، Raimond d' Aguilers, pp. 264 — 5 ; Albert d' Aix, pp. 432 — 40.

وهو مايهدف إليه الصليبيون . ثم إنها فوق ذلك كله تتيح لهم الفتح على حساب المسلمين دون أن تدع مجالا لتدخلٍ مّا من جانب البيزنطيين .

إلا أن جودفروى كان يدرك ضعف قواته ، ورأى الخير فى انضمام قوات ريموند الصنجيلى إليه فلم يخيب الكونت رجاءه ، كما بعث جودفروى إلى أخيه بلدوين فى الرها يلتمس منه المعونة فأنجده بقوات من لدنه تبلغ ثلاثة آلاف فارس . وهكذا التأم شمل القوات الصليبية لمعونة عزاز فى سبتمبر ١٠٩٨ (= ٤٩٢هـ) ؛ ولم يكد نبؤها يصل إلى سمع رضوان حتى رجع عن حصار عزاز ، ومن ثم لم ينجح فى شىء خلا تسهيل مهمة الصليبيين فى إظهار سطوتهم وإتاحة الفرصة لهم فى زيادة قوتهم وحمل أمير عزاز على أن يصبح فصلا لجودفروى[1] .

كما أن هذا الحادث أتاح لريموند الفرصة فى أن يعيث فى طريق عودته ببعض القرى والدساكر الإسلامية ويصيب بعض الأسلاب ، إلا أنها لم تكن كافية فى دفع غائلة الجوع عن الجيش الصليبى ، ذلك أن اشتغال الجانبين : الصليبى والإسلامى بالحرب صرف الفلاحين عن الزراعة .

كان إذاً لابد للمغير الأوربى من طرْق أبواب أخرى فى توفير الأقوات ولم يكن ثم سبيل لتحقيق ذلك إلا بتعدد الغارات : وحمل ريموند كونت تولوز عبء هذه المهمة فانصرف إلى مدينة « ألبارة » التى كان كل سكانها من المسلمين الذين لم يجدوا من يدافع عنهم فما لبثوا أن استسلموا ، فقتل ريموند بعضهم وساق البعض الآخر إلى أنطاكية حيث بيعوا بها بيع الرقيق

(1) Guillaume de Tyre, t. I, p. 263.

دون أن يحرك ذلك ساكنا من الأمراء المسلمين المتنازعين فيما بينهم أمثال رضوان وعمر .

على أن ريموند لم يكتف بذلك بل أسكن « ألبارة » جماعة من المسيحيين الأوربيين أحلّهم محل المسلمين ، ويقول أحد شهود العيان[١] « إنه لما تمّ له امتلاكها أرجعها إلى دين المسيح وعقد مجلساً من ذوى الرأى من جماعته ليعهد فيه بالمدينة إلى رعاية أسقف يرجعها إلى دين المسيح وعبادته . . . وأقام المحاريب على شرف القديسين » . غير أن الذى فات ذلك المؤرخ أن يذكره هو أن هذا الأسقف كان من أحد رجال الدين الذين فى جيش ريموند واسمه بطرس النربونى ، ولما كان لابد من ترسيمه حتى تصح شرعية أسقفيته فقد وكل ذلك إلى حنا بطرك أنطاكية البيزنطى ، فسيروا ذلك الأسقف إليه لترسيمه[٢] ؛ فكان ذلك حدثا غريبا فى أن يرسم أرثوذكسى كاثوليكيا ، إلا أنه لا ينبغى اعتباره توحيداً أو تقريبا بين المذهبين المسيحيين ، اذ ستظهر آثار ذلك فيما بعد[٣] .

على أن أهمية هذا الحادث هى أن هذه الأسقفية كانت أول أسقفية لاتينية يقيمها الصليبيون فى الشرق الإسلامى .

* * *

اضطر ريموند تحت ضغط الظروف إلى الرجوع بمفرده إلى أنطاكية التى كان الأمراء قد اجتمعوا بها فى أول نوفمبر ، وذلك لما لمسوه من روح

(١) راجع أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ص ١٠١

(٢) أعمال الفرنجة ، شرحه ، وحاشية رقم ٢ والمرجع المذكور هناك .

(٣) Raymond d' Aguilers, p. 266.

التأفف والتذمر السائدة بين الحجاج الصليبيين الذين كانو يتوقون للوصول إلى الغاية التي خرجوا من أجلها من بلادهم وهي الذهاب إلى بيت المقدس ؛ وتذكر لنا الجستا أن الزعماء قالوا « لما كانت ساعة الرحيل المتفق عليها قد آذنت بالمجيء فإنه لم يعد ثم وقت أكثر من هذا للجدل[١] » ، لكنهم في الواقع لم يكونوا جادّين كل الجدّ في هذا القول بل كان ذلك ذرّاً للرماد في عيون المتذمرين وإسكاتاً لهم ، لاسيما بعد أن زعم بطرس بارتلميو مرة أخرى أن القديس أندراوس جاءه في الحلم يأمره بالذهاب السريع إلى بيت المقدس[٢] .

كان هذا المجمع مؤلفا من أقطاب الأمراء الحربيين ، فقد حضره ريموند كونت صنجيل من البارة ، وجودفروى من تل باشر ، وريموند كونت فلاندر ودوق نرمنديا ، بل إن المرض لم يحل دون حضور بوهيمند من كيليكيا ، والتأم شمل الجميع في كنيسة القديس بطرس .

على أن الفرقة في الرأى سادت الاجتماع منذ بدايته ، ولاح جليا أن الاختلاف بين وجهتي نظر بوهيمند وكونت صنجيل أكبر من أن تستطيع المحاولات التهديئية إزالته أو تخفيف حدته ، فقد ظهر أن بوهيمند يصرّ على امتلاك أنطاكية كلها لنفسه : الأمر الذى لم يكن ريموند الصنجيلي ليقبله ، وهنا وجد كونت تولوز الفرصة سانحة لأن يذكّر بوهيمند ورفاقه بعهدهم مع الإمبراطور ألكسيس كومنين في إرجاع أنطاكية إليه ، وأن

---

(١) أعمال الفرنجة ، ص ١٠١

(٢) Raimond d' Aguilers, p. 266.

ريموند الاتفاق مع بوهيمند حتى لا يكون فى ذلك نكث لهذا العهد[١]؛ واحتدم الجدل احتداماً عنيفاً أدرك معه بقية المجتمعين أنه منذر بالخطر فى إحداث رد فعل مكروه ضدهم من جانب جماعة الحجاج المحاربين، فدفعتهم خشيتهم من عرقلة الزحف إلى القبر المقدس إلى كتمان ما أجمعوا الرأى عليه[٢].

على أنه لم يكن فى الاستطاعة إبقاء هذا الأمر سراً مكتوماً عن المحاربين الصغار الذين دأبتهم فطرتهم على تنازع كبار أمرائهم فيما بينهم نزاعاً لا تحملهم عليه دوافع كريمة أو خدمة الصالح المسيحى العام، بل تحركهم فيه أطماعهم الشخصية، وصرح الحجاج الصليبيون بنقمتهم على قادتهم؛ ومن ثم خشى بعضهم أن تؤدى تلك النقمة إلى فشل زحفهم، فاتفقوا على عقد مجلس آخر - يستثنى منه ريموند الصنجيلى وبوهيمند - ليقرر ما يراه بشأن أنطاكية، وقبل ريموند ذلك على شرط أن يقسم بوهيمند أمام الأساقفة على أنه يصاحب الحملة فى زحفها على بيت المقدس وألا يفعل شيئاً يؤدى إلى إنزال الضرر بالقوات الصليبية.

كان هذا الاجتماع الثانى لبعض أمراء الحملة تحايلا لتهدئة الخواطر الثائرة، ولكنه لم يقرر موعد الزحف على القدس، إلا أن الرأى استقر على أنه تقوم بعض القوات الصليبية فى هذه الأثناء بالإغارة على معرة النعمان[٣] لقربها من مدينة «البارة» التى كانت قد وقعت منذ أمد قريب فى يد

(١) أعمال الفرنجة، ص ١٠٢

(٢) أعمال الفرنجة، ص ١٠٧

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٨، ص ٩٦

ريموند الذى كانت معظم قواته لا تزال مرابطة بها أثناء حضوره مجلس الزعماء بأنطاكية ، وكانت سلامة الجيش — فى زحفه على بيت المقدس — تتطلب تأمين جناحه الأيسر من هجمة تأتيه من ناحية المعرة ، ومن ثم كانت السلامة فى الاستيلاء عليها : لذلك زحف ريموند كونت صنجيل وروبرت كونت فلاندر حتى بلغا معرة النعمان يوم ٢٧ نوفمبر ولم يستطيعا اقتحامها ، غير أن بوهيمند ما لبث أن أدركهما ثانى يوم وصولهما ، وأقام الجميع على حصارها مدة قاربت أسبوعين ، ولكنهم وجدوا من أهلها مقاومة لم يكونوا يتوقعونها أبداً ، وظلوا على مقاومتهم مؤملين عبثاً وصول النجدة من رضوان أمير حلب ومن جناح الدولة أمير حمص ، وأنكروا على العدو محاولته الفاشلة التى أدّت إلى مجاعة فى صفوفه وضيقٍ استولى على رجاله ، وعمد كونت تولوز إلى بناء برج أعلى من أبراج المدينة يسير على عجل وأسنده إلى سورها تدفعه الكباش[1] ، وأخذ يرمى المقاتلين بالنار والأحجار فكشفهم عنه ، واضطر فريق من الأهالى لطلب الأمان فأجيبوا إليه .

حينذاك عمد بوهيمند إلى انفراده بالعمل فى دخول المدينة المغلوبة كما فعل من قبل فى أنطاكية ، فبعث من ينادى بين أهل معرة النعمان بالأمان إن هم استسلموا إليه دون غيره من القادة ، وقطع على نفسه العهد ببسط حمايته عليهم وأمّنهم على أرواحهم وأموالهم ، ودلهم على مكان يلوذون به فلا ينالهم ضر ولا يمسسهم أذى ، فصدّق البعض قوله ، وذهبوا إلى حيث أشار ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ؛ ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٦ — ٥٨٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥١٩ — ٥٢٠ .

إلا أن بوهيمند ما لبث أن نكث بعهده وقتلهم غير مستثن سوى النساء والأطفال حيث بيعوا أسرى ، ودخل الصليبيون المعرة ورفعوا الصلبان فوق البلد وفرض على أهل البلد القطائع[١] . ولقد حفظت لنا المراجع الإسلامية هذا الفتح فذكرت أن الفرنج رأوا من أهل المعرة شدة ونكاية ولقوا منهم الجدَّ فى حربهم ، فعملوا برجاً من خشب يوازى سور المدينة ووقع القتال عليه . فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذى كانوا يحفظونه . فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور ، ولم تزل تتبع طائفة منهم التى تليها فى النزول حتى خلى السور فصعد الفرنج إليه على السلاليم ، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوه وأقاموا أربعين يوماً[٢] .

على أنه كان لا بد من إقامة أسقفية دينية فى هذا البلد الإسلامى ، ورأى الصليبيون ـ حسما للنزاع بين القائدين ـ أن توكل إدارة شئون معرة النعمان إلى بطرس النربونى[٣] ، وأدى هـذا الفتح إلى تجدد النزاع بين القائدين الصليبيين حول اقتسام الأسلاب والغنائم أولا ، ثم حول سوق الزعامة الدينية إلى بطرس النربونى الذى أراده ريموند ، فلم يُرْضِ ذلك بوهيمند

---

(١) Raimond d' Aguilers, pp. 268 — 71 ; Hagenmeyer. Chronologie de la premiére croisac., No. 319

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٨٧ .

(٣) Raimond d' Aguilers, pp. 269 — 70 .

لما رآه من تمكن البروفنساليين من جميع نواحى البلد من وجهة النظر الدينية ، كما قدّر أن ذلك الاختيار بالذات يجعل ريموند صاحب اليد العليا ويحمل رجال الدين على التشيع له والوقوف فى صفه .

بهذا النزاع فضح بوهيمند نفسه فى أعين الصليبيين ، ووضح لهم أنه لم يكن مخلصاً فى حمله الصليب بل محمولا عليه بأطماعه الخاصة ، وتجلى لهم أنه يستوى عنده أن يكون تابعاً لبيزنطة أو مستقلا ما دام هو فى كلتا الحالتين أميراً على ما يريد ويشتهى ، وأدرك عامة الفرنجة وفقراؤهم أنهم يبذلون أرواحهم ويهرقون دماءهم لغرض فى نفس بوهيمند ولتحقيق مأربه دون رعاية منه للصالح الصليبى العام أو للفكرة الدينية التى حركت الجمهور الأكبر منهم ودفعتهم على الدخول فى تجربة قاسية فى سبيل نصر المسيحية ورفعة الصليب فى بلدان ساحل الليڤانت . فلا جرم إذا انصرفوا عن بوهيمند إلى ريموند الصنجيلى وولوه قيادتهم فى زحفهم على بيت المقدس ، لا سيما وأنه دلّ منذ مقدمه على صلابته ، وكان أحد اثنين رفضا أن يقسما يمين الولاء للإمبراطور ، وطبيعى أن يصادف هذا العرض هوى فى نفس ريموند ، وتعهد بالنهوض معهم فى مستهل ١٠٩٩م ، ثم أخذ فى الاستعداد لهذه المهمة الجسيمة ، وطلب من الزعماء الالتقاء به فى الروج فلبوا جميعاً الطلب ، وتعهد لهم بأن تكون نفقات سفرهم على حسابه الخاص ، وقدم بوهيمند فأعلن استعداده للمساهمة فى الحملة إذا تخلى له ريموند عما بيده من الأبراج فى أنطاكية فرفض الكونت شرطه ، وخرج ريموند من معرة النعمان يوم ١٣ يناير ١٠٩٩م (١٧ صفر ٤٩٢ هـ) حافى القـــدمين ، متحملا آلام الطريق ، متمثلا بالمسيح ؛ ومن العجيب المدهش أن ينصرف جميع الزعماء الصليبيين عنه يوم خروجه ،

وانقلب كل إلى ناحية من النواحى التى تم لهم فتحها ، فزاد ذلك الانصراف من قدره فى أعين الحجاج والمحاربين ، وكانت تلك أجل خدمة قدمها إليه منافسوه ، دون أن يدركوا ما تنطوى عليه من النفع له ، والانتقاص من قدرهم لدى عسكرهم .

بيت المقدس !!

ليس أحب إلى المسيحى من هذا الاسم ، فهو يحمل إليه صوراً من ماض بعيد بسنواته ، ولكنه حى بذكرياته ، وهو يمثل له البقعة الطاهرة التى درج بها المسيح ، وكرز فى نواحيها ، ولقى أشتاتاً من العذاب الجم من أجل هداية خرافها الضالة ، وكان طعامه أن يعمل مشيئة الذى أرسله . أليست الحياة الأبدية — كما فى الإنجيل — لمن يسمع كلامه ويؤمن بمن أرسله ، ولا يأتى مثل هذا قط إلى دينونة ، بل ينتقل من الموت إلى الحياة ؟ وأى شرف أجل فى نظر النصرانى من أن يعفر وجهه فى تراب تلك النواحى المجيدة !

* ° *

غير أن جيش ريموند ما لبث أن ازداد قوة روحية ومادية بمن انضم إليه فيما بعد أمثال أسقف ألبارة ذاته ومقدم قوات ريموند التى كانت مرابطة فى أنطاكية ، وكذلك روبرت دوق نرمنديا وتنكريد : وما انقضى شهر على خروجه حتى لحقه جودفروى دى بويون وروبرت كونت فلاندر بعد أن آمنوا بصدق نوايا كونت صنجيل ، مما هيأ له الفرصة التى كان يتطلع إليها منذ دعوة البابا إربان ، ألا وهى تولى الزعامة الحربية للحملة الصليبية .

خرج ريموند على أية حال بهذه الجموع الصليبية قاصدين أقدس بقعة

عندهم ، ومروا فى طريقهم على بلدان وإمارات عربية خالصة مثل كفر طاب وشيزر ، فلم يجدوا من أمرائها إلا المبادرة إلى الخضوع والاعتراف بتبعيتهم لهم ، أو على الأقل موادعتهم وتأمين سبيلهم وهم سائرون إلى الأماكن المقدسة ، وتزويدهم داخل بلادهم بما يحتاجون إليه ، وكان أول من قدم هذه العروض « سلطان » أمير شيزر ، طمعاً منه فى أن تحملهم سياسته اللينة على الابتعاد عن أرضه ، فلم يراعوا ذلك بل ضربوا خيامهم على أبواب البلد مما أثار حنق سلطان ، وحمله على تهديدهم بقطع الذخيرة عنهم ، وإن كان فى الوقت ذاته قد أرسل رسولين من قِبله ليدلهم على مخاضة نهر العاصى إلى وادى سروج حيث يجدون المرعى الخصيب لجيادهم فلم يعارض الصليبيون ، وما كان لهم أن يعارضوا حتى لا يحملوا بقية البلدان أو بمعنى أدق — الأمراء المسلمين — على النظر لهم بعين السخط ومصارحتهم به ، وتجنباً لما يؤدى ذلك إليه من مضايقتهم ، لا سيما والطريق طويل ، والرحلة شاقة .

* * *

فى هذه الأثناء طلب ريموند الصنجيلى عقد مجلس للتشاور فى خطة الزحف إلى بيت المقدس ، فانبرى تنكريد وأشار إلى قلة القوات الصليبية وأنها لا تعدو ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة مما يحتم عليهم تجنب الاشتباك فى حرب مع أصحاب القلاع الموجودة على الساحل إن هم اتخذوا هذا الطريق الأخير ، إلا أن أحداً لم يأخذ برأيه هذا واتجهوا إلى مصياف[1] فخرج إليهم أميرها يوم ٢٢ يناير ١٠٩٩م وعقد موادعة مع ريموند الصنجيلى ،

(١) أو مصياب ، أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٧٩ .

رحل الصليبيون بمقتضاها إلى « بعرين[1] » فرفنية[2] ، فلم يجدوا مقاومة لرحيل أهلها عنها ، وأصاب الفرنجة ذخيرة وافية فأقاموا حيث هم ثلاثة أيام ، نزلوا بعدها على البقيعة ، فلما علم سكانها - وكلهم من العرب والبدو - بنزولهم استبد بهم الخوف ، وانطلقوا يلتمسون النجاة هرباً بما خف حمله وغلى ثمنه ، والتجأوا إلى أسوار « حصن الأكراد » ، فتعقبهم المهاجمون وشددوا الحصار عليه حتى سقط فى أيديهم ، وفى اليوم التالى أقاموا احتفالا بعيد ذكرى دخول المسيح إلى الهيكل ، كما وفدت عليهم رسل من قبل جناح الدولة صاحب حمص ، تحمل إليهم الهدايا وتؤكد الموادعة والاتفاق ، كما توالت عليهم وفود النواحى المجاورة مستأمنة قاطعة لهم العهود بالمحافظة على سلامة الحجاج ؛ وأخذ الصليبيون بعد ذلك فى التقدم شطر طرابلس ومتولى أمرها يومذاك أبو على فخر الملوك بن عمار . فلما ترامى إليه نبأ مسير القوم أدرك الخطر المهدد لإمارته ، ورأى سلامته وسلامتها فى مصانعتهم ومداراتهم[3] ، لا سيما وهو يدرك أن السلاجقة أضعف من أن ينهضوا لنجدته ، بل لقد زاد ابن عمار على ذلك فبعث إلى كونت صنجيل يسأله أن يبعث إليه براياته ليرفعها فوق مدينته[4] ، وإن كان صاحب الجستا[5] يشير إلى أن فحوى هذه الرسالة كان « الموادعة والاتفاق والارتباط برباط المودة إذا أحب » ، وأنه قد أنفذ إليه عشرة جياد وأربعة بغال وبعض الذهب .

---

(١) ذكر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، أن صحتها « بارين » .

(٢) ياقوت : شرحه ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

(٣) Raim. d' Aguilers, p. 275.

(٤) Raimond d' Aguilers, p. 275.

(٥) أعمال الفرنجة ، ص ١٠٧

قبل ريموند ما عرضه ابن عمار وأرسل إليه سفارة صليبية شدهها ما بلغته هذه المدينة من الثراء ، وعادت السفارة لتخبر الكونت بثراء الأمير المسلم ، وأدركت شدة حرص ابن عمار على بقاء الأمور فى إمارته على ما هى عليه ، ولم يَفُتْها أن ابن عمار — فى سبيل هذا الحرص — لن يتردّد فى دفع ما يطلبه منه الكونت من الأموال إن رأى فى ذلك تجنّباً للحرب ؛ ثم أشاروا على الكونت أن تحقيق ذلك هيّن عليه إنْ تحركت القوات الصليبية التى معه فهاجمت بعض المدن ، فيحمل الخوف إذ ذاك ابن عمار على دفع مال أكثر ، واستجاب ريموند لهذه النصيحة ، فحاصر فى فبراير ١٠٩٩ « عرقة » وعاونته إمدادات بحرية من سفن البنادقة[١] .

* * *

حينذاك لم يجد المسئولون غير الإرجاف بشائعة كاذبة استهدفوا من ورائها بثّ الخوف فى نفوس الصليبيين ليرفعوا حصارهم عن « عرقة » ، فزعموا أن خليفة بغداد والسلطان بركياروق قد أعلنا « الجهاد » دفعاً للمغيرين ، وأنهما غادراها على رأس جيش لجب قاصدين طرابلس ، وصدّق ريموند هذه الشائعة فبعث إلى جودفروى وكونت فلاندر — وكانا فى جبلة — يطلب منهما القدوم عليه وضم قواتهما إليه ليكونوا جميعاً يداً واحدة إزاء الخطر

---

(١) Raimond d' Aguilers, p. 276 ، هذا ويلاحظ أن الفرصة واتت ريموند إذ ذاك حين أنفذ اثنين من رجاله هما ريموند بيليه وريموند التوربنى لمهاجمة أحدى الموانىء الواقعة بين اللاذقية وطرابلس ، فأخاف مقدمهما أميرها وحاميتها فما لبثوا أن فروا منها تحت جنح الدجى واستسلمت .

الجديد ، وللمبادرة للاستيلاء على عرقة[١] ، لكن سرعان ما تبين القوم كذب هذا الادعاء[٢] .

أما حقيقة هذه الشائعة - التي ظنها جودفروى خديعة من ريموند حتى يدفعه لرفع الحصار عن جبيل[٣] - فتتلخص فى ماذكره ابن القلانسى[٤] من أن صاحب عرقة أنفذ سنة ٥٠٢ هـ رسوله إلى ظهير الدين أتابك يلتمس منه المعونة على دفع الإفرنج عنها وإنفاذ من يتسلمها « فندب بعض ثقاته فتسلمها وأقام واليا بها منتظرا وصول العسكر إليهـــا والوفاء بما وعد به من الخلع والإحسان إليه ، وحدث فى الوقت من الثلوج والأمطار ماعاق المسير إليها ، وقلّ القوت بها وانقطعت الميرة عنها ، فبادر الإفرنج بالنزول عليها ، وتوجه ظهير الدين عند ذاك إليها فصادفهم قد أحاطوا بها ولم يتمكن من دفعهم عنها . وعاد إلى حصن « الأكمة » ونزل عليه وقاتله ، فلما عرف الإفرنج ذلك نهضوا إليه فى تقدير ثلثمائة فارس لإنجاد من بالأكمة فوصلوا إليهم ليلا فقويت نفوسهم ، واقتضى رأى أتابك الرحيل عنها بحكم من صار فيها منهم فرحل كالمنهزم وطمع فيه . . . وعاد الإفرنج إلى عرقة وعدم القوت فيها فملكوها بالأمان » .

لم يكن جودفروى بالحريص على معـاونة ريموند الصنجيلى فى تشديد الحصار على « عرقة » لذلك أصر على وجوب النهوض حالا إلى أورشليم .

---

(١) Rob. Mon., p. 853, Foucher des Chartres, p. 352.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٠٥ ، Raim. d' Aguilers, p. 277; Albert d' Aix, p 453.

(٣) Chalandon: Essai sur le régne d' Alexis Comnéne, p. 248.

(٤) ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٦٢ ، Rob. Mon., p. 853

أما ريموند فكان غير حريص على المضى لما يريده جودفروى ، وشجب الخلاف فى الرأى بين الزعيمين : كل يدافع عن وجهة نظره ويؤيدها بما يتفق — فى زعمه — والصالح العام ، وكانت حجة ريموند أن القضاء على إمارة طرابلس يجعل القوات الصليبية آمنة من ضربة تأتيها من الخلف إن هى تقدمت إلى الجنوب ، وكاد الخلاف بينهما أن يؤدى إلى افتراق الكلمة ، لولا أن شغلوا حينذاك بأمر سفارة وفدت من قبل الإمبراطور ألكسيس كومنين تحمل إليهم رسالة مؤداها « إن جميع البارنات كانوا قد أقسموا بالأناجيل المقدسة برد كافة المدن والقلاع التى كانت من قبل تابعة لإمبراطورية القسطنطينية بمجرد استيلائهم عليها هى وبقية الأراضى التى تمتد حتى بيت المقدس[1] » والواقع أن الإمبراطور لم يكن بالمتعسف فى طلبه هذا ، وإنما هو التفسير العملى لاتفاقية ١٠٩٧ التى تعهدوا له فيها بشرفهم — كفرسان مسيحيين — بإرجاع كل ما كان ملكا للإمبراطـــورية . ولدينا رسالتان متبادلتان بينه وبين بوهيمند بصدد هذه المشكلة . فقد جاء فى رسالة الإمبراطور إلى دوق تارنت قوله « إنك تدرى أنك وبقية الكونتات الإفرنج قد قطعتم يمين الولاء والإخلاص لى ، وأنت الآن يا بوهيمند أول من تنقضه باستيلائك على أنطاكية واللاذقية وغيرهما من المدن الإمبراطورية ، فاخرج حالا من هذه المدن إذا كنت راغبا عن إثارة حرب جديدة » فأجابه بوهيمند « إن الفرنجة لم ينقضوا عهدهم إلا لأن ألكسيس نفسه قد أخلف عهوده معهم : ألم يقسم بمصاحبة اللاتين فى الحرب ومشاركتهم الخطر ؟ لقد صادف المسيحيون العذاب فى حصار أنطاكية دون أن ينهض الإمبراطور لمساعدتهم » .

(1) Raimond d' Aguilers, p. 286 ; Cf. Guillaume de Tyre, p. 307

بهذه اللهجة العنيفة كان كل من الإمبراطور وأمير تارنت يكاتب الآخر ويغلظ له فى القول ، ورفع كل منهما القناع وجاهر الآخر بالعداء وأظهر ما كان مطويا فى دخيلة نفسه ، وعُرف أن كلا منهما كان مماذقاً فى صداقته لصاحبه مما دعى ريموند إلى القول بوجوب انتظار مقدم ألكسيس ومصاحبته فى الزحف على الأماكن المقدسة ، وبذلك انتقل كونت تولوز من موقف المعارض لرغبات الإمبراطورية إلى المؤيد لأطماعها ، ولعله رأى فى ذلك وسيلة لتحقيق إربته من حيث استمياله على إمارة طرابلس ، ولم يخف ذلك على جودفروى الذى مانع فى التريث ، متهما الإمبراطور بخُلف الوعد وعدم رعاية مصالح المحاربين ؛ واشتد الجدل بين الزعيمين الأوربيين شدة رنّ صداها فى المعسكر الصليبى بأجمعه وتناقله الجند ، واستحال الهمس إلى جلبة ، وراحوا يتناقشون فيما بينهم « مَن من الفارسين المخطىء » ، ومَن منهما المصيب ؟ » ، واستعادوا فى ذاكرتهم موقف بوهيمند أمس من ريموند فإذا به يتكرّر اليوم ، ولكن بين ريموند وجودفروى .

* * *

عزّ على ريموند الصنجيلى أن يرحل عن « عرقة » دون أن يستطيع اقتحامها ودون أن تستسلم له ، وأدرك أن زعماء الصليبيين الآخرين يعارضونه ويلحّون عليه فى الزحف على بيت المقدس ، وخشى أن يعمدوا إلى إثارة رجاله ضده وإذ ذاك يُوقع فى يده وتفوت عليه فرصة القيادة الحربية التى تقوم فى هذا المجال بالذات على ركيزة من الناحية الروحية ، فماذا تراه يصنع وقد رأى تنكريد وسواه ممن اشتراهم من قبل بماله يعرضون عنه ؟

حينذاك جاءته النجدة ـ ولعله كان قد رتبها ـ فى شخصية بطرس بارتلميو صاحب معجزة الحربة المقدسة وغيرها من الرؤى التى كانت تترى عليه كلما حزب كبار الصليبيين أمر ، فعمد بطرس إلى حمل الحجاج المسيحيين على الوقوف إلى جانب صاحبه ريموند كونت صنجيل بوجوب الهجوم على عرقة مدعيا أن القديسين أندراوس وبطرس جاءاه فى نومه فى صحبة السيد المسيح ليلة ٥ أبريل وطلبا منه سرعة الهجوم على عرقة ؛ غير أن تواتر الرؤى وظهور القديسين وتجلى المسيح لبطرس بارتلميو كثيراً أتاح للشك فى صدق دعواه أن يتحرك فى نفوس الصليبيين ، وكان عجيبا أن يختصه القديسون والسيد المسيح دون غيره من الحجاج ورجال الدين وهم كثر ، ولم يكتم المتشككون شكهم فى صدق دعواه ، وعمل الأمراء المعارضون لريموند على زيادة هذا الشك والجهر به وعدوه خادعاً مغررا ، فحاجهم بطرس أن يمر بالنار فإن سلم كان بها وإلا فلا داعى للتريث فى طراباس ، واضطر بطرس لقبول هذه المباهلة لكنه لم يلبث أن مات بعد بضعة أيام[١] (يوم ٢٠ أبريل ١٠٩٩) ، وطبيعى أن يؤدى موته فى مثل ذلك الوقت وبين مثل تلك الجماعة إلى انتصار فريق جودفروى وهو الفريق الأكبر ، ولم يكن ثم بد لريموند من الخضوع لرأى الأغلبية مخافة أن ينفض من حوله الكثيرون ، لا سيما وقد أبصر تنكريد ينحاز الى جانب جودفروى . فاضطر كونت تولوز إزاء هذا الإجماع لرفع الحصار عن عرقة يوم ١٣ مايو عام ١٠٩٩ بين دموعه وآلامه أو على حد قول مؤرخه[٢] « Conturbabatur comes usque ad lacrymas et

(١) Foucher des Chartres, pp. 344 — 5.

(٢) Grousset, Hist. des Croisades, t. I, p. 199 (d' après Raimond d' Aguilers) ; Runciman, op. cit., vol. I, pp. 273 — 4.

» usque ad sui atdue suorum odium ومع ذلك فقد ظل الصليبيون مقيمين على حصار عرقة . فهل استسلمت لهم ؟

الواقع أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منها منالهم ، ولم يضرها أن يقف أمير طرابلس هذا الموقف المتخاذل ، بل أقبلت جموع أهلها على المقاومة التى كان الواجب يقضى على الأمراء المسلمين المختلفين إدراك أن فى إمكانهم الاعتماد على الأهلين فى مقاومة الصليبيين وخذلانهم بدلا من مبادرة هؤلاء إلى الموادعة . والواقع أن موقف أهل عرقه يستأهل التفاتة المؤرخ لأنهم استطاعوا إنزال كثير من الضربات بالصليبيين الذين فقدوا الكثيرين من محاربيهم فى محاربة عرقة وقلت الأقوات لديهم . وكانت هذه الضربات مساعدة للجماعة المعارضة لريموند الصنجيلى فى حمله على الرضوخ لمطلبهم فى رفع الحصار عن عرقة والزحف الى بيت المقدس ، وهكذا ضاعت آمال ريموند واضطره موقف جودفروى للتخلى مؤقتا عن إمارة كانت قطوفها دانية له .

واذا كانت آفاق تلك الحادثة المكانية ضئيلة فإن مايترتب عليها جد خطير فى تقرير سياسة الصليبيين وفى بدء معرفة المسلمين بحقيقة موقف الدخيل المغير ، ولكن لم تعد هذه المعرفة افق مسلمى طرابلس فحسب .

لم يخف شيء من الفرقة فى الرأى بين زعماء الصليبيين على أهل طرابلس فعادت المقاومة من جديد من جانب أهل البلد ، إلا أن أميرهم كان يحاول شراء السلم بأى ثمن ، ومن ثم أمد المغيرين بمبلغ ضخم من المال وبعض الجياد وأطلق لهم ثلاثمائة صليبى كانوا فى أسره ، وزاد على ذلك بأن أنفذ مع المحاصرين جماعة من رجاله يرشدونهم على أحسن المسالك وآمنها للوصول إلى بيروت

فكان موقفا كريها ونقطة سوداء فى تاريخ هذا الأمير الذى ذهب صاحب الجستا(١) للقول بأنه اتفق مع الصليبيين على اعتناق النصرانية إن تمت لهم الغلبة على الفاطميين وتملكوا بيت المقدس .

على أية حال وقف أهالى مدينة طرابلس وحيدين أمام القوات الصليبية وفعل فعلهم أهالى عرقة ، غير أن المدينة مالبثت أن استسلمت نصار للجنويين ثلث البلد ولريموند الصنجيلى الثلثان الباقيان(٢) .

* * *

مر الصليبيون فى طريقهم إلى بيت المقدس على بعض بلدان الساحل اللبنانى ، فتلقاهم بعضها بالعطف والتأييد والمبادره للاعتراف بالتبعية لهم على شرط فتح بيت المقدس كما فعل أهالى بيروت ، وأخذ آخرون فى مقاومتهم كأهل صيدا(٣) وإن جازاهم الصليبيون بالعنف والشدة ، ثم توالت الإمدادات الصليبية من الرها وأنطاكية ، وساروا فى سبيلهم قدما فمروا على صور وعكا واللد والرملة حيث عقدوا مجلس المشورة للتشاور فيما ينبغى عليهم اتخاذه ولتنسيق خطة السير . وكان الوقت (يونيو) قد آذن بالحرارة ، والصيف قد اشتد ، فانقسم الرأى ، إذ مال فريق للزحف على مصر وحجته فى ذلك أنه بمحاربتها والقضاء عليها وتحطيم قواها يضمن الاطمئنان من وثبات تأتيهم من الجنوب بين حين وآخر ، وتكفل لهم حرية التجارة البحرية والبرية وسلامة الشواطىء وعدم تعرضها لخطر الأسطول المصرى ، وأما الفريق

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ١٠٨

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ .

(٣) Guillaume de Tyre, p. 311 — 12

الآخر فقدرأى أن الحكمة وسدادالرأى تحتمان عليه وجوب الزحف مباشرة على القدس والاستقرار بها والتحصن فيها ، وزعيم هذا الرأى جودفروى الذى ماكاد يصل إلى «القبيبة» حتى وفدت عليه جماعات كثيرة من مسيحيّ بيت لحم يحثونه على الإسراع لما نصب نفسه من أجله . ويعدونه بالمعونة — وهى فى أيديهم ميسرة — ، وذلك لأن عمال الدولة الفاطمية يستعملونهم فى تحصين المدينة ، فأرسل جودفروى ربيئة استكشافية ، تتحقق له من صدق الأمر بقيادة بلدوين دى بورج وتنكريد النرمانى على رأس ثلة ضئيلة من الفرسان ذهبوا إلى بيت لحم ، فبلغوها مع الفجر ، فلما علم بها مسيحيوها خرجوا « حاملين الصلبان والأناجيل ، مرتلين تراتيلهم الدينية مهللين ممجدين الرب » ، واستبدت بهم الفرحة فمضوا يقبلون أيدى الفرسان ، إذ رأوا فيهم مخلصين لهم « مؤملين أن تعود مملكة ابن السماء على أيدى فرسانه » وقدموا بهم إلى الكنيسة التى « قامت بها ذات المجد أم يسوع الطفل مخلص العالم ، وأرادو إظهار مافى نفوسهم من الفرح فرفعوا راية تنكريد وركزوها عالية على كنيسة أم الاله[1] » . وإذن فلم يعد ثمّت شك يخامر نفوس الصليبيين فى نوايا مسيحيّ بيت لحم ، وهل أدلّ على إخلاصهم لهم من تعريضهم أنفسهم للخطر فى الوقت الذى لا تعدو فيه هذه الربيئة أن تكون مائة فارس، لم تقدم للفتح !!

* * *

هكذا كانت المرحلة الأولى من مراحل الزحف الصليبي فى سبيل الغاية التى قامت من أجلها قوات أوربة الغربية .

---

(١) Foucher des Chartres, pp. 354 — 5 ; Albert d' Aix, p. 462 ; Guill. de Tyre, p. 316 .

الفصل السادس

فتح بيت المقــدس

موكب الفتح . الهجوم على المدينة . الحكومة الجديدة بين الدينيين والعلمانيين .
نجاح جودفروى فى تولى الحكم . الحكم الإقطاعى .
بيت المقــدس مملكة لاتينيــة .

بلغ الصليبيون بيت لحم ، فكان بلوغهم إياها إيذانا بأنه قد آن لهم أن يستريحوا بعد رحلة دامت أكثر من عامين لاقوا فيها من الآلام والعذاب والأمراض والجوع ما تظل ذكراه باقية فى أذهانهم وأذهان مؤرخى الحملة الذين حفظوها لنا ، وشعروا جميعا بالعزاء الروحى والسكينة تنزل فى قلوبهم ، وعادت إلى أذهانهم ذكرى السيد المسيح .

ألم تكن هذه القرية مهد طفل نفخ الله فى أمه من روحه ؟

ألم يكن هذا الطفل هو الذى رأى مجوس الشرق نجمه فأتوا ليسجدوا له ويقدموا له ذهباً ولبانا ومراً ؟

ألم تكن البلد الذى شاهد خروج المسيح مع أمه العذراء وخطيبها يوسف النجار قاصدين مصر ملجأ كل مضطهد ، وملاذ كل خائف على عقيدته فى القديم والحديث ؟

هذه هى بيت لحم !

هذه هى القرية التى خرج منها مدبّر يرعى شعب إسرائيل !!

وهذه هى بيت المقدس يبلغها جودفروى بالجند يوم الثلاثاء ٧ مايو سنة ١٠٩٩ م فتطالعهم قبابها فتلهب نفوسهم حماسة ، وتشتد منهم العزائم .

اليوم يعود أتباع « الراعى الصالح » بعد ألف ومائة من السنين ، مهاجرين محاربين ، ويدخلون البقعة المقدسة عند الأديان السماوية الثلاثة ، فلا عجب إذا بكوا وجثوا على ركبهم معفرين وجوههم فى ترابها ، ولعلهم فى هذه الآونة بالذات تذكروا أنهم قد ورثوا الحياة الأبدية مصداقاً لقول المسيح[١] « كل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية » ، وإنا لنسمع نغمة فى مؤرخ ليست فيها عبارة التاريخ ولكنها أقرب ما تكون إلى المناجاة حيث يقول « سلام لك أيها السيد الكريم ، ما أغزر الدموع المنسكبة من عيون شعبك حينما طالعوا أسوار وطنك وأسوار أورشليم . . لقد مسّت جباههم الأرض محيين قبرك المقدس . أنت أيها الجالس عن يمين الله الآب ! » .

* * *

فوجىء افتخار الدولة — حاكم مصر على القدس — بمقدم هذه الجموع اللجبة ، وأدرك ضعفه عن مقاومتها فعمد إلى تسميم الآبار وطمّ القنوات[٢] وأخرج النصارى من المدينة ، وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان[٣] .

---

(١) متى ١٩ : ٣٠ ؛ مرقس ١٠ : ٢٩ — ٣٠ .

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ١١٦

(٣) Foucher des Chartres, p 359 ; Raimond d' Aguilers, pp. 291 — 294, وراجع أيضاً ابن الأثير : الكامل ، (طبعة مصر) ج ٨ ص ١٨٦ .

أما الصليبيون فقد قسموا أنفسهم أقساماً حتى يكون حصارهم المدينة من جميع منافذها فلا يمكّون المسلمين من الاتصال بالخارج ، فوقف جودفروى دى بويون بقواته فى الناحية الشمالية الغربية من المدينة ، وامتدت قواته حتى باب يافا وانضمت إليه كتائب تنكريد ، ووقف إلى الجنوب منه ريموند كونت صنجيل ، لكنه ما لبث أن انتقل بمن معه إلى ناحية جبل صهيون ؛ أما روبرت دوق نرمنديا فقد وقف تجاه باب هيرودوتس ومعه روبرت كونت فلاندر فى مواجهة باب دمشق . أما الناحية الشرقية فقد خلت من المهاجمين الصليبيين[1] الذين أخذوا يضيّقون الخناق على من فى الأسوار ويرمونهم بالمنجنيق ، وركزوا هجماتهم على القسم الجنوبى من المدينة ، ولكنهم قاسوا الكثير من نقص الذخيرة وقلة المياه وحرارة الجو وشدة المحصورين فى دفعهم عن البلد الذى هو عندهم من الأماكن المقدسة أيضاً حيث أسرى الله بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله . فالحرب هنا تختلف فى طبيعتها وموحياتها ومؤثراتها عن كل حرب سابقة ، وهى هنا تعاون الدين والدنيا فى حمل الجانبين على القتال العنيف ، وأدرك الصليبيون أنهم يواجهون هذه المرة خصما يرى أن فى ضياع بيت المقدس ضياعاً لهيبته السياسية وانتهاكا لحرماته الدينية . وأخذ المسلمون من جانبهم يباغتون العدو بهجمات طارئة قصيرة المدى على غير توقع ، فكان ذلك أشد خطراً على الصليبيين من الحرب النظامية ؛ ولما كان المسلمون يدركون انعدام الماء عند المهاجمين وسفرهم مسافة ستة أميال فى طلبه[2] فقد راحوا ينصبون

(١) Chalandon, Hist. de la premiére croisade, p. 269 ; Grousset, Hist. des croisades, t. I, pp. 154 — 5 .

(٢) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ١١٦

لهم الكائن فى الطريق وآذرهم بذلك إيذاءً شديداً هلك من جرائه جمع غفير منهم ، أضف إلى هذا أن الشهر كان شهر يونيو حيث بلغت الحرارة حداً لم يَعُدْ فى طاقة الصليبيين احتماله ، فتكاتفت هذه العوامل فى مضايقة الفرنجة الذين رأوا ألاّ بدَّ لهم من اصطناع كل وسيلة من وسائل القوة ، فقرّروا بناء آلات الحصار والحرب ، ونصبوا الأبراج وأسندوها إلى السور[١] ، وجرت الظروف رخاء وفق أهوائهم إذ قدم إلى ثغر يافا يوم ١٧ يونيو ١٠٩٩م بعض أساطيل جنوية ، « وكان هؤلاء فى العدد القليل لانشغال الجمهورية الجنوية إذ ذاك بالحرب الأهلية ، ويتراوح عدد هذه الأساطيل التى ساهمت فى مساعدة الصليبيين فى الفتح بين ست وتسع سفن[٢] » لكنها حملت إلى المهاجمين ما هم فى حاجة إليه من الذخيرة والأخشاب والعمال ، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا قوة من رجالهم أخذت تجوس خلال بعض النواحى مسترشدة بالجماعات المسيحية البلدية فى الوقوف على الأماكن التى تتوفر بها الأخشاب ، وعمل الجميع فى البناء فلم يتأخر عنه الزعماء بل عملوا جنباً لجنب مع أصغر الحجاج والمحاربين ، مما شدد من عزائم الجميع ، وأدركوا أنهم يحاربون من أجل المسيح ، وأقسموا « على تطهير أرض السيد من الخطاة[٣] » .

وإذا كان للرؤى دخل من قبل فى موقف الصليبيين أمام أنطاكية فقد

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

(٢) Heyd : Hist. du Commerce, t. I, p. 134 et note 6

(٣) Albert d' Aix, p. 470 ; Raimond d' Aguilers, pp. 266 — 8 ; Guillaume de Tyre, pp. 337 — 40 .

كان لها دخل هذه المرة أيضا حين جاء أحد القسس واسمه بطرس ديزيديريوس وذكر أن أسقف يوى الراحل تجلىّ له فى النوم طالباً إليه أن يأمر الصليبيين بالكف عن أنانيتهم، وأن ينبذوا تلك الإثرة التى يأبون التخلىّ عنها وأن يصدقوا النية فى أداء مانهضوا من أجله، وأنه يأمرهم بالخروج حفاة فى موكب يسيرون به حول أسوار بيت المقدس متوجهين بقلوب صافية إلى الله حتى يواتيهم النصر المبين الذى يقدره بعد تسعة أيام من ذلك الموكب؛ ولقى هذا الحلم تصديقا عاما بين جماعات المحاربين كبارهم وصغارهم، الذين راحوا ينفّذون ما أوصى به الأسقف للقسيس.

فلما كان يوم ٨ يوليو ١٠٩٩[1]، انتظم الصليبيون حفاة فى صفوف كان على رأسها فئة الأساقفة ورجال الدين الذين خرجوا فى ملابسهم الكهنوتية حاملين الصلبان والآثار المقدسة، ثم تتابعت جموع المحاربين الحجاج بعد هؤلاء حيث تقدمهم الأمراء والفرسان وخلفهم أتباعهم وعسكرهم ثم المشاة فالحجاج، فكان موكبا لم تشهد مثله تلك البقعة المقدسة فى تاريخها الحافل إلاّ قليلا، وكان أحجى به أن يكون للسلم لا للحرب، وللرحمة لا للقتل؛ فلما فرغ هؤلاء الحجاج من تطوافهم حول المدينة صعدوا جبل الزيتون حيث قام فيهم بطرس الناسك واعظاً ثم ريموند داجيل المؤرخ وأرنولف كاهن روبرت النرمندى، وليس من شك فى أن هذا الحلم وما جاء فى أعقابه من تطواف وعظات فعل فعل السحر فى نفوس هولاء المحاربين، فشدّ من العزائم الواهنة وتألّف — ولو إلى حين — القلوب المتنافرة، وبثّ الأمل فى نفوس المحاربين الذين بعدت الشقة بينهم وبين بلادهم ولكنهم

(١) يعادل اليوم الخامس من رمضان ٤٩٢ هـ.

الآن صاروا فى الناحية التى شهدت دعوة كلمة الله التى ألقاها إلى مريم البتول.
فلا عجب، إذا أقبلوا على إكمال حججهم الأكبر بنفوس مغتبطة جذلى، وقلوب
مستبشرة، فراحوا يتممون ما كانوا قد بدءوا فيه من صنع آلات الحصار.
ولم يتأخر عن هذا العمل أحد ما بل اشترك فيه الجميع رجالا ونساء وأطفالا،
حتى المرضى والشيوخ: كل بحسب قدرته، ولم ينقض يومان حتى كانت هذه
الآلات قد استوت لترمى جانبا معينا من المدينة بنيرانها وأحجارها، فكان
مجموع ما أقاموه ثلاثة أبراج أقيمت دون أن تعلم بخبرها حامية البلد التى
شرعت متأخرة فى تحصين المدينة، وإن جاء تحصينها إياها — على حدّ قول
الجسنا — عجيبا رائعا[1] وإن لم يكن شاملا لجميع النواحى اعتماداً منها على
وجود خندق عقدت عليه الآمال، ولكن يؤتى الحذر من مأمنه.

* * *

شرع الصليبيون فى الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩ م، ووجدوا
من الحاميات الإسلامية دفاعا قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار
والأبراج المتحركة، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية حتى إذا
كان صباح الجمعة بلغ القتال ذروته، ولم يعد أحد يتبين أى الكفتين ترجح
وأيهما تشيل، وتقدم كونت تولوز ببرجه الخشبى حتى حاذى السور مجتازاً
الخندق، واستمر القتال على هذا المنوال بضع ساعات من يوم ١٤ يوليو
حتى انتصف النهار حيث نجح جودفروى وأخوه أستاش فى إقامة جسر يمتد
من البرج الذى كان فى عهدتهما إلى سور المدينة، ونجح الدوق فى اقتحام
هذه الناحية فى إثر جماعته من الفرسان الذين استطاعوا أن يجدوا لهم منفذاً

(١) أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى)، ص ١١٧.

فدخلوها منه وانطلق بقية الفرسان وراءهم؛ واندفع تنكريد بمن معه إلى داخل المدينة التى أذهل أهلها مرأى المغيرين أنىّ اداروا أبصارهم ، فاستبدّ بهم الفزع لاسيما وقد رأوا الفرنجة يفتحون أبوابها للمشاة الذين اندفعوا كالسيل الأتىّ يلمح الموت فى سيوفهم ، ويصرخون صرخات مدوّية مفزعة ، فلم يجد المسلمون ملاذاً يعتصمون به سوى الحرم الشريف ، وانثالت جموعهم إليه ، فتعقبهم الصليبيون بقيادة تنكريد ، وانضمت إليه قوات ريموند الصنجيلى ووضعوا السيوف فى اللائذين بالحرم ، وسالت الدماء حتى خاضوا فيها إلى ركبهم أو على حد تعبير مؤرخنا حيث يقول Ut Nostri in sanguine illorum pedes usque ad cavillas mitterent. مما أخذ على الصليبيين فيما بعد ، واستحال المسجد الأقصى إلى بركة من الدماء كان منظرها مثيرا للمغيرين ، حتى لقد نكثوا بعهد كان تنكريد قد قطعه على نفسه لجماعة من العرب أمّنهم على حياتهم[1] . فكانت تلك الوقعة « لطخة » فى تاريخ الصليبيين كما يقول الأستاذ جروسيه[2] ، كما أنها جعلت « الصليبيين لا يذكرونها إلا وتقشعر أبدانهم فزعاً واشمئزازاً منها » على حد تعبير المؤرخ الصليبى وليم الصورى ، فلم يرحموا شيخا لهرمه ، ولا عالما لفضله ، ولا طفلا لضعفه ، ولا امرأة لعجزها . ووقع على اليهود الذين اعتصموا بكنيسهم ماوقع على المسلمين فقد أحرق الصليبيون الكنيس بمن فيه .

كانت تلك المذبحة الشنيعة سبة فى تاريخ الصليبيين لم يستطع مرور الأيام

(١) أبو الفدا : المختصر ، ص ٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، (طبعة أوربة) ، ص ١٩٨ ؛
Albért d' Aix, p. 485 : Guillaum de Tyre, p. 334.

(٢) Grousset, Hist. des Croisades, t. I, p. 165 .

محوها من الأذهان ، حتى يقول أحد المؤرخين المحدثين إن كثيرا من النصارى أنفسهم استبشعوا ما جرى ، وكان ما قام به المسيحيون من سفك الدماء برهانا على التعصّب المسيحي[١] .

وقد رنّ صدى هذا الحادث الجلل في الآفاق ، فقامت من دمشق إلى بغداد وفادة برياسة زين الدين أبي سعد الهروى مستغيثة بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ، وراح الشعراء يحرّضون ، فكان مما قيل قول أحدهم[٢] :

فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
تحت السيوف البيض محمرة الظبي ... وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاف الطعن والضرب رقعة ... يظل لها الولدان شيب القوادم
وكيف تنام العين ملأ جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتمو ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم ، يقرع بعدها سن نادم
أرى أمتى لايشرعون إلى العدا ... رماحهمو ، والدين واهى الدعائم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... وتغضى على ذل كماة الأعاجم ؟

وكثر التحريض من جانب الشعراء المختلفين ، وها نحن أولاء نسمع أخرى يقول فيها القائل :

أحل الكفر بالإسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع ، وحمى مباح ... وسيف قاطع ، ودم صبيب

(١) Runciman, Hist. of the Crusades, vol. I, p. 287.

(٢) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥٢١ .

وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصِب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خَلوقٌ وتحريق المصاحف فيه طيب[١]

والظاهر من هذه النغمة أن الخوف من الصليبيين سرى فى الشرق الإسلامى ، وخدر الأعصاب فلم تجد هذه الصرخات صدى ، وقنع المسلمون بالتحسر وإبداء الأسى ، ونسوه إلى المقادير ، وهل يقول العاجزون إذا ابتلوا إلا أنه أمر الله يانفس فاصبرى ؟

ومهما يكن أمر الجماعات الإسلامية خارج بيت المقدس ، فإن الجماعة التى كانت بها بقيادة افتخار الدولة لم تلبث أن استسلمت لكونت تولوز ، بعد أن أمّنهم على أنفسهم ، وتعهدوا له بالمضى إلى مصر ، وخاف ريموند أن يثب عليهم الصليبيون فسار بصحبتهم حتى وصلوا عسقلان[٢] .

باستسلام فخر الدولة آلت بيت المقدس للصليبين ليبدأ نوع جديد من الصراع استمر طيلة قرنين من الزمان حتى تهيأ للمسلمين استرداده .

* * *

على أن تملك الفرنجة للقدس أثار مشكلة داخلية هى انقسامهم فيما بينهم على من يتولى أمرها ؟

أيكون ذلك لأحد من الزعماء الحربيين أم لأحد من رجال الدين ؟ واختلفوا حول ذلك الأمر اختلافاً كبيراً ، وظهرت منذ البداية روح أميل لإيكال الحكم فيها إلى جماعة الكنيسة ، وحجة هذا الفريق أن الحملة الصليبية حملة بابوية دينية ، دعى إليها البابا إربان الثانى ، ولم يسمح بأن تكون قيادتها لأحد من ملوك أوربة بل ولا لواحد من الأمراء الذين ساهموا فيها ، لكنه

(١) ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٢٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨ ، Foucher des Chartres, p. 361

وكل القيادة إلى نائبه الأسقف أديمار دي مونتل ، وبذلك اتسمت منذ اللحظة الأولى بالسمة الدينية ، ثم إنها اتجهت — من الناحية النظرية — لاستخلاص بيت المقدس والضريح وتأمين سبيل الحجاج المسيحيين فى أدائهم مناسك الحج وشعائره ، أضف إلى هذا أنه قد صحبها جمع كبير من رجال الدين مابين شمامسة وأساقفة ، وساهم بعضهم فى القتال على قدر طاقته ، لذلك لا نعجب إذا رأينا أن هذه الفئة من رجال الدين قد أخذت مكانها فى إثارة مشكلة لم تكن متوقعة : هى البدء بانتخاب بطرك للمدينة قبل الشروع فى اختيار حاكم لها ، وحجة هذه الجماعة أن لابد من وجود بطرك ليرأس مجمع انتخاب الحاكم أو الملك وليقر هذا الاختيار ، وبذلك يكتسب هذا الاختيار الشرعية اللازمة لقيامه .

لكن من ذا الذى يُعهد إليه بهذا المقام ؟

لقد كانت هناك شخصية انعقد الإجماع على احترامها من الزعماء والحجاج على السواء ، لكن شاء القدر أن يحرم الصليبيين من هذه الشخصية ونعنى بها أديمار دى مونتل مندوب البابا ، ولم يخلف وراءه من يستطيع ملأ الفراغ الذى كان يشغله ، بل إن الأسقف وليم أورنج الذى كان مفروضا فيه أن يخلفه قد مات فى معرة النعمان .

واقترحت بعض أسماء لشغل مقام بطركية بيت المقدس وكان من بينها أرنولف مالكورن ، غير أن هناك أمرين كانا يقفان عقبة فى سبيل تبوئه هذا المركز : أحدهما انغماره فى المسائل الدنيوية انغماراً يقلل من أمل الراغبين فى بطركته ، وثانيها أنه كان نرمنديا ؛ ومن ثم لم يحظ بتأييد رجال

الدين البروفنساليين ، أى أن مطامع الزعماء الدنيويين أطلت برأسها فى اختيارهم بطركا .

نظر القوم حولهم فلم يجدوا ثم من يشغل البطركية ، واضطروا تحت هذه الظروف إلى صرف النظر — مؤقتا — عن اختيار بطرك لبيت المقدس وراحوا يفكرون فى اختيار حاكم لها من بين المدنيين .

لقد تم للصليبيين فتح بيت المقدس وتم لهم إزالة السلطان الإسلامى عنها ، وبقيت مسألة حكمها ، فلمن تساق الحكومة ؟

كانت هناك أربع شخصيات ضخمة تتولى زعامة الحجاج المحاربين هى ريموند كونت صنجيل ، والدوق جودفروى ، وروبرت كونت فلاندر ، وروبرت دوق نرمنديا ، وكان لكل منهم ما يزكيه فى هذا المنصب ونعنى به حكومة بيت المقدس .

أما روبرت كونت فلاندر فلم يكن طامعا فى الحكم ، بل كان يؤثر عليه الرجوع إلى إمارته بعد أن تم للصليبيين ماحرجوا من أجله ، وشاركه فى هذه الرغبة أيضا روبرت دوق نرمنديا ، وبذلك انحصر الملك فى اثنين هما ريموند كونت تولوز وجودفروى دوق اللورين ، واختلف الصليبيون فيما بينهم حول أيهما أحق بالحكم .

أما ريموند الصنجيلى فقد كان هناك ما يزكّيه ، من ذلك أنه كان أول الزعماء الحربيين وأكثرهم اتصالا بالبابا إربان الثانى حتى قبل انعقاد مجمع كليرمونت ، كما تعدّدت مرات اتصاله به حول استخلاص بيت المقدس ، أضف إلى هذا أن له من تقدم سنّه خبرة حنكته بها الأيام ، ومن ولايته

فى ولايته تمرساً بالحكم ، غير أن هناك من الأمور ما كان يعد نقيصة تبعده عن امتلاك بيت المقدس ، من ذلك ما أخذه عليه الصليبيون من تمسّكه بحق الإمبراطور فيما فتحه الصليبيون .

انتهت رحلة الحجاج الأوربيين المسلحين القادمين إلى الشرق على رأس القرن الحادى عشر للميلاد بالاستيلاء على بيت المقدس ، وهنا يبدأ دور جديد من العلاقات المحلية والنظم المستمدة من عادات الشرق والغرب معاً ، وينسى المغير الأوربى وطنه ليندمج اندماجاً كلياً فى الشرق العربى ، وتتفتح آفاق جديدة فى التفكير والثقافة ، وتتعدد نواحى النشاط الاجتماعى والاقتصادى والترابط بين الشرق والغرب .

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وإخراج أهله المسلمين منه خاتمة مطاف حربى استمر بضع سنوات ، حرم فيها الحجاج الأوربيون من رؤية أوطانهم وأولادهم ومرابع شهدت فترة من حياتهم ، كما هلك الكثيرون منهم فى مراحل السير المختلفة . أما الذين قيضت لهم الحياة فقد تنازعهم الحنين إلى أوطانهم الأولى ، وحببها إليهم أيام شبابهم التى قضوها هناك ، كما استبد بهم الأسى على من قضى من رفاقهم . على أن هناك عاملا هدهد من أحزانهم ذلك هو امتلاكهم بيت المقدس ، وبذلك تحققت أمنية من أشهى أمانيهم بل غاية أمنياتهم .

فتحت مدينة بيت المقدس الحافلة بالذكريات الدينية العميقة ، وهنا ظهر الخلاف واضحاً بين الصليبيين أنفسهم حول إدارة دفة الأمور بها ، أتوكل إلى رجال الدين يدبرون شئونها ويصرفون أمورها حسب وجهة نظرهم وبما يتفق وطبيعتهم ؟ أم يختار أحد الفرنجة الأمراء ليكون ملكا ؟

انقسم القوم فريقين لكلٍّ مؤيدوه ومناهضوه ، أما رجال الدين فقد أنكروا أن يتوج أحد ما فى البقعة التى عُذّب فيها المسيح « وتوج فيها بتاج من الشوك » ، ثم إنهم قالوا إن بيت المقدس ليست كباقى مدن العالم ، ولكنها مدينة الرب Civitatis Dei ، وليس بنا من حاجة للقول بأن هذه الفكرة لم تجد مكاناً خصيباً فى نفوس الأمراء ، ومرجع ذلك هو تغلب المنفعة الذاتية على الجانب الروحى ، فهم يرون أنهم قاموا بأجل عمل يثابون عليه .

ألم يخرجوا من بلادهم وأرواحهم على أكفهم لا يدرون متى يلاقون منيتهم؟ ألم يغادروا الأهل والأوطان فى سبيل نصرة « الفكرة المسيحية » التى دعى إليها البابا إربان الثانى ، وعمل بطرس الناسك بشعوذته الدينية على تثبيتها بكل الوسائل التى تجوز على السذج لأنها تخاطب العاطفة أكثر مما تخاطب العقل ؟ وإذا كان المسيح هو القائل : اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . فما أجدر هؤلاء الأمراء أن يجنوا ثمار تضحياتهم فى الميادين المختلفة بتتويج أحدهم ملكا على بيت المقدس .

غير أن رجال الدين أرادوا أن لا تكون يد فوق أيديهم فى تصريف أمور المدينة ، وما دامت هى « مدينة الرب » فهم أولى من غيرهم بأن يكونوا أصحاب السلطة العليا ؛ هذا إلى أنهم كانوا يرون أن الحملة حملة دينية بدليل أن البابا آثر إلقاء قيادتها إلى « إديمار دى مونتل » ولم يقبل إيكالها إلى كونت تولوز . كما أنه لم يختر أحداً لتولى قيادتها العامة بعد موت نائبه أسقف بوى . ثم إن فى الخطاب الذى أنفذه الصليبيون إلى البابا لدعوته لتوليها بعد موت أديمار اعترافاً صريحاً بالزعامة الدينية وترجيحها على الزعامة الدنيوية ، وطبيعى أن يشتد الجدل بين الفريقين حول هذه

المسألة الخطيرة التي لا يستبعد أن تقسم الصليبيين إلى معسكرين مختلفين في الرأى تمام الاختلاف بصدد مشكلة لها أهميتها العظمى ؛ وكان أخشى ما يخشاه أصحاب التوفيق أن يذهب الفرقة في الرأى إلى فساد ما بينهم . لذلك رأى فريق منهم عقد مؤتمر يضم عشرة من رجال الدين والأمراء لتبادل وجهات النظر المختلفة والاستقرار على رأى يرضى إلى حد ما الطرفين حتى لا تكون فتنة ، واتفقوا على وجوب اختيار واحد من الأمراء ليكون « رئيساً » ومدبراً لشئون بيت المقدس .

لم يكن ذلك نهاية للشقاق بل بداية نزاع جديد ، ولكنه ليس نزاعاً بين البارونات وبين رجال الدين — بل انحصر بين الأمراء أنفسهم — فقد رأى كل منهم ذاته أهلا لتولى هذه الرياسة ، ومهما يكن الأمر فقد انحصر النزاع بين شخصين : هما جودفروى دى بويون وبين ريموند الصنجيلى الذى لم يكن ثم أنكد حظاً منه في هذه الرحلة المسلحة منذ البداية حتى النهاية ، فقد خدعه البابا فيما كان يطمع فيـــه من تولى قيادة الحملة ثم إخراجه من أنطاكية ، وها هى الفرصة تلوح أخيراً لتعويض ما فقده . فهل ترى الحظ يؤاتيه بعد أن أخطأه مرتين ؟ وهل آن للأقدار أن تكفـّر عما حالت بينه وبين نواله فيتوج على بيت المقدس ؟ ليس بنا من حاجة لأن نقول إنه بذل غاية جهوده حتى يقع الاختيار عليه . فهو لا تنقصه الشجاعة ، ولا المال ، ولا الرجال ، ولا الحماسة الدينية ، وهو إلى جانب هذا يبز منافسه « جودفروى » في بعض هذه النواحى . فجودفروى أقل اندفاعاً للحروب من ريموند ، وأميل للسلم . ثم إنه بادر حين مقدمه إلى القسطنطينية بقطع يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى ، وريموند قبل كل شىء لا يعنيه أن يقف وحده في سبيل رأى

يراه حتى ولو خالف الإجماع ما دام يعتقد صحة هذا الأمر ؛ لكن فاته أن هذه الميزات الأخلاقية الطيبة إنما هى التى تحول بينه وبين تولى شئون بيت المقدس ، لا سيما وأن جميع البارونات ورجال الدين يكرهون أن يتولى الأمور رجل له من شخصيته وقوته ما يحول بينهم وبين ما يطمعون فى تحقيقه . فالأمراء يريدون « ملكا » لا يقف حجر عثرة فى سبيل مطامعهم وأهدافهم الدنيوية ، وأدركوا فى يُسر أنهم لا بد وأن يرتطموا بشخصية ريموند القوية وحينذاك لا يصده شىء ما عن كبح جماحهم ، وأما رجال الدين فقد كانوا أميل لرجل يحسون فيه عطفاً على الدين ، ولا شك أنه جودفروى ، وسرى ذلك حالا فى إعلان تبعيته لدامبرت بطرك بيت المقدس الجديد . ولقد تم اختيار جودفروى وإيثاره على منافسه ، وسيقت إليه مملكة بيت المقدس ، ولكن نزعته الدينية أبت عليه أن يلبس تاجاً من الذهب « حيث توج السيد بالشوك » ، واكتفى كما رأينا بأن يلقب بحامى بيت المقدس .

ويذهب أحد المؤرخين المحدثين للقول بأن سبب رفض الأمراء لريموند إنما يرجع إلى أنهم كانوا يدركون فيه ميله للاتفاق مع بيزنطة ، وهو رأى قد يكون له ما يبرره ، لكن من اليسير استبعاد طروء هذه الفكرة على أذهانهم ، لا سيما وأن واحداً من أكبر رجالاتهم — وهو بوهيمند — لم يخجل فى بداية الأمر من إظهار كل مظاهر الولاء والتبعية المذلة له ولرفاقه وخضوعه خضوعاً تاماً للإمبراطور رغم ما كان يرتجى منه من وقوفه موقف المناهض له المدافع عن الشخصية الصليبية . فهل نرى هؤلاء البارونات أحرص منه على المصالح العامة ؟ وهل تراهم لا يبادرون إلى الانضواء تحت راية الإمبراطور إذا ما لوّح لهم بمقاطعة أو إمارة ؟ . . هنا قد تبدو مسألة

أخرى وهى « كيف لم يتيسر لريموند أن يتولى مملكة بيت المقدس وهو أغنى الأمراء الإقطاعيين فى الحملة ؟ » وتفسير هذه المسألة عند مؤرخه « ألبرت ديكس » حيث يشير إلى أن رجاله خافوا — إذا سيق إليه تاج مملكة بيت المقدس — أن يمنعهم من الرجوع إلى أوربة ، وأن يحملهم على الاستقرار فى فلسطين ، وهى وإن كانت عزيزة عندهم إلا أن عاطفة الأسرة أجدر بأن تراعى بعد أن تهيأ لهم من النصر القشيب ما مكنهم من تحقيق هدف الحملة الرئيسى ، ثم إن انصراف كونت فلاندر وكونت نرمنديا عن المنافسة حول امتلاك تاج مملكة بيت المقدس وأوبتهما إلى أوربة مع رجالهما وأتباعهما حرّك الذكريات العميقة فى نفوس رجال كونت تولوز ، فكرهوا أن يتحقق شىء ما يكون من ورائه إجبارهم على البقاء بفلسطين ، وقد أدت كل هذه العوامل مجتمعة إلى صرف التاج إلى منافسه جودفروى ، وهكذا قد توانى الأمانى الطيبة أبعد من لا يرتجيها .

* * *

توج جودفروى على بيت المقدس ، وحرم كونت تولوز من هذه الأمنية . فما مقدار الخطأ أو الصواب فى هذا الاختيار ؟

إن استعراض الأحوال السياسية والاجتماعية ، والدراسة الجغرافية لمملكة بيت المقدس وما جاورها من الأقاليم المسيحية والإسلامية تبين لنا بوضوح ما انطوى عليه هذا الاختيار من تجنب الصواب بالنسبة للصليبيين ، غير أن مطامع كل من الفريقين صرفته عن رؤية ما يحوطه من خطر جسيم يهدد بيت المقدس كما يهدد بقية الإمارات اللاتينية فى الشام وشمال العراق ،

وهو ما أثبتته الحوادث بعد بضع سنوات من ظهور حركة الجهاد على يد، مودود فإيلغازى فبلك فآق سنقر فزنكي ، وانتهت هذه الحركة بقيام كتلة إسلامية متحدة تمتد من شمال العراق وتشمل بلاد الشام ومصر زمن نور الدين ثم صلاح الدين من بعده ؛ ولقد فاتت المؤتمرين ظاهرة قوية هي أنهم يعيشون ويتنفسون فى محيط إسلامي خالص ، وأن من معهم من الحجاج الأوربيين - إنما هم قلة - إذا قيسوا بالجموع الإسلامية الكثيفة التي يحكمونها أو يجاورونها .

حقيقة أن هذه القوات الإسلامية المبعثرة لم تستطع الصمود فى وجه الجماعات الصليبية ، لكن ليس معنى ذلك تجاهلها بالمرة ، فهى إنما تمر بدور من الضعف لا تلبث أن تنهض منه فترد اللطمة باللطمة وتحاول أن تدفع عن أرضها المغير الأوربى وتتآلف قواتها المختلفة فى شتى البقاع ، وإذن فمعنى هذا أنه كان ينبغى أن تكون مملكة بيت المقدس الجديدة مملكة « حربية » خالصة . والظاهر أن هذا الأمر لم يفت جودفروى ذاته حين سمى نفسه « حامى » قبر المسيح ، وهل تكون « حماية » الشيء إلا حين يخشى عليه من مغير أو مهاجم ؟ ولعل هذا التفسير قد طرأ على بال جودفروى نفسه منذ ثمانية قرون ونصف ، ومهما يكن الأمر فقد آل حكم مملكة بيت المقدس إلى جودفروى رغم العوامل الجمة المزكية لمنافسه الذى ما لبث أن رحل إلى أوربة .

• • •

لم يكن معنى خلو الجو من ريموند الصنجيلى الراحة التامة لجودفروى ، بل الواقع أن الحزب الدينى رأى الفرصة مواتية للتدخل فى الشئون العامة ،

وذلك لأنه لم يعد على مسرح السياسة الصليبية ببيت المقدس سوى رجل حسن الطوية من اليسير اتخاذه لعبة فى يد القوى ، سواء أكان مصدر القوة دينيا أم دنيويا ، مع أن ظواهر الأمور وبواطنها تتفق على أن جودفروى كان يؤثر الناحية الدينية ، ولو لم يكن جودفروى أميراً لكان من رجال الكهنوت ، ولقد تم انتخاب بطرك لمدينة بيت المقدس هو أرنول الرهاوى وإن شاب انتخابه أمور تحط من قدر هذا الانتخاب وتسىء إليه لاسيما كرجل دينى فى بلدة تتجه إليها أنظار المسيحيين قاطبة ، كما أنه لا يتفق مع رغبة الكنيسة الكاثوليكية فى السيطرة على كنائس المذاهب الأخرى .

بهذا تهيأ لمدينة بيت المقدس أن تشغل فى العالم المسيحى الشرقى مكانة الرياسة الدينية والسياسية فى نظر الصليبيين ، وذلك على اعتبار أن رئيسها حامى القبر المقدس والأماكن المقدسة التى يحج إليها النصارى من جميع بقاع العالم وعلى اختلاف مذاهبهم الدينية ؛ ثم إن بيت المقدس ذاتها كانت بهرة اجتمعت فيها شتى الأجناس حتى ليذكر جاك فترى من مؤرخى القرن الثالث عشر فى « تاريخه الشرقى » أنها كانت تضم بين أسوارها جماعات من البولان والجنوية والبيازنة والبنادقة والسريان والروم والملكانيين واللاتين والمسلمين وجماعات من اليعاقبة والنساطرة والمارون والأرمن وأهل جورجيا المستعربين وأشتاتا أخرى غير هذه كلها .

* * *

والمدقق للحملة الصليبية الأولى يتبين فى غير عسر أنها كانت حملة إقطاعية بجانب ما يمكن أن توصف به من الصفات الأخرى ، فكل من بوهيمند

وكونت تولوز يعول جماعة من الحجاج النصارى وينفق عليهم من جيبه الخاص ، وأبرز دليل على ذلك أن بوهيمند هدّد بقية الأمراء والكونتات بالانسحاب من حصار أنطاكية — وهم أمامها — والأفول إلى أوربة بمن معه إن لم يعاهدوه على تسليمها إليه ، كما أن خوف أتباع الكونت تولوز من الإقامة فى فلسطين تجلى فى كراهيتهم أن يساق إليه تاج المملكة الجديدة ، وذلك لأنهم يعرفون أنهم مرتبطون به أشد الارتباط ، فلئن أقام أقاموا وإن رحل كانوا فى ركابه ؛ كما أن انفصال بلدوين دى بورج واستئثاره بإمارة الرها جعل من معه من الرجال ينحرفون عن الغرض الذى قدموا من أجله من أوربة ويستقرون كفاتحين فى شمالى العراق وتنقطع كل صلة لهم برفقائهم فى الحرب وبيت المقدس ، وكل هذه دلائل جلية على ما تنطوى عليه الحملة من روح إقطاعيـة ، والمتتبع لتاريخ كل من هؤلاء الأمراء فى أوربة قبل قدومهم للشرق يرى هـذه الروح واضحة فى محاربة بعضهم البعض ، كما أن فى خطبة البابا إربان الثانى إشارة صريحة لتلك المسألة ، أضف إلى هذا أن المؤرخ الصليبى « فوشيه دى شارتر »[1] لم يفته النص عليها فى تفسيره للحملة من أن الضرورة ألحت على أولى الأمر فى إنهاض هـذه الحملة حتى تتجه السيوف ضد الأجانب الأغراب ، وهو يقول ما نصه necesse erat ut, malis tantimodis dimissis monitione a papa Urbano sic exorsa, contra paganos saltem certamina inter se dudum consueta distenderent.

° ° °

لم يكن معنى ذلك استقرار الأمور نهائيا للصليبيين ، إذ ما كان لمصر أن

(1) Foucher des Chartres, pp. 326 — 7

تقف إزاء هذه الحوادث المفجعة مكتوفة اليدين ، لا سيما بعد أن رأت احتلال الفرنجة للد ولغيره من المدن ، وانضمام العناصر المسيحية إلى جانبهم مما يؤدى بطبيعة الحال إلى تقوية العنصر الأوربي معنويا ، ومحاولته أخذ بقية ما فى يد الجاليات المصرية من المدن الساحلية ، وما يترتب على هذا من وفود الأساطيل الأوربية من جنوة والبندقية وأمالفى وانجلترا ونرمنديا واسكنديناوة ، الأمر الذى يجعل من شرقى البحر الأبيض المتوسط وحدة بحرية صليبية تنازع مصر السيادة فيه ، فلا عجب إذا تحركت مصر وإن جاء تحركها متأخراً لوقوعه فى أغسطس ١٠٩٩ (= رمضان ٤٩٢ هـ) ، ولم يخف خبر التحرك عن سمع الصليبيين فتردد صداه فى القدس ، وسمع به جودفروى ، فأنفذ على جناح السرعة رسولا إلى تنكريد — وكان فى نابلس — يستدعيه هو والقوات التى معه للمساهمة فى دفع الخطر الفاطمى ، وشاءت الظروف أن تذهب أبعد من هذا فى خدمة الصليبيين ، فوقعت فى أيديهم ربيئة مصرية أرغموها على الإفضاء لهم بخطة سير الجيش المهاجم ، وعرفوا منها أن الأفضل [١] خرج بنفسه على رأس المهاجمين وأنه قد بلغ عسقلان وهو فى انتظار الأسطول والنجدات التى وعده العرب [٢] بها .

بعث جودفروى إلى بقية الأمراء الذين ساهموا فى فتح بيت المقدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة ، ولم يتخلف منهم أحد ما حتى كونت تولوز على الرغم مما أبداه — حين وصلته الدعوة — من الرفض ، وبذلك وحد الخطر الفاطمى جميع القوات الصليبية .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ؛ أعمال الفرنجة (ترجمة حسن حبشى) ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ مرآة الزمان ، ص ٥٢٠ .

تجمعت هـذه القوات فى « يبنا » التى تعرف فى المراجع الفرنجية ب Ibelin واتجهت جنوباً قاصدة عسقلان ، وساروا وحدة ، فى القلب روبرت النرمانى وكونت فلاندر وتنكريد ، وفى الميمنة ريموند الصنجيلى ، وفى الميسرة جودفروى ، ولم يكن لدى القوات المصرية علم بتحرك الصليبيين ، ولم تكن تتوقع زحفها بمثل هـذه السرعة ، فلا عجب إذا هى فوجئت ولم تجد الوقت الكافى لحمل السلاح ، وبادر الصليبيون فلم يدعوا لهـا فرصة تتأهب فيها ، وكرّ كونت فلاندر على حامل العلم المصرى فقطّه بسيفه ، وانطلق فى إثره الصليبيون فدخلوا المعسكر المصرى ونهبوه وتمت الهزيمة على الجند الفاطمى وهرب الأفضل فى خواصه إلى مصر[١] . أما البقية فهرب بعضها إلى إحدى الغابات فأضرم الصليبيون فيها النار فأتت عليها وعلى من بها[٢] ، وبذلك خلى البلد من المدافع عنـه ، وأصبح من اليسير على القوات الصليبية أن تشق طريقها دون أن تخشى عائقاً ما ، وأن تواصـل الزحف حتى يستسلم البلد بأجمعه ، وهـذا ما هدف إليه جودفروى ، لولا أنه اصطدم بظهور روح العداء ضده من جانب النافسين عليه تولّى أمور بيت المقدس ؛ والواقع أن جودفروى — من جهته هو الآخر — كره من ريموند ميل العسقلانيين إليه وتفضيلهم الاستسلام له دون سواه[٣] ، ثقة منهم بمحافظته على عهده الذى يقطعه لهم بالإبقاء على حياتهم ، وتأمينهم على حرياتهم ومقدساتهم وأموالهم ومعتقداتهم ، فطلب إليـه جودفروى مغادرة البلد حالا ، وكان الصليبيون

---

(١) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٦٤ ؛ Albert d' Aix, p. 497

(٣) Hagenmeyer : Chronologie, no., 435.

قد قرروا على أهلها عشرين ألف دينار ، وشرعوا فى جبايتها ؛ إلا أن هذه الجفوة بين الزعماء أدت بهم للرحيل دون أن يقبضوا شيئاً ما[١] .

حينذاك وضح العداء بين الزعيمين الصليبيين وضوحاً تاماً ، فقد تراجع ريموند إلى الشمال شطر أرسوف ، وفى الوقت ذاته حث العسقلانيين على الشدة فى مقاومة جودفروى منبئاً إياهم بانفضاض العدد الجم من الجند من حوله[٢] ، فطال حصاره لها مدة تقرب من الشهرين[٣] ، هذا إلى قلة ما لديه من الرجال ، كما عزّ عليه حصارها بحراً[٤] ، ولم ينفذ الأفضل نجدة لها سوى ثلة ضئيلة لا تعدو ثلاثمائة مقاتل ، على حين وصلت الصليبيين نجدات بحرية من أساطيل بيزا ، مما حمل أهل أرسوف على الاستسلام أخيراً بالأمان[٥] .

لم يبق من القادة الصليبيين إلى جانب جودفروى سوى تنكريد ، فعهد إليه بقيادة الجند وأقطعه مقاطعة الجليلى وأمّره عليها إذ وكل إليه فتحها ، فخرج فى شرذمة ضئيلين ، ولم تعز تلك الناحية عليه بل استسلمت له دون أن تهرق نقطة من الدماء ، واتخذ طبرية عاصمة لها ، ثم تقدم فاحتل بلدة بيسان وحصّنها ، وأرغم البدو على مغادرة تلك المنطقة ، فأمنت القوافل بوائق غاراتهم .

غير أن جودفروى ما لبث أن اعتل علة كان فيها القضاء عليه ، وخلت

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

(٢) Riant : Inventaire, p. 200.

(٣) Albert d' Aix, p. 497— 499 ; cf. Hagenmeyer : op. cit. p. 496.

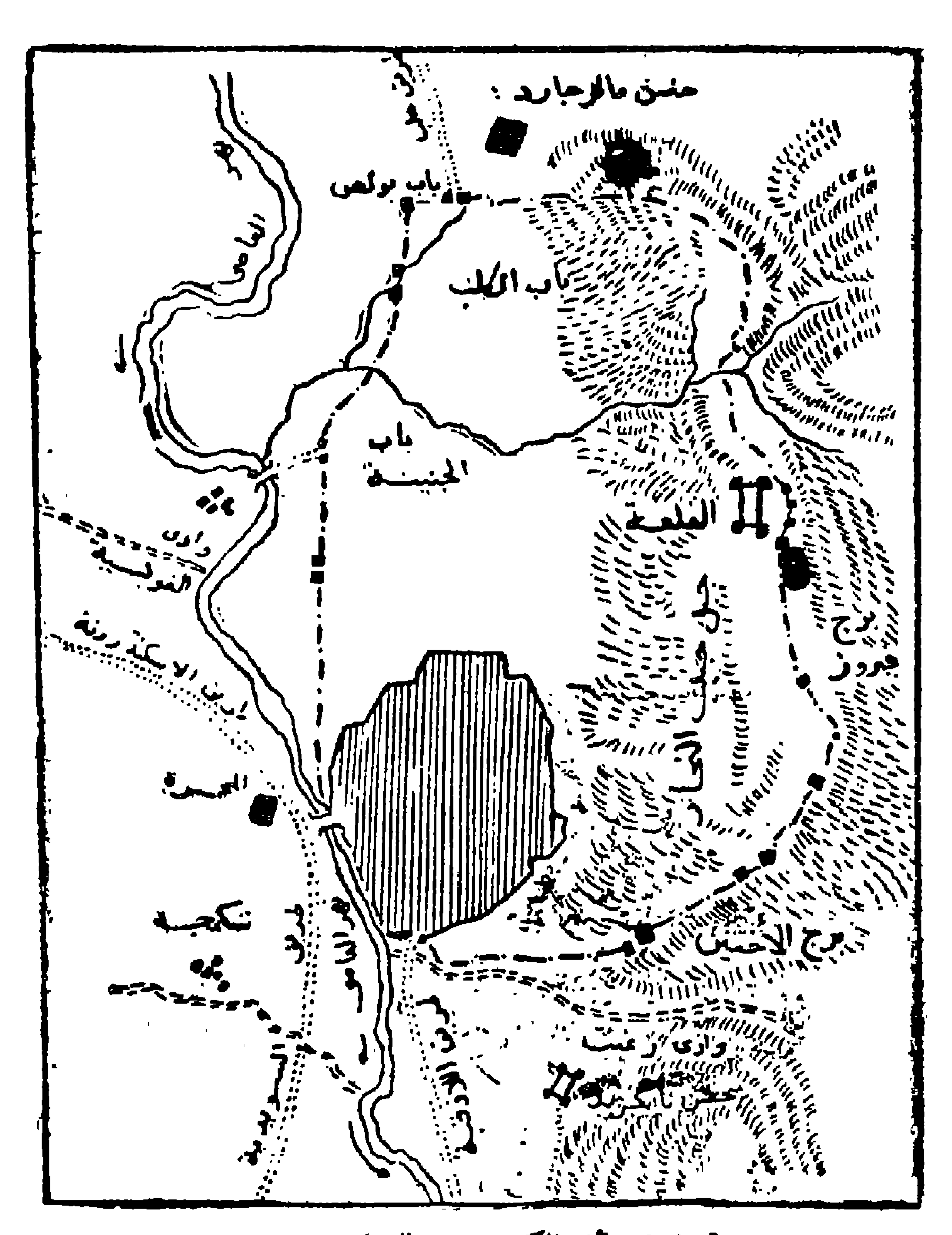
(٤) Albert d' Aix, pp. 507 — 509.

(٥) ابن القلانسى شرحه ، ص ١٢٩ .

بيت المقدس من حاميها ، وإذ ذاك بادر أخوه بلدوين — أمير الرها — بالنهوض إليها ، بعد أن ظهر الشقاق بين الجماعات الصليبية وأطلت العصبيات برأسها حتى لقد أوشكت أن تكون فتنة ، ويكون فيها القضاء على قواتهم بأجمعها ، ورأى بلدوين الفرصة مواتية له ليضرب الضربة التي تمكنه من تولى أمور بيت المقدس فدخلها فى التاسع من نوفمبر ١١٠٠ دخول الظافر المنتصر بعد أن فرّ عنها زعماء الصليبيين الذين كانوا يريدون أخذها ، وعلى رأسهم البطرك دامبرت الذى اعتصم بدير فى جبل صهيون ، وبادر بلدوين فأعلن نفسه — بعد يومين من مقدمه — « ملك بيت المقدس » ، ثم ما لبث أن توّج على يد خصمه البطرك دامبرت يوم عيد ميلاد ١١٠٠ ، وتتابع الأمراء الصليبيون فى الأشهر التالية ليعلنوا ولاءهم لأول « ملك » ، وهكذا تحولت « إمارة » بيت المقدس إلى « مملكة » لا تينية .

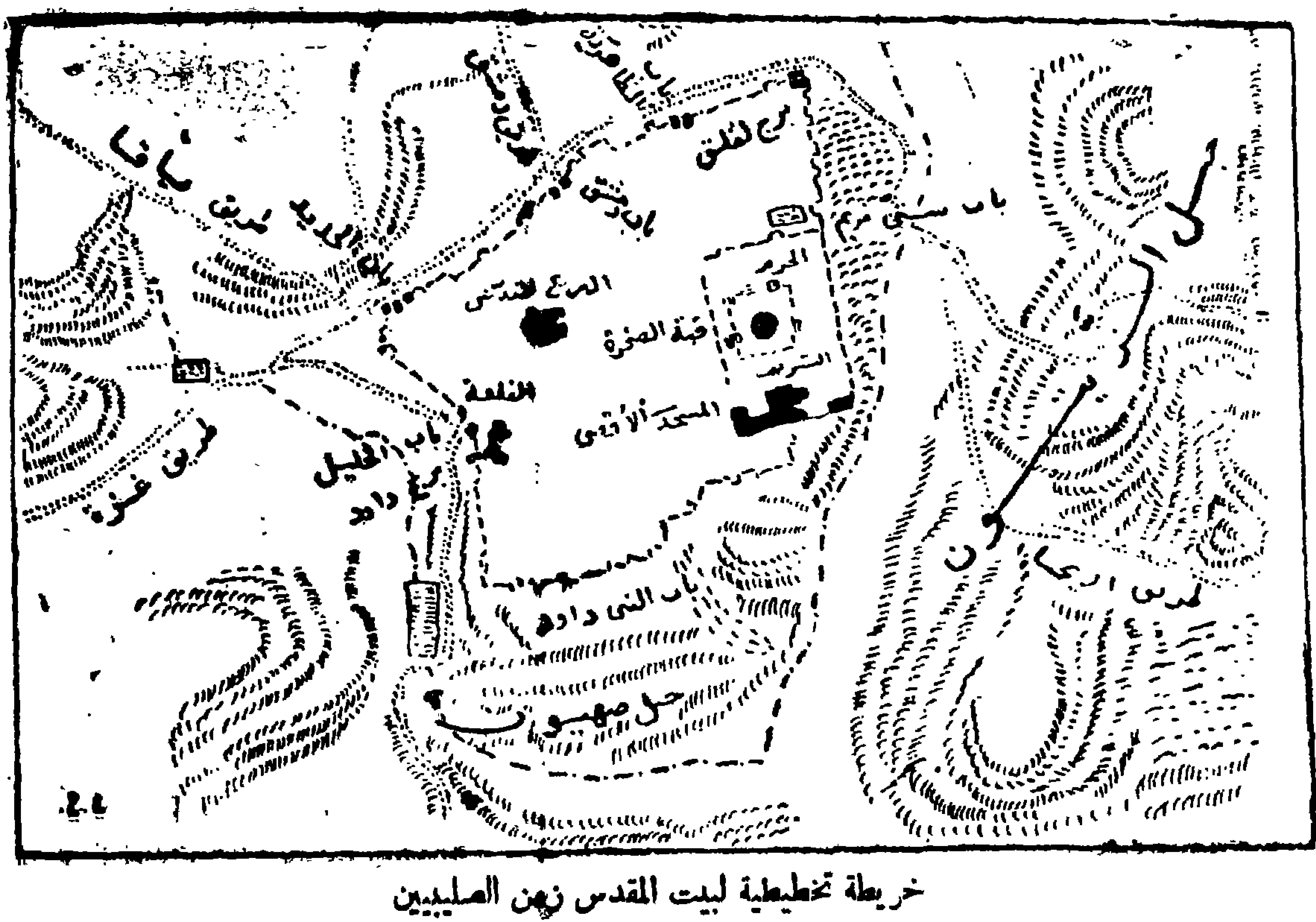
* * *

على هذه الصورة القاتمة انتهت الحملة الصليبية الأولى بالنجاح الذى يسّره لها — قبل كل شىء — تنازع الأمراء المسلمين فيما بينهم ، فى الوقت الذى كانت فيه رعاياهم تتحرق شوقاً إلى الوحدة لتصد الخطر الأوربى الغربى الذى لبس مسوح الدين ، لكن سرعان ما سقط القناع لتتجلى الأطماع الشخصية ، والرغبة فى التملك والسيطرة والحكم ، وتكوين الإمارات على حساب القوى الإسلامية المبعثرة فى الشرق الأدنى .



خريطة تخطيطية لأنطاكية زمن الصليبيين ١٠٩٨ م ٠

(نقلا عن جروسيه)



خريطة تخطيطية لبيت المقدس زمن الصليبيين

(نقلا عن جروسيه)

كشاف

بأسماء الأعلام والأماكن

(ا)

(ب)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(هـ)

المراجع العربية

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (فى طبعة مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين) ، ج ١ ، (ج ٨ فى الطبعة المصرية)

ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين) ، ج ٥

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة أمدروز ، ليدن ، ١٩٠٨

أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين)

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) ج ٤ ، ٥

ترتون ، ا . س : أهل الذمة فى الإسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٤٩

الجستا أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٥٨

سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان

فيشر : تاريخ أوربة فى العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعرينى ، القاهرة ، ج ١

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، نشرة زيادة

ياقوت : معجم البلدان ، مادة أنطاكية ، تل باشر ، تل منس ، معرة النعمان ، عزاز ، مصياف

المصادر الأجنبية

— Albert d' Aix : Liber Christianae Expeditionis . . . .
R. H. Cr. Occ. , t. III).

— Raymond d' Aguilers , Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem (R. H. Cr. Occ. , t. III) .

— Brehier , L. : L' Eglise et l' Orient au Moyen Age
: Les Croisades , Paris , 1928.
: Histoire Anonyme de la premiére Croisade , Paris , 1924 .
: Le Schisme Orientale du XIe siécle, Paris 1899.

— Bury , J. B . : History of the later Roman Empire , vol . I.

— Chalandon, F. : Essai sur le Régne d' Alexis Comnéne , Paris , 1900.
: La Campagne de Manzikert (Byzantion, 1934).
: Histoire de la premiére croisade, Paris , 1925.

— Delarc , G,; Les Normands en Italie . Paris 1883 .

— Dussaud , R. : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale , Paris , 1927 .

— Fliche , A ; : La Chretienté medievale , (Paris , 1936) .
: L' Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris , 1930) .

— Foucher des Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium (R. H. C. Occ. , t . III.) .

— Gay , J. : Les Papes du XIe Siecle et la Chretienté Paris , 1926 .

— Gesenhof : Feudalism in Europe , London , 1946 .

للمؤلف

صــــدر :

(١) نور الدين والصليبيون (١٩٤٨)

(٢) الشرق العربي بين شقي الرحى أو حملة لويس على مصر والشام (١٩٤٨)

(٣) أهل الذمة في الإسلام لترتون (١٩٤٩)

(٤) الحرب الصليبية الأولى (١٩٥٨)

(٥) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (الجستا) (١٩٥٨)

(٦) A Fifteenth — Century — Crusade Attempt against Egypt. (1958)

تحت الطبع :

(١) الدبلوماسية البابوية .

(٢) تاريخ الأندلس لدوزى (فى أربعة أجزاء)

(٣) تاريخ العرب الأدبي لينكلسون

(٤) الإقطاع فى العصور الوسطى لجيزنهوف (تصدره المكتبة التاريخية)

(٥) التطور التاريخي للجريمة والعقاب

(٦) رحلة السفير القشتالى تافور

(٧) إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلانى (فى ٥ مجلدات)

(٨) The Mamluk Expeditions against Castelrosso and Rhodes.

الفهرست

— Gibb, H. A. R : The Damascus Chronicle of the Crusades, Lond., 1932

— Grousset, R. Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, vol. I., Paris, 1934.

. L' Empire du Levant, Paris, 1946.

. L' Empire de Steppes, Paris, 1936.

Guibert de Nogent : Historia Hierosolymitana (R. H. C. Occ., vol. III).

— Hagenmeyer : Chronologie de la Première Croisade, Paris, 1922.

— Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levant, t. I, Leipzig, 1936.

— Jorga, N.; : Bréve Histoire des croisades, Paris. p 1924.

— Lacrois : La Vie Militaire et Religieuse au moyen age, Paris.

— Laurent, J : Byzance et les Seldjoucidés, Nancy, 1913.

— Leib, B : Rome, Kiev et Byzance, à la fin du XIeme Siécle, Paris, 1924.

— Matthiew d' Edesse, Documents Armeniens, (R H. C. Arm., t. I).

— Migne, I, Abbé : La Nouvelle Encyclopedie Théologique.

— Neumann ; La Situation mondiale de L' empire Byzantin avant les croisades. (Rev. de l' Or. Latin, 1903).

— Powicke, : Ghristian Life in the Middle Ages, Lond.

— Riant, P. : Inventaire critique des lettres historiques des Croisades (Arch. l' Orient Latin, t. I, Paris, 1881).

: Expeditions et Pelerinages des Scandinaves en Terre Sainte, Paris, 1865.

— Kobert le Moine , Historia Hierosolymitana (R . H . C. Occ. , vol . III.)

— Rousset , P. ; : Les Origines et les caractères de la première croisade , Neuchêtel , 1945 .

— Runciman , S : Byzantine Civilisation , London , 1948.
: History of the Crusades , vol . I , Cambridge University Press , 1953 .

— Schlumbesrger , J. : Un Empereur Byzantin : Nicephore Phocas , Paris , 1895 .

— Stevenson , W. B. : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907

— Vasiliev , A ., Histoire de L' Empire Byzantin , t. I, Paris , 1932 .

— Wiet , G . : Prècis de L' Histoire de L' Egypte , Paris , t. III.

— William of Tyre : . L' Estoire de Eracles Empereur et la Conquesta de la Terre d' Outremer, (R' H. C. Occ. , vol. I)

